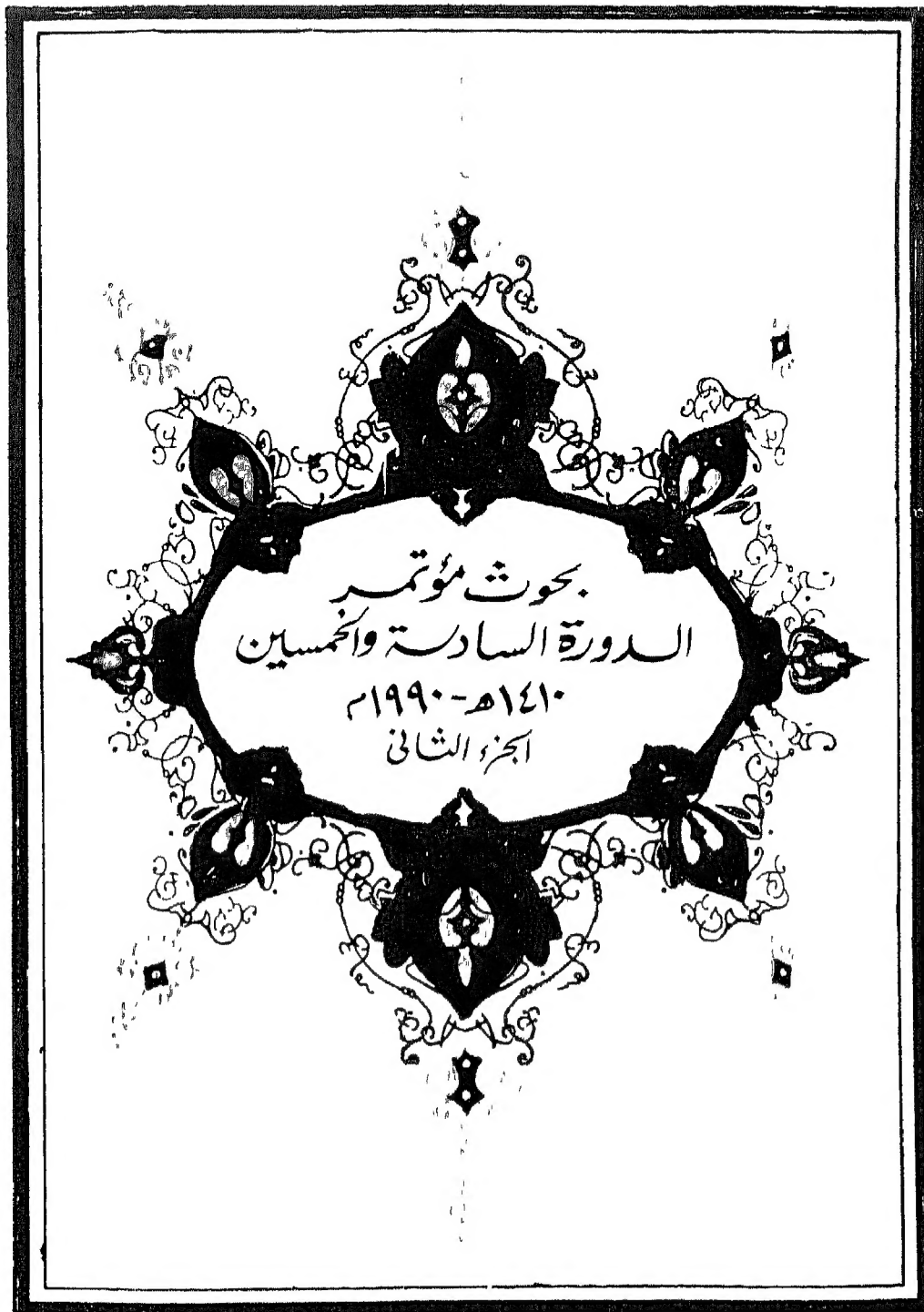


مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء السابع والستون
ربيع الآخر سنة ١٤١١ هـ
نوفمبر سنة ١٩٩٠ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز أباظة
المعهد السويسرى سابقا (بالزمالك

اهداءات ٢٠٠٣

أ.د / شوقي ضيف
رئيس مجمع اللغة العربية

مجلة مجمع اللغة العربية

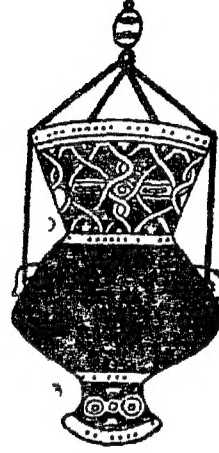
(تصدر مرتين في السنة)

الجزء السابع والستون
ربيع الآخر سنة ١٤١١ هـ
نوفمبر سنة ١٩٩٠ م

المشرف على المجلة:
الدكتور مهدي علام

رئيس التحرير:
إبراهيم التري

أمين التحرير:
سعد توفيق



-
- التربية المثلى للشباب في ضوء الاسلام
للدكتور حسن الفاتح قريب الله
ص ١٢١
 - الفكر العلمى العربى وحضارة الغرب
للدكتور يوسف عز الدين
ص ١٣٠
 - العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس
من خلال رسائل الزبيدي صاحب تاج
العروس
للدكتور أبو القاسم محمد كرو
ص ١٤٥
 - الاطار التاريخى لسورة براءة
للدكتور حسين مؤنس
ص ١٥٠
 - فى آفاق لغة الوحي
للاستاذ حسن عبد الله القرشى
ص ٢١١

مع العربية ومجمع اللغة في القاهرة قصيدة للدكتور إبراهيم السامرائي

رَبِعَتْ فَضِيمَ بَرْزَمٍ أَوْرَقُ وَمَصَّتْ بِمَا تَشْتَقِي وَتَأْتَلِقُ
بَبَقِيَّةٍ مِنْ سَخِرِ يَابَعَةٍ فَذَنْ يَتَّبِي بَنْضَمَ أَرِهِ أَلَقُ
تَرَكَتْ عَرِيضَ الرُّوضِ ظَامِئَةً رَوْحَاتُهُ ، وَاسْتَضَمَّ رِخَ الْوَرَقُ
وَذَوَى عَلَى أَعْلَاقِهَا عَبَقُ لَمْ يَخْلُ عَنْهُ وَارِفُ أَنْقُ
لَغَةُ سَعَيْتُ لِمَا شَقِيَتْ لَهُ مِنْهَا ، كَنَانِي رُحْتُ أَسْمَتِي قُ
وَشُعِلْتُ مِنْهَا شُعْلَ ذِي أَرْبِ أَضْنَاهُ فِي عَمَرَاتِهِ عَالِقُ
أَنَا بَعْضُ فَرْمٍ نَالَهُمْ نَصَبُ فِيمَا سَمِعُوا لَعْلَاهُمَا وَشَقُّوا
أَضْنَاهُمْ الدَّرْبُ الَّذِي طَرَقُوا وَهَدَاهُمْ الْهَدَى الَّذِي صَدَقُوا

* * *

يَا خَالِدِينَ ! وَقَدْ سَعَيْتُ لَكُمْ بِأَثَارَةٍ فِي طَيْهَا عَبَقُ
أَكْبَرْتُ فِيكُمْ كُلَّ مُخْتَرِبٍ طَالَعْتُهُ كَالسَّيْلِ يَدْفِقُ
وَوَجَدْتُ فِيكُمْ كُلَّ مُدْرِعٍ بِالْعِلْمِ ، وَهُوَ بِسِرِّهِ حَاقِقُ
وَقَبَسْتُ مِنْ « شَيْخٍ » سَمَاحَةً مَنْ يَغْنَى بِأَيُّهُ لَدَى وَيَعْتَذِرُ قُ
وَلَا أَنْتُمْ قَدَرُ لِبَـارِعَةٍ غَنِيَّتُ ، فَلَاخَ وَفُ وَلَا فَرَقُ
أَمْسَرَى بِكُمْ فِي كُلِّ مُطْلَمَةٍ فُلُكُ ، فَلَا عَطَبُ وَلَا غَرَقُ

* * *

(*) أَلْقَيْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي الْجُلُوسَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ حُلُوسَاتِ الْمَوْثَمِ الْمُنْعَقِدَةِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ٣ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ ١٤١٠ الْمُوَافِقِ ٢٨ مِنْ فَبْرَايِرِ (شَبَاط) سَنَةِ ١٩٩٠ م

أَنَا بَعْضُ جَمْعٍ لَيْسَ يَجْمَعُهُمْ
وَأَمَّضَهُمْ هَمٌّ لِمَا بَعْدَ
مِمَّا حَوَتْ مِنْ فَيْضِهَا مَدَدًا
وَضَمَانَةُ الضَّادِ الْمُتَبَعِ وَمَا
وَذَخِيرَةُ كُنَّا بِحُرْمَتِهَا
وَبِمَا تَحَدَّرَ مِنْ سَمَاحَتِهَا
وَبِمَا هَدَيْنَا مِنْ رَحَابَتِهَا
وَسَمِعَتْ إِلَى أُمَمٍ أَضْمَرَ بِهَا
وَدَنَتْ إِلَى رَشَدٍ تَلُوحُ بِهِ
أَلْوَتُ بِنَا غِيًّا وَنَفْسُ تَرِقُ
أَفْعَدَ مَا ضَمَّاقَتْ بِنَا حِلَلُ
شِمْنَا الرَّجَاءِ الْمُسْتَنِيرِ إِلَى

إِلَّا الَّتِي بَيَّانِيهَا نَطَقُوا
تَلْقَى ، فَلَا تَشْهَقِي وَتَحْتَرِقُ
تَقْوَى بِهِ ، وَتَرُوحُ تَرْتَفِقُ
« لِلذِّكْرِ » مِنْ نَفْحَاتِهِ نَسَقُ
بِأَجَلٍ مَا نُمْنَى وَنَفْتَرِقُ
حِكْمُ تَضَى لَنَا وَتَتَسَقُ
طَبْعُ مَشَى فِي سَمْعِهِ خُلُقُ
خُلْفُ ، وَعَمَّ سَبِيلَهَا غَسَقُ
فِيَا تَلَى مِنْ خَطْبِهَا طُرُقُ
وَمَشَتْ بِنَا هَدْيًا وَنَتَفِرُقُ
وَتَوَزَّعَتْ بِشَهَاتِنَا فِرْقُ
فَجَرِ أَضَاءَ بِنَا وَرِهِ أَوْقُ

* * *

إِنِّي ، وَقَدْ أَذْرَكْتُ مِنْ رَشَدٍ
لَأُطِيلُ مِنْ نَفْسٍ لِعَافِيَةٍ
وَأُزِيحُ عَنِّي كُلَّ غَاشِيَةٍ
عَرُودًا إِلَى دَرْبِ تَهْيِيئَتِي
وَمَعَ الَّذِينَ بِبِائِسِهِمْ وَصَلُوا
أَوْلَاءَ مَنْ شَرُّوا بِمَا صَلَقُوا
بِلِسَانٍ صَدَقَ غَيْرُ ذِي عَوَجٍ
تَلَقَّاهُمْ السَّاعِينَ فِي حَرَدٍ

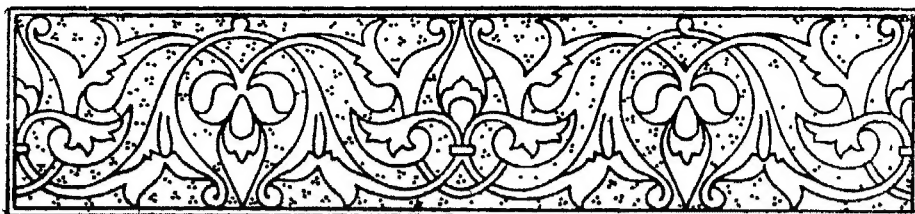
وَأَرَقْتُ فِيهِ وَنَابَنِي أَرَقُ
وَأَصْدُ مَا يُؤْمِي بِهِ رَمَقُ
لَوْلَا الْهُدَى ، قَدْ كَذَبْتُ أَحْتَرِقُ
مِمَّا دَجَا فِي وَعْثِهِ لَثَقُ
بِمَسِيرَةٍ قَدْ رُحْتُ أَلْتَحِقُ
وَلَأَنْتَ فِي هَدْيِي بِمَا نَطَقُوا
وَلَذَلِكَ أَوْفَرُ مُنَّةٍ رُزْقُوا
لِلْجِدِّ ، كُلُّ مُفْصِحٍ لَبَقُ

بَحْمَاسَةٍ ذَهَبَتْ بِهِمْ رَشْمًا
إِنْ كَانَ ذَلِكَ فَإِنْتَ بَعْضُهُمْ
وَلَهُمْ بِذَلِكَ مِقْدٌ وَلَ ذَلِيقُ
وَلَأَنْتَ فِيهِمْ مُعْجَلٌ تَثِيقُ

* * *

قَسَمًا بِمَا نَمَرْتُ مِنْ قِيَمٍ
مَا كُنْتُ أَغْدِلُ عَنْ هَوًى أَبَدًا
وَبِمَا أَنْجَلِي مِنْ هَلِيهَا فَلَقُ
لِلْحَزْمِ ، لَا دَعْوَى وَلَا مَلَقُ
أَنْ لَوْ صَبَرْتُ لَزُخْرِحَ الْقَلَمُ
فِي سَمْعِهِ مِمَّا بِهِ يَثِيقُ
هَمْ شَقِيتُ بِهِ وَأَحْسَبُنِي
وَلَنِعَمَ مَا يَلْقَاهُ ذُو مِقْدَةٍ

ابراهيم السامرائي
عضو المجمع (من العراق)



حديث عن الإنسان في القرآن الكريم

للدكتور محمد رشاد الطويل
عضو الجمع

قدراته العقلية والجسدية ما يتفوق به على
سائر المخلوقات ، حتى أصبح بفصل من
الله وحكمة ، سيد المخلوقات جميعاً دون
منارع ، وأصبحت له السيطرة الكاملة على
محريات الأمور في هذا العالم المتسع الأرجاء .
ولذلك فقد تراعى إلى أن أحصى هذا
الإنسان العاقل بحديث مستقل أستمده
عناصره وأساسياته من القرآن الكريم ،
فكان حديث اليوم .

الإنسان ، الناس ، البشر :

إن لفظ « الإنسان » يطلق على كل
من الذكر والأنثى من بني آدم كما ورد
في « معجم ألفاظ القرآن الكريم » الذي
أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ،

سبق لي أن تحدثت في العام الماضي
أمام هذا المجلس الموقر عن « دواب الأرض
في القرآن الكريم » ، وأوضحته في ذلك
لحديث أن تلك الدواب تبدأ من النملة
الصغيرة حتى الإنسان العاقل ، فكلها من
المخلوقات التي تدب على سطح الأرض ،
تأكل من رزق الله وتُسبِّح بحمده ، وقد
ورد في القرآن الكريم ما يستدل منه على
أن هذا الإنسان العاقل إن هو إلا أحد تلك
الدواب كما في الآية الكريمة التالية :

« وَلَوْ يَوَافِقُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ
عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُوحِشُهُمْ إِلَىٰ أَحْلَىٰ
مَسْمًى » . (٦١ / النحل)

ولكن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان
العاقل بالفتنة والذكاء ، وجعل له من

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الثلاثاء ٢ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ
الموافق ٢٧ من فبراير (شاط) سنة ١٩٩٠ م .

وعده هذه الآيات البيّنات إحدى وستون آية (٦١) ، كما ورد في معجم ألفاظ - القرآن الكريم ، تضاف إليها ثلاث آيات أخرى (٣) المقصود فيها بلفظ الإنسان هو آدم عليه السلام ، وتلك الآيات - الثلاث هي :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » . (٢٦ / الحجر)

« وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ » (٧ - السجدة)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » (صدق الله العظيم) (١٤ / الرحمن)

ومعنى ذلك أن هناك أربعاً وستين (٦٤) آية ورد فيها لفظ « الإنسان » معرّفاً ، كما ورد في معجم ألفاظ القرآن الكريم .

عند قراءة هذه الآيات البيّنات استعداداً لكتابة هذا البحث عثرت على خطأ يسير غير مقصود في سرد الآيات السابق ذكرها ويكون لي اليوم شرف تصحيح هذا الخطأ .
ففي قائمة الآيات الخاصة بالإنسان عامة وجدت الآية رقم « ١٢ / المؤمنون » ضمن

وصدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥٣ (ألف وتسعمائة وثلاث وخمسين) وقد ورد هذا اللفظ بدون أداة التعريف مرة واحدة في القرآن الكريم ، وذلك في قوله سبحانه وتعالى :

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ »

(صدق الله العظيم)

(١٣ / الإسراء)

أما مع أداة التعريف فقد ورد ذكره في كثير من الآيات السينات نذكر منها على سبيل المثال :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا »

(٨ / العنكبوت)

« أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ »

(٣ / القيامة)

« يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » .

(١٠ / القيامة)

« يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى » .

(٣٥ / النازعات)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »

(٣ ، ٤ / الرحمن)

« إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا » .

(صدق الله العظيم)

(١٩ / المعارج)

في مختلف الآيات القرآنية مائتين وأربعين مرة (٢٤٠) ، نذكر منها على سبيل المثال الآيات التالية :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » . (٤٤ - البقرة)

« فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » . (٢٤ / البقرة)

« فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » . (٨٥ / الأعراف)

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ » . (٩ - آل عمران)

« وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » . (صدق الله العظيم) (٥٨ / النساء)

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى لفظ آخر يدل على الإنسان وهو « البشر » لوجدنا أنه ورد كثيراً في القرآن الكريم ، ومن أمثلة الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ - الآيات التالية

« قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي إِبْنٌ وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » . (٤٧ / آل عمران)

هذه القائمة . وتلك الآية هي كما يلي . « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » . (صدق الله العظيم) (١٢ / المؤمنون)

ولما كانت هذه الآية الكريمة المقصود فيها أيضاً بلفظ « الإنسان » هو آدم عليه السلام ، فيجب ضمها إلى الآيات الثلاث الأخرى المتعلقة بآدم ، وبذلك يكون العدد الحقيقي للآيات الخاصة بالإنسان عموماً هي ستون آية (٦٠) ، وتلك التي تشير إلى آدم عليه السلام هي أربع آيات (٤) بدلاً من ثلاث .

يضاف إلى تلك الآيات السابقة ست آيات أخرى (٦) ورد فيها لفظ « الإنسان » مجروراً باللام ، كما في قوله تعالى :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ » .

(صدق الله العظيم)

(٥ / يوسف)

ولما كانت كلمة « الناس » تطلق كما هو معروف على « الجماعة من الإنسان » فلا بد لنا من التعرف على ورود هذا اللفظ في القرآن الكريم ، وخصوصاً أنه أكثر الألفاظ دلالة على بني البشر ، إذ أنه ورد

« قَالَ لَمَ أَكُنْ لَأَسْجِدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَصالٍ مِنْ حَمَإٍ مُسْنُونٍ » .

(٣٣ / الحجر)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ »

(صدق الله العظيم)

(١١٠ / الكهف)

الذكر والانثى :

لست في حاجة إلى القول إن الإنسان أو الناس أو البشر منهم الذكر ومنهم الأنثى ولولا وجودهما معاً لما استمرت الحياة على ظهر هذه الأرض من عهد آدم إلى يومنا هذا ، وكانت الأقوام في العهود الغابرة وخصوصاً أيام الجاهلية الأولى يفضلون الذكر على الأنثى ، وربما كان هذا الشعور العدائى نحو ولادة الأنثى من رواسب المعتقدات القديمة التى توارثها الإنسان جيلاً بعد جيل . فقد عُرف مثلاً أن العرب في الجاهلية ، أى قبل ظهور الإسلام كانوا يعتبرون ولادة الأنثى كارثة تنخلع لها قلوبهم ، وليس أدل على ذلك من الوصف الذى أورده القرآن الكريم بهذا الخصوص ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ

مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ » .

(صدق الله العظيم)

(٥٨ ، ٥٩ / النحل)

وكان العرف السائد حينئذ هو التخلص من المولودة الأنثى ، وكانهم يتخلصون من داءٍ وبيل ، وكان مبعث هذا الشعور هو الخوف مما قد ترتكبه تلك الأنثى من الفساد عندما تشب وتنضج ، أو من وقوعها في الأسر في أيدي أعدائهم ، حيث كانت القبائل البدوية في حروب تنبه مستمرة .

وكانت القبيلة المنتصرة تأخذ الأسلاب من ممتلكات القبيلة المهزومة ، كما كانت تأخذ نساءها أسرى حرب أو سبائاً ، ولذلك كانوا يتخلصون من الأنثى بعد ولادتها مباشرة بدفنها حية في التراب ، مما كان سبباً في نزول الآية الكريمة التالية :

« وَإِذَا الْمَوْمُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ »

(صدق الله العظيم)

(٨ ، ٩ / التكوين)

ولم يكن الانزعاج من ولادة بنت ، مقصوراً على الرجال وحدهم ، بل يتعداهم

« يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوَر » (صدق الله العظيم)
(٤٩ - الشورى)

الأساس العلمى للذكورة والأنوثة :

إن ولادة الذكور أو الإناث تسير فى نظام محدد ثابت منذ بدء الخليقة إلى الآن ، فقد وضع الله سبحانه وتعالى فى حساباته الدقيقة أن تكون ولادة الذكور مساوية تماماً لولادة الإناث . فلا يطغى أحدهما على الآخر عددياً ، مما قد يؤدي إلى اختلال فى موازين الوجود والبقاء على سطح الأرض .

وتدل جميع الإحصائيات فى مختلف بلاد العالم أن عدد الذكور مساو تقريباً لعدد الإناث . ومع ذلك فقد وجد مثلاً أن هناك بعض العائلات التى تاد نساؤها ذكوراً أكثر من الإناث ، وهناك عائلات أخرى تلد نساؤها إناثاً أكثر من الذكور . ولكن المجموع الكلى للذكور يكون مساوياً لمجموع الإناث فى نفس هذا المجتمع .

وعلى أية حال فقد ثبت علمياً فى الوقت الحاضر أن المرأة غير مسؤولة إطلاقاً عن ولادة الذكور أو الإناث . وذلك ، لأن

إلى النساء أيضاً ، وقد نتلمس شيئاً من هذا القبيل فيما ورد ذكره فى القرآن - الكريم عن « امرأة عمران » فى الآية الكريمة التالية :

« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى » (صدق الله العظيم)
(٣٦ - آل عمران)

ثم تستمر بعد ذلك فى مخاطبة المولى عز وجل قائلة :

« وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى » (صدق الله العظيم)
(٣٦ / آل عمران)

وقد نستشف من ذلك أنها غير قانعة تماماً بتلك المولودة ، أو أنها غير راضية عنها وإن لم يرد ذلك صراحة فى تلك الكلمات ، بل إنها كانت تفضل المولود الذكر ، لأنه فى عرفها أفضل من الأنثى

وقد تلاشت تماماً تلك الأفكار القديمة فى عصرنا الحاضر ، أو كادت ، ولم يعد هناك أى تمييز أو تفضيل بين الذكر والأنثى فى مضمار الحياة ، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى :

الكيميائي « (Chemotaxis) » ،
ويكون الفوز للمتسابق الأول الذى يصل
إلى البويضة قبل غيره ، إذ أنه يندمج
معه تماماً ، ويقال للبويضة عندئذ : إنها
قد أخصبت . ولما كانت تلك الخلايا
الجنسية توجد بأعداد متساوية تماماً ،
نكون الفرصة سانحة لأي من النوعين :
(س) أو (ص) لكنى يؤدي إلى إخصاب
البويضة .

وبذلك يكون هناك احتمالان فقط .
لا ثالث لهما :

الاحتمال الأول :

بويضة + حيوان منوى ← عملية بويضة مخصبة
س س س س
ويكون المولود أنثى

الاحتمال الثانى :

بويضة + حيوان منوى ← عملية بويضة مخصبة
س ص س ص
ويكون المولود ذكراً

وتبعاً لقانون الاحتمالات يكون نصيف

جميع البويضات (ova) التى تخرج
من المبيض - والتى يتكون منها الجنين
بعد إخصابها - من نوع واحد فقط ، وهذا
النوع الوحيد من البيض قادر على إنتاج
الذكور أو الإناث ، فهو يحتوى بداخله
على نوع واحد فقط من الصبغيات الجنسية
أو الكروموسومات (Chromosomes)
يطلق عليه اسم الكروموسوم السينى (س) ،
ويرمز له باللغات الأجنبية بالحرف (X)

أما الماء الدافق الذى « يخرج من بين
الصلب والترائب » فهو يحتوى على خلايا
جنسية من نوعين مختلفين ، يحمل أحدهما
بداخله الكروموسوم السينى (س) ، بينما
يحمل النوع الثانى كروموسوماً جنسياً آخر
هو الكروموسوم الصادى (ص) ويرمز له
باللغات الأجنبية بالحرف (Y)

إن هذه الخلايا الجنسية دقيقة الحجم
تماماً إذا قورنت بحجم البويضة . ويوجد
منها ما يقرب من الثلاثمائة مليون فى الدفقة
الواحدة ، وعند وصولها إلى داخل الرحم
فإنها تتسابق جميعاً نحو البويضة - إن
وجدت - لإخصابها ، تدفعها فى ذلك قوة
غامضة يطلق عليه العلماء اسم « التوجه

الذكور أو الإناث يمرون خلال حياتهم بمراحل متعددة لكل منها في القرآن ذكر ، وأرل هذه المراحل هي مرحلة الطفولة ، ولم يرد لفظ « الطفل » في القرآن الكريم إلا بمعنى الوليد (كما هو واضح من معجم ألفاظ القرآن الكريم) . ومن ذلك على سبيل المثال الآية الكريمة التالية .

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْعَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » .
(صدق الله العظيم)
(٦٧ / غافر)

وآية أخرى مماثلة .

« وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » .
(صدق الله العظيم)
(٥ / الحج)

ثم يأتي بعد ذلك المصبي ، وقد عُرِفَ في « المعجم الوسيط » بأنه الصغير دون الغلام ، أو من لم يفطم بعد ، وعرف في معجم ألفاظ القرآن الكريم بأنه « من لم يبلغ الحلم » ، وقد وردت عنه في القرآن الكريم آيتان فقط . إحداهما

المواليد (٥٠ /) من الأولاد ، والنصف الآخر من البنات . وهو ما يشاهد في مختلف بلاد العالم بصفة عامة

وأحب أن أنوه هنا أن بعض علماء الوراثة قد قاموا بعدة محاولات المتحكم في جنس الجنين في الإنسان . وكانت آخر هذه المحاولات تعتمد على فصل الحيوانات المنوية المنتجة للذكور (وهي الحاملة للكرموسوم ص) عن تلك المنتجة للإناث (وهي الحاملة للكرموسوم س) بعد تكوينها داخل الخصية . ثم إتاحة الفرصة للنوع الأول منها لإخصاب السويضة دون النوع الثاني وذلك في حيوانات التجارب تمهيداً لاستخدامها بعد نجاحها في حالة الإنسان . ولكن لم يكتب لثل تلك المحاولات أي نجاح على الإطلاق ، ويظل الأمر كماه في يد المخالتي العلي التمدير ، كما تحدثنا الآية الكريمة

« يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ » . (صدق الله العظيم)
(٤٩ / الشورى)

مراحل العمر

الطفل ، المصبي ، الغلام .

إن كل هؤلاء المواليد سواء كانوا من

هى الآية الكريمة التالية :

« يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ
الْحُكْمَ صَبِيحًا » . (صدق الله العظيم)
(١٢ / مريم)

هناك بعد ذلك الغلام ، وقد عرف في
معجم القرآن الكريم والمعجم الوسيط. بأنه
« الصبى من حين يولد إلى أن يشب » ،
ووردت عنه في القرآن الكريم عدة آيات
نذكر منها على سبيل المثال :

« قَالَ يَا نُشْرَى هَذَا غُلَامٌ »

(١٩ / يوسف)

« فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » .

(١٠١ / الصافات)

« فَإِذَا طَلَقْنَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ »

(٧٤ / الكهف)

النضوج الجنسي :

أما بعد بلوغ الحُلُمِ أو بعد مرحلة
البلوغ فيكون هناك تمييز واضح بين الذكر
والأنثى ، أو بين الرجل والمرأة نتيجة ،
لظهور ما يعرف « بالصفات الجنسية
الثانوية » ، وتنتج هذه الصفات بتأثير

هرمونات معينة تفرزها الخصية عند الرجال
أو المبيض عند النساء .

والمعروف أن الصبى أو الغلام عندما
يقترّب من سن البلوغ أو عند اجتيازها
تظهر عليه عدة تغييرات جسدية منها على
سبيل المثال عمق الصوت وخشونته نتيجة
لنمو الحنجرة والأحبال الصوتية ، وخشونة
الجلد بعد أن كان ناعم الملمس كجلد
الفتيات ، ثم البدء في نمو الشعر على الوجه
لتكوين الشارب واللحية . ونمو عضلات
الجسم وتضخمها وخصوصاً عضلات الأذرع
والسيقان ، ولا يكون هناك تركيز لتوزيع
المواد الدهنية تحت الجلد في الصدر وعند
الأرداف كما هى الحال عند الإناث .

أما الفتاة الصغيرة فمن أظهر صفاتها
الجنسية الثانوية نمو الأثداء بطريقة تؤهلها
للقيام بوظيفتها المستقبلية ، وهى إدرار
اللبن لإرضاع المولود وكذلك توزيع المواد
الدهنية تحت الجلد بصورة تؤكد أنوثة
الأنثى . وخصوصاً عند الأرداف . وهو
ما يعنيه الشاعر بقواه :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة

لا يشتكى قصر منها ولا طول

أى أنها نحيفة البطن ممتلئة العجز ،
مما يجعلها في صورة تختلف تماماً عن صورة
الرجل .

هذا بالإضافة إلى نعومة في الصوت ،
فلا يختلف كثيراً عن صوت الطفل ،
ونعومة في الجلد فيظل ناعم الملمس ،
ولا تدركه الخشونة الموجودة في جلد الرجال .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة ذكر
فيها كل من الرجل أو المرأة على حدة ،
نذكر منها على سبيل المثال :

« أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » .

(٧٨ / هود)

« وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى »

(٢٠ / القصص)

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » .

(٢٨ / غافر)

« إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ
حَتَّى حِينٍ » . (صدق الله العظيم)

(٢٥ / المؤمنون)

أما المرأة فقد ورد ذكرها في القرآن
الكريم للدلالة على الأنثى من بنات آدم ،

كما في قوله تعالى :

« إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » .

(صدق الله العظيم)

(٢٣ / النمل)

ولكن الأغلب والأعم هو ورودها بمعنى
الزوجة ، وتكون مقرونة باسم زوجها ،
كما في الآيات التالية :

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي
نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا » .

(٣٥ / آل عمران)

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ
تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

(٣٠ / يوسف)

« وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي
يَلَكَ » . (صدق الله العظيم)

(٩ / القصص)

الكهل ، الشيخ :

ويصل كل من الرجل والمرأة إلى دور
الكهولة ، ويطلق لفظ « الكهل » كما جاء
في معجم ألفاظ القرآن الكريم على من
جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين وخطه
الشيب ، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن

أبيض وأسود :

نعرف جميعاً أن آدم عليه السلام ، وزوجته حواء كانا يعيشان في الجنة ولكنهما استمعا إلى وسوسة الشيطان وأكلا من الشجرة المحرمة ، فطردا من الجنة كما توضح الآية الكريمة التالية :
« قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » . (صدق الله العظيم)
(١٢٣ / طه)

ومنذ ذلك التاريخ السحيق وأبناؤهما يضربون في مجاهل الأرض ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، حتى امتلأت بهم الدنيا على سمعتها ، وأصبحوا يملغون الخمسة آلاف من الملايين على وجه التقريب ، كما أصبحوا شعوباً وقبائل ، يتباينون في صفاتهم وطبائعهم ، كما يتباينون أيضاً في لغاتهم وألوانهم ، كما توضح الآية الكريمة التالية :

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتَلَفَ إِلَيْهِ نَسَبُكُمْ وَأَلْوَانُكُمْ » .
(صدق الله العظيم)
(٢٢ / الروم)

الكريم في آيتين فقط. في معرض الحديث عن عيسى عليه السلام :

« وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهَادِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ » . (٤٦ / آل عمران)
« إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهَادِ وَكَهَلًا » (صدق الله العظيم)
(١١٠ / المائدة)

أما الشيخ فتعريفه في معجم ألفاظ القرآن الكريم « من الخمسين إلى آخر عمره ، وقيل إلى الثمانين » . وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ثلاث مرات فقط. في الآيات التالية :

« أَلِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا » .
(٧٢ / هود)
« لَأَنْسُقِبِي حَتَّى يُضْلِرَ الرَّعَاءُ^(١) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » (٢٣ / القصص)
« ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا » . (صدق الله العظيم)
(٦٧ / غافر)

(١) يصدر الرعاء — يسقى الرعاة دوابهم ويصرفوها عن الماء .

أما الألوان فالمقصود بها على الأرجح لون الجسم من بياض أو سمرة أو سواد أو غيرها وقد وردت في القرآن الكريم عدة آيات تدل على اللون عموماً ، منها على سبيل المثال :

« يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا سَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » .

(٦٩ / النحل)

« فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا »

(٢٧ / فاطر)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا »

(صدق الله العظيم)

(٦٩ / البقرة)

وسوف أقتصر هنا في كلامي على لون الإنسان دون الألوان الأخرى ، ففي الأقاليم الشمالية الباردة حيث تكون أشعة الشمس ضعيفة نسبياً ، ويكون عدد الأيام المشمسة قليلاً على مدار العام ، نجد أن الجلد لا يحتوي إلا على كمية قليلة من صبغ الميلانين^(١) (Melanin) مما يؤدي إلى بياض البشرة وإلى وجود العيون الزرق ،

المقصود « بالألسنة » هنا هو « اللغات » التي يتكلم بها بنو البشر في مختلف أرجاء العالم ، كما هو معروف ، وقد أشرت في حديثي السابق إلى أن اللغة إن هي إلا أصوات ينطق بها اللسان ، فتستقبلها الأذن وتذكر المقصود منها ، وأن الإنسان يتعلم في طفولته جميع الكلمات التي ينطق بها كل من نحوله من البشر ، أي أنه يتعلم اللغة تعليماً ، ولا يولد على معرفة بها على الإطلاق .

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب – بالصمم لا يستطيع سماع الأصوات والكلمات التي تنبأدها فيما بيننا ، ولذلك فإنه يصبح فيما بعد من الإكتم الذين لا يتكلمون ، ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصمم والبكم في كثير من الآيات القرآنية – الكريمة ، ومنها مثلاً :

« صُمُّكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » .

(١٨ / البقرة)

« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . (صدق الله العظيم)

(٧٨ / النحل)

(١) الميلانين صبغ أسود أو بني داكن يستقر داخل الجلد عند قاعدة البشرة في خلايا خاصة تسمى خلايا الميلانين ،

والشعر الأصفر ، كما هي الحال في البلاد الإسكندنافية على سبيل المثال .

فإذا انتقلنا نحو الجنوب نجد أن لون العباد والشعر والأعين يزداد سمرة بالتدريج حتى نشاهد اللون الأسود الداكن في المناطق الامتوائية وهي المناطق التي لا تكاد تغيب عنها الشمس طول العام ، كما تكون الأشعة الضوئية في أعلى معدلاتها قوة ، وانتشاراً ، وهو ما يوضح لنا أن كمية الصبغ الأسود الموجود في جلد الإنسان يتناسب تناسباً طردياً مع كمية الأشعة الضوئية التي يتعرض لها في حياته اليومية .

والواقع أن صبغ الميلانين له أهمية قصوى في حماية أنسجة الجلد اللينة من التأثيرات المدمرة للأشعة فوق البنفسجية الموجودة في الشمس ، ولذلك تتكون من هذا الصبغ طبقة داكنة تمنع وصول تلك الأشعة إلى داخل الجلد ، ولذلك تكون هناك اختلافات واضحة في كمية الميلانين الموجودة في الجلد في مختلف السلالات البشرية تبعاً للبيئات التي تعيش فيها كل من تلك السلالات .

ويتضح من ذلك أن اللون الأسود نعمة لا نقمة ، وحسنة لا سيئة ، قدرها الله سبحانه وتعالى لعباده الذين يعيشون في أقاليم قد تتعرض فيها جلودهم ، وبالتالي أنفسهم للهلاك بفعل أشعة الشمس ، فالمعروف أن الجلد هو خط الدفاع الأول في وقاية الإنسان من « الغزو الميكروبي » للجسم ، ولعل البيض في جنوب إفريقيا يعون هذه الحقائق ، وتفتتح أبصارهم وقلوبهم على الحق والعدل

تلك نبذة قصيرة عن « الإنسان في القرآن الكريم » ، تناولت فيها قليلاً من الحقائق المتعلقة بحياة هذا المخلوق الذي كرمه الله سبحانه وتعالى ممثلاً في آدم عليه السلام ، حيث طلب من الملائكة أن يسجدوا له إجلالاً وتعظيماً ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

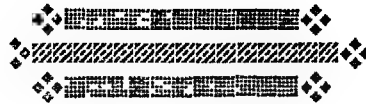
« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » .

(صدق الله العظيم)

(٣٤ / البقرة)

ثم في قوله سبحانه وتعالى :
«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»
(٤ / التين)
توضح المنزلة الرفيعة التي اختصه بها ،
سبحانه وتعالى دون سائر المخلوقات .
ولعلّي أكون قد وفقت في عرض هذا
الحديث .
وغير ذلك من الآيات البينات التي

محمد رشاد الطوبى
عضو المجمع



المختصرات وطريقة أدائها باللغة العربية للدكتور عبد الكريم خليفة

هدف هذه الكلمة إلى طرح قضية من قضايا كثيرة ، تخص اللغة العلمية العربية في العصر الحديث . وعلى الرغم من الجهود الخيرة التي قامت بها مجامع اللغة العربية ولا سيما مجمعنا بالقاهرة في مجال المصطلحات العلمية ، فإن قضايا اللغة العلمية لم تحط بعلم العناية اللازمة ، وما زالت تنتظر مزيداً من الدراسة والتحليل في ضوء المعطيات والمناهج العلمية الحديثة ، ووضع الحارل المناسبة والقواعد الضرورية لإثراء اللغة العالمية العربية . فالهدف الكبير الذي ما زلنا نتطلع إليه يتجسد في تحقيق ، تعريب العاوم والمعرفة ، وتصبح العربية لغة التدريس الجامعي في مختلف مستوياته وفي جميع فروعه ، ولغة البحث العلمي

والتقنيات الحديثة . وهذا الأسلوب وحده تستعيد العربية سيادتها في أوطانها . وتصبح عاملاً فاعلاً في رُقي أمتنا وتحررها .

وإنه لمن البدهي القول باختلاف اللغة الأدبية عن اللغة العلمية من حيث أساليبها ووضوح مدلولاتها وتحديد مبرداتها . فاللغة العلمية تتحدد بصورة رئيسية بالقواعد التي تنتظم منهجية المصطلح العلمي وأدوات التعبير الأخرى من رموز علمية ومختصرات ومعادلات رياضية وأشكال إيضاحية ورسوم بيانية وغيرها من أشكال الاحتزال ، والتركيب والرمز . .

وقد بدلت جهود كبيرة ، منذ مطلع هذا القرن . ولا سيما في العقود القليلة الماضية . في مجال وضع المصطلحات العلمية

(ه) ألقى هذا البحث في الجلسة الثالثة من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الأربعاء ٣ من شبان سنة ١٤١٠ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٩٠ .

باللغة العربية . وتحديد منهجية ترتكز إلى قواعد ومبادئ محددة ، تنظم عملية التعريب . وفي هذه العملية واجه علماؤنا قضايا ومشكلات في النقل من اللغات الحديثة المتقدمة التي أنتجت هذا السيل الضخم من العلوم والمعارف الإنسانية في شتى المجالات . وبدأت المحامع اللغوية العربية وبعض المؤسسات العلمية والغياري من علماء هذه الأمة ، يتلمسون طريقهم للتغلب على هذه الصّعاب . دون أن تكون هنالك سياسة محددة ومناهج واضحة ودقيقة . متفق عليها ، تلتزمها الجامعات والمؤسسات العلمية العربية في التطبيق .

وإن قضية الرموز العلمية العربية ، التي كانت موضوع الدراسة في تلك الندوة ، كانت في الواقع إحدى المشكلات التي واجهت مجمع اللغة العربية الأردني منذ أواخر السبعينات ، عندما بدأ حملته ، لتعريب التعليم العلمي الجامعي . فقد أقر المتخصصون أن الترجمة برموز أجنبية إنما هي مجرد ترجمة ، وليست تعريفاً للعلم وإن التعريب ، إنما يتطلب إنبات العلم في بيئة عربية خاصة^(١) . وأن للرمز إيهاعات خاصة لا تنقل بانتقال الرمز من لغة إلى أخرى .

وأدى تسارع الحركة العلمية منذ الحرب العالمية الثانية ، إلى دخول فيض كبير من المصطلحات العلمية والتسميات بكلمات

باللغة العربية . وتحديد منهجية ترتكز إلى قواعد ومبادئ محددة ، تنظم عملية التعريب . وفي هذه العملية واجه علماؤنا قضايا ومشكلات في النقل من اللغات الحديثة المتقدمة التي أنتجت هذا السيل الضخم من العلوم والمعارف الإنسانية في شتى المجالات . وبدأت المحامع اللغوية العربية وبعض المؤسسات العلمية والغياري من علماء هذه الأمة ، يتلمسون طريقهم للتغلب على هذه الصّعاب . دون أن تكون هنالك سياسة محددة ومناهج واضحة ودقيقة . متفق عليها ، تلتزمها الجامعات والمؤسسات العلمية العربية في التطبيق .

وكان نتيجة ذلك ما أشار إليه زميلنا العالم الجليل الدكتور محمود مختار ، في محاضراته القيمة التي ألقاها في ندوة عمان التي عقدها اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في المدة الواقعة بين ٢٧ من جمادى الأولى - ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٧ كانون الثاني - ٢٩ كانون الثاني - يناير سنة ١٩٨٧ م ، إذ يقول :

« ولكن يؤسفني أن أقول : إن هذه المعاجم (يشير إلى مانشر من معاجم

(١) انظر : مشروع مجمع اللغة العربية الأردني للرموز العلمية ، ص ٧ .

بعد ظهور الإسلام ، فقالوا : «البسملة »
 من عبارة « باسم الله » ، و « الهيلمة » من
 « لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، والحوْلقة والحوقلة
 من « لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » و « الحمدلة »
 من « الحمد لله » و « الجعْفدة » من
 جعلت فداك والسبحة أية من « سبحان
 الله » ... وأصبحت « الحيلة » تعني قول
 المؤذن : « حَيَّ عَلَى الصَّلَاة ، حَيَّ عَلَى
 الْفَلَاح » (١) ...

وما زال « النحت » في اللغة يراوح مكانه
 في هذا المجال المحدود ، وهو مع ذلك يكون
 رافداً من روافد إماء العربية . وما فتئت
 العربية أن وجدت نفسها . منذ بداية القرن
 العشرين تستيقظ على طوفان من المصطلحات
 العلمية في مختلف مجالات المعرفة . ولذا
 كان على العربية أن تستخدم جميع أدوات
 التعبير من أجل استيعاب المصطلحات ،
 والمعاني الجديدة .. وكان النحت والاشتقاق
 والثقل والمجاز والاختزال والتركيب ،
 والتعريب ، من أهم الأدوات ، ولا سيما في
 موضوع إيجاد المقابلات العربية للمصطلحات
 والرموز العلمية والمختصرات ... وعلى

متعددة وعبارات طويلة في اللغات الأجنبية
 المتقدمة مثل : الإنجليزية والفرنسية ،
 والألمانية والروسية . وقد رأوا في مؤسساتهم
 اللغوية والعلمية أن ينأوا عن تكرار هذه
 العبارات الطويلة ، توفيراً للموقت والجهد
 وتيسيراً للفهم والإفهام فلجأوا إلى أسلوب
 المختصرات (Abbreviations) ،
 وذلك بوضع أشكال معينة للتعبير عن
 المعنى بصورة رمزية مختزلة ، وفق قواعد
 محدّدة ومتعارف عليها ، فاختصروا
 الكلمات في حروف تكون عادة أوائل
 كلمات المصطلح .

لقد دلت نتائج البحوث اللغوية ، أن
 الاتجاه العام لجميع اللغات هو نحو تقصير
 الصيغ للكلمات . وأن هذا الاتجاه واضح
 كل الوضوح في مسيرة العربية عبر تاريخها
 التراثي الطويل . واعتبر « النحت » في
 العربية جنساً من « الاختصار » . فكانت
 العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة ،
 كقولهم : « رجل عيشمي » منسوب إلى
 اسمين ، وقولهم : « حيلة » من حَيَّ
 على ، وتسارع هذا الاتجاه نحو « الاختصار »

(١) انظر : السيوطي ، المزهري ، ح ١ ص ٤٨٢ - ٤٨٥ .

الترصّل إلى وضع قواعد تحدّد استخدامها في الكتابة العربية . قد أعاق انتشارها من ناحية ، وأوقع الفوضى والتناقضات من ناحية أخرى ، والعفوية والاجتهادات الفردية ، ما زالت مع الأسف هي الطريق الرئيسي . الذي تشيع من خلاله أدوات التعبير العلمية الحديثة ، سواء أكان ذلك في مجال العلوم التطبيقية والإنشائية أم في مجال الحياة الحضارية .

فإذا كانت الرموز العلمية ، تتصف بالخصوصية والثبات ، فإن «المختصرات» تتصف بالشمولية والتغير إنها تتجاوز مجال العلوم إلى دلالات الحياة بأوسع معانيها . وهي في الوقت ذاته ، أداة تعبر عن دلالات آنية . تحتفي من الاستعمال باختفاء هذه المدلولات من واقع الحياة . فهذا «المختصر» مثلاً الذي يدل على حلف عسكري أو دولي معين ، يختفي من الاستعمال بانتهاء هذه الأحلاف وتلك المنظمات .

وأدت العفوية في دخول «المختصرات» إلى الكتابة العربية الحديثة إلى فوضى في الاجتهاد وتناقضات تصل إلى حدّ التفكك

لرغم من دراسات التي عالجت هذه القضايا لغوية مهمة . إلا أنها لم تصل إلى مرحلة التنظيم وفق قواعد محدّدة فكثيراً ما تختلط مما هي أدوات التعبير مثل النحت والاختزال والمختصرات والرموز .. إلخ . ولا سيما أنها ذات طبيعة متداخلة .

وللغة العربية تحربة حصة في استعمال مختلف أدوات التعبير هذه . وإن دراسة هذه التجربة التراثية ، لتشكل أساساً في وضع القواعد المحددة للإفادة من الاستعمال النوسع للرموز والمختصرات العلمية في العصر الحديث

شاع استعمال «المختصرات» في اللغات الحية في هذا القرن . لا سيما منذ الحرب العالمية الثانية . وهي في اللغات الأجنبية المتقدمة تخضع لقواعد محدّدة ، بصورة عامة . وتشتغل عادة أوائل حروف الكلمات التي تكون العبارة أو المصطلح . وتكتب وفق نظام متمم عليه . وأصبح هذا الأسلوب يجد طريقة إلى كتاباتنا

عربية . ولا سيما العلمية منها في العصر الحديث . ولكن غياب الدراسات اللغوية لموضوع المختصرات ، هذه . وعدم

لهذا المسار الذي سلكته « المختصرات » ،
على منح المثال الذي أوردناه تبيين لما مقدار
عقم هذا الأسلوب ، وتناقضه واستخفافه
دروى العربية وخصوصياتها من حيث هي
لغة سامية ومتطورة . فإن حروف
(ALECSO) ، هي الحروف الأولى -

لل كلمات التي يتألف منها اسم المنظمة
العربية بال لغة الإنجليزية وهو :
Arab League Educational Cultural and
Scientific Organization

وإن كل حرف يوحي باللفظة التي
ينتسب إليها ، وأنه بسبب الشيوع أصبح
المختصر كلمة واحدة ، وسقطت النقط ،
ومع ذلك بقيت إلى حد ما موحية تذكر
بأصولها الإنجليزية . ولكنها عندما انتقلت
إلى العربية بلفظها الأعجمي ، وكتبت
بالحروف العربية (ألكسو) أصبحت
لمعة صماء ، مقطوعة الجذور والأصول ،
فصلا عن اللجنة التي تكتنفها .

ومثل ذلك يقال في « المختصر » الذي
أشيع استعماله في تسمية « المنظمة الإسلامية
للتربية والعلوم والثقافة » . فقد سلك
« المختصر » الأسلوب ذاته وسار على الطريق
إياه . فقد وضع « المختصر » لاسم المنظمة

أحياناً وأحياناً أخرى تفتح الباب إلى
إدخال الحروف الأجنبية بلفظها الأعجمي
في سياق الكتابة العربية وإن هذا الحال
لشيء مؤسف حقاً ، والأمانة على ذلك
كثيرة .

لنأخذ مثلاً اسم إحدى المنظمات العربية
والمختصرات التي شاعت للدلالة عليها ،
فالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ،
أشاعت من حيث الواقع « المختصر »
(ALECSO) وهذا المختصر بحروفه الأجنبية
قد تطور من الكتابة بحروف كثيرة ،
يفصل بينها النقط إلى كلمة واحدة ،
إنجليزية اللفظ والدلالة ... ثم تجاوز
الأمر إلى كتابتها بالحروف العربية
(ألكسو) على طريقة التعريب من حيث
إدخال الكلمة الأعجمية كما هي في العربية ،
وتطبيق قواعد العربية عليها . لا شك أن
هذا اللون من التعريب ، تقبله العربية من
حيث المبدأ ويشكل واحداً من الروافد
المهمة الكثيرة التي تمد العربية بالحياة
المتجددة واستيعاب كل ما يصل إليه الفكر
الإنساني من معارف وعلوم ولكنه في هذا
المقام يدعو إلى العجب . وإن نظرة فاحصة

باللغة الإنجليزية واسمها باللغة الإنجليزية هو :

Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization

فوضع المختصر بأن أخذ الحرف الأول من كل كلمة من هذه التسمية ماعدا حروف العطف فأصبح على هذا الشكل : (I.S.E.S.C.O.) ثم سقطت النقط ليكون كلمة واحدة مؤلفة من الحروف الكسيرة فأصبحت هكذا (ISESCO) ، ثم وجدت طريقها مع الأسف إلى الكتابة العربية بلفظها الأعجمي فأصبحت تكتب بالحروف العربية (اسيزكو) ...

سار هذا الأسلوب في هذين المختصرين على غرار الأسلوب الذي اتخذته منظمات الأمم المتحدة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ... وإن المثالين اللذين أوردناهما قد استوحيا تسمية المنظمة الدولية (U.N.E.S.C.O). فقد شاع هذا «المختصر» ، ودخل في كتابة جميع اللغات تقريباً في العصر الحديث . ودخل فيما دخل في الكتابة العربية . وقد عُرِّب بكتابته بالحروف العربية . وإدخال « ال » التعريف عليه .

ونحن نجد في هذا المسار ، أسلوباً صحيحاً ، وطريقاً سليماً في استيعاب العربية هذه المختصرات التي أصبح لها وجود عالمي والأمثلة كثيرة على ذلك . فقد أصبح كثير من هذه المختصرات كلمات لا توحى بأصولها ولا تنم عن جذورها ، وبدأت تكون مصطلحات ذات دلالات علمية محددة مثل : الليزر والإيدز ... إلخ

وإنه لمن العبث الذي يدعو إلى الاستهجان والحزن عندما تستعمل كثير من الأدبيات في الوطن العربي اسم « اليونسكو العربية » للدلالة على « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » أو « اليونسكو الإسلامية » ، للدلالة على المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ... أو أنها تشيع المختصرات بألفاظها الأعجمية مكتوبة بحروف عربية !

ونحن نعتقد أن هذه الفوضى التي تكتنف المختصرات ، مثل ما تكتنف كثيراً من أدوات التعبير الحديثة ، وهذا التخبط الذي نلمسه في أساليب استخدامها يهيب بنا إلى دراسة جميع المشكلات الخاصة بأدوات التعبير ، والأساليب التي تغني العربية وتجعلها قادرة على مواكبة المسيرة.

العلمية الحديثة ، في عصر التفجر العلمي ، ونحن نحث الخطى نحو فجر القرن الحادى والعشرين ..

فإشاعة أسلوب « المختصرات » في كتاباتنا العربية يقضى بأن تأخذ المجامع والهيئات اللغوية العربية على عاتقها دراسة المشكلات التى تنشأ عن دىوع استخدام المختصرات ، ووضع قواعد محددة تنظم كيفية صياغتها ، وإضفاء رونق العربية عليها ، ونظمها في سياق الجملة العربية السليمة . فيتناول البحث المختصرات الأجنبية التى شاع استعمالها في حياتنا العامة مثل : اليونسكو والليزر ... إلخ ، وكذلك المختصرات التى تتداولها اللغات الأجنبية المتقدمة ، ولما يشع استعمالها في لغتنا . فما السبيل إلى استيعابها ؟ أياكون ذلك بأخذ هذه المختصرات بحروفها ، الأعجمية أم المحافظة على نطقها الأعجمى وكتابتها بالحروف العربية ؟ وهل تكتب هذه الحروف العربية بشكلها المقطع ، مفصولة بعضها عن بعض ، وهل تكون الفاصلة نقطة أم شولة ! أم أن تكتب هذه الحروف العربية بشكلها المتصل مكونة كلمة أو مقطعا من كلمة !!

وربما نتحول إلى أسلوب آخر ، ينطلق من ترجمة المصطلح أو الاسم إلى العربية ، سواء أكان مؤلفا من كلمة واحدة أم عدة كلمات ، وأن يؤخذ الحرف الأول من كل كلمة عربية ، بعد تجريدها من ال التعريف ويكون من أوائل هذه الكلمات مجموعة من الحروف ، تكتب بشكلها الهجائى المقطع (ا . ب ت ث ج ... إلخ) وهنا أيضا يرد التساؤل ، فهل يكتب المختصر بهذه الحروف المقطعة مع فواصل بينها ، سواء أكانت نقطة أم شولة .. أم أنها تكتب دون فواصل ، ويجرى نطقها بأسماء الحروف (ألف باء جيم دال ... إلخ) ، أم أنها تكتب بالحروف المتصلة وتنطق كلمة دالة على معنى اصطلاحى معين ؟ لنأخذ مثالا على ذلك وليكن المختصر (حماس) فهو « مختصر » (حركة المقاومة الإسلامية) ... إلخ ، وربما كان لطبيعة الحروف المحتمة وما تؤديه أحيانا من لفظ. يخف على السمع ويسهل على اللسان ، دور في صياغة المختصر على شكل ألفاظ مقبولة أو بقائها حروفا تنطق بأسمائها (حاء ، ميم ، سين) ، وإذا كان الإجماع تاما على تحريد الأسماء من ال

أن أتقدم إلى مؤتمرا العتيد ببعض الأفكار التي يمكن أن تشكل الخطوط العريضة لقواعد محدّدة يتم الاتفاق عليها ، تنظم طريقة أداء « المختصرات » وكيفية استعمالها باللغة العربية وقبل أن أجمل هذه الأفكار ، أقول :

عرّفت العربية منذ تاريخها الممكّر أدوات التعبير المحتملة من رموز ومحتصرات وغيرها ولكن ظروف استعمالها كانت محدودة في محالات معينة ، وإن التطور العلمي الحديث وتفجر المعرفة وتسارعها ، يحتم علينا إيجاد قواعد محدّدة يلتزم بها في وضع الرموز والمختصرات وتعميمها في الكتابة العربية ، من أجل أن تفي العربية بمتطلبات العصر الحديث وتواكب مسيرة اللغات الأجنبية المتقدمة . فالعربية الخالدة ، لغة القرآن الكريم ، ثابتة من حيث نحوها وصرفها ، ولكنها لغة نامية ومتطورة من حيث أساليبها ومفرداتها فلها من حصائصها الذاتية وأدوات النعير ، ما يجعلها قادرة على استيعاب كل ما يحد من معارف في مختلف العصور

وإنني إذ أعزو الفضل لأصحابه من

التعريف ، عندما يؤخذ الحرف الأول من كلّ منها ، فإن التساؤل ما زال باقياً حول حروف الجر وأدوات الشرط والاستفهام والضمائر المنفصلة وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وظروف الزمان والمكان ... إلخ ، التي قد تولف جزءاً من تلك التسمية ، أو ذلك المصطلح الذي نريد وضع « مختصر » له . وربما تدعو الحاجة إلى استعمال « النسبة » إلى هذا الاسم أو المصطلح ، فكيف تتم النسبة ؟ ومتى تستساغ النسبة إلى « المختصر » ؟ ومتى يمكن أن تكون النسبة إلى التراكيب والعبارات ؟ وما هي القواعد المغوية التي تصبّط ذلك كله ؟ ... إلخ .

وجملة القول ، فإن ذلك كله يتطلب من المجامع اللغوية العربية وضع قواعد محدّدة ومنهجية مازمة . يتم الاتفاق عايتها لتحديد طريقة وضع « المختصرات » ، وغيرها من أدوات التعبير التي راح استعمالها في اللغات الأجنبية المتقدمة ، وتوضح أساليب استعمالها في الكتابة العربية . وقد هداني الاهتمام بهذا الموضوع والاطلاع على بعض ما كتب حوله . قديماً وحديثاً

العربية المتصلة ، وذلك على سبيل « التعريب » . وتحرى عليها قواعد العربية من حيث التعريف والتشكيك والتشنية والجمع والنسبة عند الحاجة ، ومن حيث السياق والتركيب ، فنقول : اليونسكو والليزر والرادار والإيدز . . إلخ ، ونقول في النسبة : « الليزري والراداري واليونسكي . . إلخ » .

ثالثاً : قبول « المختصرات » الأجنبية لأسماء الأعلام ، كما هي ، وكتابتها ، بالحروف العربية وفق نطقها الأعجمي .

رابعاً : يوضع « المختصر » للتسميات العربية ، سواء أكانت هذه التسميات عربية الأصل والمنشأ أم أنها تستعمل في الدوائر الرسمية أو الجيش أو المؤسسات العامة والخاصة أو الشركات أو يكثر استعمالها وتردادها في الحياة العامة ، وذلك وفق القواعد التالية :

١- يؤخذ الحرف الأول من كل اسم بعد تجريده من « ال » التعريف ، ومن كل كلمة بعد تجريدها من « الزوائد » . ويكتب المختصر بالحروف المنفصلة دون وضع إشارة فصل بينها . وتلفظ الحروف

العلماء والباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع من جوانبه المختلفة ، لأود أن أورد القواعد العامة التي ربما تصلح أن تكون منطلقاً ، للاتفاق على قواعد محددة توضح كيفية وضع « المختصرات » وأسماء اليب استعمالها في الكتابة العربية ، وذلك على الشكل التالي .

أولاً : يؤخذ ما جاء في التراث من « مختصرات » كما هي ، سواء أكانت عن طريق النحت أم عن طريق التركيب أو الاختزال أو الرمز ، باعتبارها نقلية سماعية ، لا يقاس عليها ، ولا نخضعها لقواعد « المختصرات » الحديثة ، مثال ذلك . البسملة والحوقة ، والحمدلة والحيعة . . إلخ . ونقول بعدم القياس في وضع هذه الكلمات ، كي نتجنب الخروج عن القاعدة والدخول في فوضى الاجتهادات الفردية .

ثانياً : قبول « المختصرات » الأجنبية التي أصبح لها وجود عالمي في اللغات المتقدمة ، وإدخالها في الكتابة العربية باعتبارها كلمات أعجمية ، دون النظر إلى أصولها أو إيجازاتها . وتكتب بالحروف

وأدوات النداء ، ولا إلى الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة . . } :

٣- يؤخذ الحرفان الأول والثاني من الكلمات الدالة على الظرف ، وتلفظ الحروف بأصواتها أى باعتبار بنية الكلمة وتكتب بالحروف المتصلة ، مثال ذلك :

« قَبْ » بدلاً من « قبل » .

و « تَحْ » بدلاً من « تحت » .

و « شَمْ » بدلاً من « شمال » .

و « بَعْ » بدلاً من « بعد » .

خامساً : وبالنسبة للمختصرات الأجنبية التي تدعو الحاجة إلى استعمالها في الكتابة العربية ، فيتم ترجمة المصطلح أو التسمية كما هو في الأصل ، إلى اللغة العربية . ثم يعامل في كيفية وضع « المختصر » ، معاملة التسميات العربية كما ورد في البند الرابع . مثال ذلك : المختصر الانجليزي (M.O.) يعنى بدلاً من المصطلح الانجليزي (Money Order) ، فيترجم هذا المصطلح إلى العربية ، ويصبح : « حوالة مالية » ، ثم يوضع له المختصر باللغة العربية ، وفي القواعد التي ذكرناها

العربية بأسمائها ، فنقول مثلاً : (جيم ميم عين) ، عند كتابة (ج م ع)^٣ . وإذا كان المختصر يشكل كلمة واحدة سهلة اللفظ ، ساذغة الاستعمال ، فتكتب بالحروف المتصلة ، وتلفظ الحروف بأصواتها في بنية الكلمة . فنقول مثلاً : « مآب » بدلاً من « مؤسسة آل البيت »

وإذا كان المصطلح أو الاسم كلمة واحدة يؤخذ الحرف الأول والثاني من الكلمة ، بعد تحريدها من ال التعريف والزوائد . ويكتب بأشكال الحروف المتصلة ، وتلفظ الحروف بأسمائها فنقول :

« سين ميم » للمختصر « سم » بدلاً من « سنتيمتر » .

و « تاء عين » للمختصر « تع » بدلاً من « تعاونية » .

و « ميم خاء » للمختصر « مخ » بدلاً من « مخطوطة » .

وهكذا ...

٢- لا ينظر في العبارة التي تكون التسمية أو المصطلح ، إلى حروف الجر والعطف وأدوات الاستفهام والشرط والتنبيه ،

نُبتاً بالمختصرات التي استعملت في هذه
المصنفات ، ترجمة أو تأليفاً ...

سيدى الرئيس الجليل ، أيها الأساتذة
العلماء ، لا أزعم أنني أتيت بشئ جديد ،
بما عرضته من أفكار عامة وخطوط عريضة
في محاولتي تلمس الطريق في هذه المسألة
اللغوية ، ولكنني أرجو أن أكون قد وفقت
في جلب الانتباه إلى ضرورة دراسة
المشكلات التي تواجهها العربية ، ونحن
نستشرف القرن الحادى والعشرين ، حيث
يلوح في الأفق البعيد فجر حضارة جديدة .
وإن أمتنا العربية المدعوة إلى اللحاق بركب
الحضارة ، والمشاركة المبدعة فيها ، وأنه
لا يجوز لها التخلف أو التقصير والاختلاف
نالقضية تمس هويتها ووجودها الحضارى .
وإنها مدعوة بكل إمكاناتها ، لتجاوز مرحلة
التبعية الفكرية والاستعمار العلمى الذى
أبعد العربية من أن تمارس سيادتها في
أوطانها ، وأن تكون لغة التدريس العلمى
الجامعى ولغة البحث العلمى في جميع
مستوياته ، ولغة التقنيات الحديثة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الكريم خليفة
عضو المجمع (من الأردن)

فيكون على الشكل التالى (ح م) ويلفظ.
بأسماء الحروف أى : (حاء^{هـ} ، ميم) ...

وإذا كان المصطلح أو الاسم كلمة واحدة
وأردنا أن نضع له مختصراً ، فتجرى عليه
القواعد نفسها التي ذكرت سابقاً . مثال
ذلك : فإن المختصر « باللغة الإنجليزية »
(M.S.) يعنى بدلاً من التسمية الإنجليزية
(Manuscript) . يترجم هذا المصطلح
الأخير إلى العربية فيصبح « مخطوطة » ،
نستعمل يوضع له « المختصر » باللغة العربية :
« مخ » ، بأن يؤخذ الحرف الأول والثانى
من كلمة « مخطوطة » ، ويكتبان
بالحروف المتصلة ، ويلفظان حسب أسماء
الحروف ، وقد يوحى « المختصر » ، بأن
تلفظ عبارة المصطلح بكاملها ، إذا أصبح
ذلك شائعاً ، كما هو الحال في مختصر (ص) .
فيكون النطق دائماً بلفظ العبارة « صلى الله
عليه وسلم » . وهنا يتداخل مفهوم
« الرمز » مع مفهوم « المختصر » ...

[ملاحضة : الالتزام باستعمال قواعد وضع

المختصرات] وامتثالها في الكتابة
العربية ، وأن تحتوى المعاجم والموسوعات
والكتب العلمية العربية المتخصصة والعامة

المصادر

- ١- إبراهيم السامرائي ، المختصرات والرموز في التراث العربي ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد (٣٢) ، عمان ، سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- ٢- سيد رمضان هدارة ، المصطلح العلمي بين الترجمة والتعريب . ندوة عمان (اتحاد المحامع اللغوية العلمية العربية) ، سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
- ٣- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ج ١ - ٢ ، القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .
- ٤- عبد المجيد نصير : منحدرات البدوء . مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد (٣٢) عمان سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- ٥- مجلة « اللسان العربي » ، مكتب تنسيق التعريب بالرباط ، العدد الرابع والعشرين .
- ٦- محمود شكرى الألوسى ، كتاب النحت وبيان حقيقةته ونبذة من قواعده ، تحقيق محمد بهجة الأثرى ، بغداد سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .
- ٧- محمود مختار . اللغة العملية العربية . سماتها ومفرداتها ورموزها . ندوة عمان (اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية) سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
- ٨- مشروع مجمع اللغة العربية الأردني للرموز العلمية العربية ، عمان - سنة ١٩٨٥ م .
- ٩- نهاد الموسى . النحت في اللغة العربية ، الرياض سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .

شعراء مغمورون :

فارحة بن قايح الممللي للأستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي

مقدمة :

الجودة أغرتني أن أنتبج أخبارها استطعت
بل رأيت ثناء على شعره من بعض الرواة
يُغري بذلك التتبع ، فمارعتني رغبةً جامحة
إلى إنصافه ، وجمع أخباره وأشعاره ، وهي
رعة كثيراً ما تستمدني كما وجدت
عبقريته يتكاثر عليها الظلام ليغطي من
لمعائها ، ويحجب من شعاعها .

ولا أزعم أنني بلغت في استقصاء أخبار
هذا الشاعر المدي ، أو انتهيت إلى آخر
الشوط ، ولكنني بذلت ما تيسر لي من جهد .
مؤملاً أن تكون هذه بداية بحث أستكماله
أو يستكماله عيري .. وحسبي الآن من
القلادة ما أحاط بالعنق

والله الموفق .

حارثة بن قايح الممللي شاعر حجازي مُجيد
عاش في القرن الثاني للهجرة ، لم تتحدث
عنه كثيراً كتب الأدب الشهيرة ، خاصة
منها الكتب التي عُنيت بتراجم الشعراء
وطبقاتهم ، فلا ذكر له في (الشعر والشعراء)
لابن قتيبة ، ولا في (طبقات الشعراء)
لأبن سلام ، ولم يذكره الزركلي في أعلامه ،
ولا المرزباني في (معجم الشعراء) .. ولأنكاد
نجد له اسماً إلا في مصادر نزره . وهذه
لاتورد من أخباره وأشعاره إلا الشيء القليل
الذي لا يشفي الغليل . ونجد أحياناً اسمه
في بعضها قد تصحّف وتحرف ، وجاء المكي
بدلاً من الممللي ، وسيرد الحديث عن ذلك
مفصلاً فيما بعد .

وقد رأيت في شعر هذا الشاعر سمات من

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر الممثلة يوم السبت ٦ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٣ من مارس آذار سنة ١٩٩٠ م .

الفصل الأول

ترجمته وأخباره

— اسمه ونسبته :

— والده :

— تصحييف نسبته في المصادر :

— عصره وأخباره :

— مكانته الشعرية :

— اسمه ونسبته :

الجليل (محمود تماكر) ما هو إلا بعض الكتاب لا كله ، وبقي منه بعض لم ينشر بعد ، على نفاسة الكتاب وقيمته الكبرى للتاريخ الأدبي ، وهناك بعض منه ذهبت به الأيام .. فلا يُدرى أين هو ؟

نعرف من الجزء الذي نشر : نسب الشاعر . فهو خارجة بن فليح بن إسماعيل ابن جعفر بن أبي كبير (١) .

ونعلم أنه مولى أسلم . . ذكر ذلك أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح (ت ٢٩٦ هـ) في كتاب (الورقة) ص ٧٤ ، حيث قال : « خارجة بن فليح المملّي ، مولى أسلم ، حجازي ، شاعرٌ مجيد

إن ندرة أخبار الشاعر ، وتبعثرها هنا وهناك بين مصادر القليلة لم تتح لي معاومات كافية عنه ، فلا حديث عن تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته ، ولا ملامح بارزة من حياته ، وليس في مُكنة الباحث إلا أن يستنتج فحسب الفترة الزمنية التي عاش فيها من تلك الأخبار الواردة من معاصريه أو ممدوحيه .

وأقدم من ذكره فيما انتهى إلينا من مصادر هو (الزبير بن بكار) في كتابه (جمهرة نسب قريش) ، فقد كانت وفاته ٢٥٦ هـ ، على أن هذا الكتاب لم يصل إلينا كاملاً ، وما نشره منه الأستاذ الباحث

(١) ص ١٠٨ ، حيث جاء هذا النسب عن (فليح) وقال الأستاذ (محمود تماكر) محقق الكتاب كأنه هو أبو خارجة بن فليح المملّي .

كثير الشعر» وقد ذكر (البكري) (١)
في شرح أمالي القائل ص ٦٥ أن فليحا المَلَى
هو مولى أسلم

وتدلنا نصوص الزبير بن بكار . أن
نسبته (الملى) ، كما جاء في ص ١٣٥
منه حيث قال « وقال خارجة بن فليح
المالى يمدح (عبد الله بن مصعب) . ويفسر
(البكري) في شرح الأمالي ص ٦٥ معنى
(مَلَى) الذى ينتسب إليها الشاعر فيقول :
« ملل الذى ينسب إليها على مقربة من المدينة
في شق (الروحاء) »

أى أن (ملل) اسم موضع لا اسم رجل
أو قبيلة

وأوسع من تحدث عن (ملل) من
البلدانيين القدامى هو (البكري) نفسه
في كتابه الآخر (معجم ما استعجم) في مادة
(الميم واللام) ، ونص أن خارجة بن فليح
ينسب إليها ، وجاء بشاهد من شعر جعفر
ابن الزبير يرثى أبناً له مات بملل هو قوله .

أحزن على ماء العشيرة والهوى

على ملل ، يالهدف نفسى على ملل

وقال : إن الفرش والعريش من ملل ،
ويدل على قربها من المدينة . مارواه البكري
أيضاً من أن عثمان بن عفان رضى الله عنه ،
صلى الجمعة بالمدينة . وصلى العصر بملل .

ويقول (ياقوت) في (معجم البلدان)
إنه منزل على طريق المدينة إلى مكة على بعد
ثمانية وعشرين ميلاً من المدينة ، وهو واد
ينحدر من (ورقان) جبل مزيّنة . حتى
يصب في (الفرش) فريش سويقة .

أقول . والفرش والفريش لا يزالان
معروفين بهذا الاسم حتى اليوم . وكان الفريش
على الطريق القديم للسيارات بين مكة
والمدينة . وقد مررت به . وهو على مقربة
من المدينة المنورة .

وقد ورد ذكر (الفرش) في شعر الشاعر
نفسه :

سقى هصبات الفرش كلُّ مُجَلِّجٍ
له نَصْدٌ من مزنه ، وصبيرٌ

والده :

إن المصادر التى بين يدي لا تزيد عند

(١) الوزير عبد الله بن عبد العزيز البكري الأونى ت ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م .

هذه هي الفقرة ، أما التعليق ، فقد قال
أستاذنا عن فليح : كأنه هو أبر (خارجة
ابن فليح الملى) .

فإذا صح هذا ، وأحسبه صحيحاً ، فيكون
والد خارجة سماعراً

ولقد وجدت لفليح بن إسماعيل ذكراً
في (مجالس ثعلب) ص ٩٤ ، في هـ . لما
الخبر :

« أخبرنا محمد قال : وثنا أبو العباس
قال : حدثني عبد الله قال : حدثني محمد
ابن عيسى . عن فليح بن إسماعيل قال :
حدثني عبد الله بن صالح سنة اثنتين وستين
ومائة قال . حدثني عمي سليمان بن علي ،
عن عكرمة قال : إني لمع ابن عباس بعرفة
إذ فتية أذمان^(١) يحمأون فتى في كساء ،
معروق الوجه ، ناحل البدن ، له حلاوة ،
حق وضعوه بين يدي ابن عباس وقالوا :
استشف له يا ابن عم رسول الله . قال :

ذكر الله عن أن تقول إنه (خارجة
بن فليح) . ولا نعلم أي (فليح) هذا ،
ونكس لأستاذ (محمود شاكرك) محقق
كتاب (جمهرة نسب قريش وأحبارها) .
وهو العمدة في أخبار (خارجة) توقف
عند الفقرة (٢١١) من هذا الكتاب .
ص ١٠٨ . فعاق في الهامش بما يدل على
أنه يرجح أن وليحاً هو فليح بن إسماعيل
ابن جعفر بن أبي كبير .

ولكي تتضح الصورة تماماً . فإني أورد
نص هذه الفقرة وتعليق شيخنا عليها .

« ٢١١ - وابنه ثابت بن الزبير بن
خبيب . وكان يتبذى بالرائع . فزاره
فليح بن إسماعيل بن جعفر بن أبي كبير .
فقال فليح :

عَئِيتَنِي - ثَبِتَ بِنَ الزَّبِيرِ
جُشْتُسْنَا جَوْبَ حَرَارٍ وَعُورٍ
سَقِيًّا نَجًّا - نَيْكٌ وَجَدِيهِمَا
وَمَنْ لَهُ جُؤْ كَمَثَلِ الزَّبِيرِ »

(١) لانه اسم .

فقال ابن عباس . وما به ؟ فأنشأ الفتي يقول :

بنا من جوى الأحزان والوجد لوعة
تكاد لها نهمس الشفيع تذبذب

ولكنما أبقى حشاشة مُعـول

على ما به عُودٌ هناك صليب

فأقبل ابن عباس على عبد الله بن حميد
ابن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى
فقال : أخذ هذا البدوى العود^(١) علينا
وعليك . قال : فحملوه فحَفَّتْ في أيديهم
فمات . فقال ابن عباس رحمه الله : هذا
قتيل الحب ، لا عقل ولا قود . قال
عكرمة : وما رأييت ابن عباس سأل الله
عز وجل في عشيتِه حتى المساء إلا العافية
مما ابتلى به الفتي « اه .

ونرى من هذا الخبر أن فليح بن إسماعيل
يحدد سنة روايته ، بسنة اثنتين وستين
ومائة ، وهى الفترة التى عاش بها خارجه .
فاحتمال أنه أبوه ليس مستبعداً .

على أن لهذا الخبر بقية فى كتاب الأغاني
٢٠-١٥٨) هى :

« قال : وسألنا عنه فقيل هذا عروة
ابن حزام » .

ولهذا الخبر دلالة فى عناية (فليح
بن إسماعيل) بآخبار الأدب ، مما ينع على
نزعة أدبية ورثها عنه ابنه الذى أصبح
شاعراً .. حاز إعجاب فريق من نقاد الشعر
فى عصره

تصحيح نسبتة فى المصادر *

أشرت أن هناك تصحيحاً فى نسبته ..
جعلته المكى بدلاً عن الملى ، وقد جاء هذا
التصحيح فى (مجالس ثعلب)^(٢) ، ومع
أن محقق الكتاب هو العلامة المدقق الأستاذ
عبد السلام هارون ، فإنه لم يتعرض لهذا
التصحيح ، بل لم يترجم للشاعر ، أو يدل
على مصادره خلافاً لعادته ، ولم يصلح ذلك
فى كتابه (تحقيقات وتنبيهات فى معجم
لسان العرب) ص ١١٠ ، ولكنه عاد فأثبت
الصواب فى تحقيقه الرائع لخزانة الأدب
١٠ / ٤٥٢

(١) المراد الصلابة .

(٢) ج ١ - ٢٣٥ .

وَمَا يَسْتَلِمَتِ النَّظَرَ جِدَا أَنَّ الْأَصْفَهَانِي
لَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا عَنِ الشَّاعِرِ الْمَلِّيِّ ، رَعِمَ كَثْرَةُ
رَوَايَاتِهِ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ ، الَّذِي أُوْرِدَ
مَصْرُوعًا شَعْرِيَّةً لَخَارِجَةِ ، بَلْ كَانَ (جَهْمَةُ
سَبَبِ قَرِيْشٍ) هُوَ أَكْثَرُ الْمَصَادِرِ الْقَائِيَةِ
إِيرَادًا لِأَشْعَارِهِ .

وَأَشَارَ الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ (عَبْدُ اللَّهِ
الْحَبُورِيُّ) فِي هَامِشِ الصَّفْحَةِ ٣٤٢ تَعَالِيًّا
عَلَى الْفَقْرَةِ ١٥١ الْخَاصَّةِ بِخَارِجَةِ بْنِ فُلَيْحِ
الْمَلِّيِّ ، مِنْ كِتَابِ (التَّذَكُّرَةِ السَّعْدِيَّةِ فِي
الْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ) تَأْلِيفِ (مُحَمَّدِ
ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الْمَجِيدِ الْعَبِيدِيِّ)
مِنْ رِحَالِ الْقُرْنِ الثَّامِنِ الْمَهْجَرِيِّ ، وَفَدَ
حَقَّقَهُ - أَشَارَ إِلَى وَرُودِ النِّسْبَةِ فِي (مَجَالِسِ
ثَعْلَبِ) الْمَكِّيِّ ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :
« وَلَعَلَّهُ الصَّوَابُ » ، قَاتَ : بَلِ الصَّوَابُ
هُوَ الْمَلِّيُّ .

وَالْأُسْتَاذُ الْعَلَامَةُ (عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمِيْمَنِيُّ)
وَهُوَ الَّذِي حَقَّقَ كِتَابَ (سَمِطِ الْآلِيِّ)
فِي شَرْحِ أَمَالِي الْقَالِي ، عَاقَ فِي هَامِشِ
الْمِصْفَحَةِ ٦٥ الَّتِي أَشْرَتْ إِلَيْهَا مِنْ قَبْلِ ،
بَعْدَ أَنْ أَشَارَ إِلَى وَرُودِ اسْمِ خَارِجَةِ بِنِسْبِهِ

وَهَذَا التَّصْحِيفُ وَجَدْتُهُ فِي كِتَابِ
(الْأَغَانِي) لِأَبْنِ الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِي
(٥٣٥٦ هـ) ، فَقَدْ جَاءَ فِي ج ٢٠ / ١٥٧
فِي رَوَايَةٍ عَنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عِمْرَانَ
الرَّهَوِيِّ « قَالَ . حَدَّثَنِي خَارِجَةُ الْمَكِّيُّ أَنَّهُ
رَأَى عُرْوَةَ بْنَ حِرَامٍ يَطَافُ بِهِ حَوْلَ الْبَيْتِ
قَالَ : فَذُنُوتُ مِنْهُ فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ ؟
فَقَالَ : الَّذِي يَقُولُ :

أَفَى كُلِّ يَوْمٍ أَنْتَ رَامٍ بِلَادَهَا
بَعِينِينَ إِنْ سَأَلْتَهُمْ - غَرْقَانِ
أَلَا فَاحْمِلَانِي بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا
إِلَى حَاضِرِ الرُّوحَاءِ ثُمَّ دَعَانِي (١)
فَقُلْتُ لَهُ : زِدْنِي ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ
وَلَا حَرْفًا . اهـ .

هَكَذَا النَّصُّ فِي الْأَصْفَهَانِي . وَمَا يَسْتَوْقِفُ
النَّظَرُ فِيهِ ، أَنَّ خَارِجَةَ الْمَلِّيِّ لَا يُمْكِنُ أَنْ
يَكُونَ قَدْ رَأَى عُرْوَةَ بْنَ حِرَامٍ ، لِأَنَّ وَفَاةَ
هَذَا كَانَتْ سَنَةَ ٣٠ هـ لِلْمَهْجَرَةِ ، وَعَاشَ
خَارِجَةُ إِلَى أَوَاخِرِ الْقُرْنِ الثَّانِي لِلْمَهْجَرَةِ .
فَلَعَلَّ هُنَاكَ رَاوِيًا سَمِطَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ رَاوٍ
بَعْدَ اسْمِ خَارِجَةِ .

(١) (الرَّوْحَاءُ) كَمَا سَلَفَ أَنْ شَرَحْتُ إِلَى حَوَارِ مِلِّ .

موطنه - آل خاروجة عاشر بين القرنين
التاني والثالث للهجرة ، على عهد الخلفاء
المؤسسين من بني العباس . كالمهدي -
والمنصور ، وهارون الرشيد . وهو عهد
مزدهر بالعلم والأدب والشعر .

ومادما لا نجد في المصادر المتوافرة
معلومات كافية عن شاعرنا . فلنلتصم
هذه المعلومات بقدر الإمكان من شعره . ومن
مناسبات هذا الشعر .

مما يدانا عليه شعره . أنه كان وثيق
الصداقة ببني مصعب من الربيريز . أي
بعبد الله بن مصعب ، وأبيد البكار . وهذا
توليا إمارة المدينة المنورة على التتابع أيام
هارون الرشيد ، وكان يمدحهم . ونجد في
ذلك أكثر من نص . من ذلك قصيدة رائية
طويلة ، يمدح فيها عبد الله بن مصعب
(جمهرة نسب قويتس ١/ ١٣٥) . وسيرد
بعضها في النصوص إن شاء الله تعالى . فقد
صرح صاحب الجمهرة أنها أكثر مما أورد ،
وفيها يقول له :

لعمرك ما سُدَّتْ عليَّ مواردُ

الديك ولا ضاقت عليَّ المصادرُ

(المكي) في ج ٢٠-١٥٧ من الأغاني .
فقال : « إنه ورد مصحفاً إلا أن المصحف
لم يبعد لقرب ملل من مكة » .

وأقول : بل لقد أبعده المصحف ، إن
كان خاروجة هذا هو خاروجة بن فليح لأن
موقع ملل قرب المدينة - كما بينت من
قبل - وهو يبعد عن مكة ، وإن كان على
الطريق إليها ، فلا تصح نسبته إلى مكة .

وهذا ذكر الذي همس على كتاب (الأمل)
ح ١٤/١ . معلقاً على كلمة (المللي) بأنه
لم يجد هذه النسبة في كتب الأنساب .

أما الدكتور (حمود عبد الأمير الحمادي)
الذي حقق كتاب (التعليقات والنوادر)
لأبي علي هارون بن زكريا الهجري (ت نحو
٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) ، فقال معلقاً على نص
منسوب إلى (المللي) ، ولم يذكر المؤلف
اسمه : « لم أهتم إليه لعدم الإفصاح
عنه » ، وألتمس له العذر ، فكتب الأدب
الكبيرة ضئيلة بذكره .

عصره وأخباره :

نستطيع أن نستنتج من بعض رواية
فليح بن إسماعيل ، ومن مدائح ابنه خاروجة
لبعض مشاهير ورجالات عصره - في

ويقول وقد أبدع .

فقد جعلت دواوين الغواني
سوى ديوان ليلى يمحينا

مكانته الشعرية :

لقد وصف (البكري) في شرح اللآلي
شاعرنا بقوله : « شاعر مطبوع من شعراء
الدولة العباسية »

وقد سبق أن أوردت نص ما قاله عنه
(ابن الجراح) حيث وصفه بأنه (شاعر
مجيد) وساق الرواية التالية :

« أخبرني أحمد بن يحيى النحوى قال :
أخبرني عبد الله بن شبيب قال : حدثني
محمد بن إسماعيل قال : جئت عبد العزيز
ابن عمران الرهوى يوماً ، فلما كنت عند
خوخته سمعته يقول : على أيمان الببيعة إن لم
يكن أشعر الناس . فدخلت عليه
فقلت : من هذا ؟ قال : خارجة الملى .
قلت : حين يقول ماذا ؟ قال : حين
يقول :

تخايلها طرف السمو لعاشق
هفا هفوة ثم استفاق فأكدبها

مما يدل على أنه كان يتردد عليه .
ويمتدحه . ويرتفق بأعطيائه ، وذلك
شأنه أيضاً مع ابنه أبي بكر أو البكار ،
وقد ولي إمارة المدينة المنورة بالتعاقب .
والدُّ ثَمَّ الابن .

ونحده في غزله يلهج بذكر (ليلى) ..
فلا ندرى أهو اسم محبوبته حقاً ؟ أو أنه
يتخذ من هذا الاسم رمزا ، ليكتم الاسم
الحقيقى تجنباً للتشهير به :

وأقنع من ليلى بأصقاب دارها
وأخدع فيها بالمنى وهى باطل
ويقول :

ألا طرقت ليلى لقي بين أرحل
شجاه الهوى والنأى فهو عميد
ويقول :

أحن إلى ليلى وقد شط ولئها
كما حنّ محبوس عن الألف نازع
ويقول :

ومانلت من ليلى وفاءً بعهدا
ومانلت منها العهد إلا تضرعا

ومن قوله :
فهم نياط القلب إذ نسُرت به
بنات الهوى في الصدر ، أن يتقصضا
ومن قوله :
ما تدلُّك الشمس إلا حذو منكبه
في غايةٍ تحتها الهامات والقُصُرُ
آل الزبير نجومٌ يستضاء بهم
إذا دجى الليل من ظلماته رهروا
قومٌ إذا شومسوا جد النّاس بهم
ذات العناد ، وإن يأسرتهم يسروا
نُصّ المديح أبا بكر ووالده
وعُمّهم منك إن غابوا وإن حضروا^(١)
ومثل هذه الرواية ترد في (مجالس شعلب)
٢٣٥/١ قال : حدثني عبد الله ابن شبيب
قال : جلس عبيد الله بن الحسن يوماً
— وهو والى المدينة ومكة — للناس . فذكروا
الشعر والشعراء . فقال عبد الملك
ابن عبد العزيز بن الماجشون^(٢) فقيه أهل
المدينة : أتمعرُ الناس خارجةً بن فايح
المكي^(٣) ، حيث يقول في مديح أبي بكر
بن عبد الله الزبيري^(٤) .
كانَّ على عرنيته وجبينه
شعاعين لاحا من يمالك وفرقد
هو السابق التالى أباه كما تلا
أبوه أماء ، سيد وابن سيد
أهابك إجلالاً وأرحوك للتي
تلين بهم — للراغب المتروك
قال : فقال أبو عبد الله زبير^(٥) : كنت
وحسن بن عبيد الله — وأبوه إذ ذاك وال^(٦)
وابن الماجشون جلوساً . فذكر الشعر

(١) يقصد الشاعر بأبي بكر البكار بن عبد الله بن مصعب ، ت ١٩٥ هـ ٨١١ م ، ووالده عبد الله
ت ١٨٤ هـ ٨٠٠ م .
(٢) عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمي بالولاء ، أبو مروان بن الماجشون فقيه مالكي فصيح
ت ٢١٢ هـ ٨٢٧ م (الأعلام) .
(٣) تصحيف صحته المالى .
(٤) سلفت ترجمته .
(٥) هو الزبير بن بكار ت ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م ، وقد أسلفت ترجمة أبيه .
(٦) أى عبيد الله بن الحسن ، سالف الذكر .

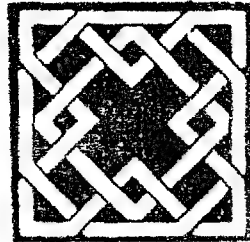
المواطن من الغزل أو المديح عند بعض
متذوقي شعره ، تجعله عندهم أشعر الناس .

وهذا يدل على أنه كان يتمتع بمكانة
شعرية عالية ، كما كان له شعر كثير كما
حدثنا ابن الجراح . ومن العجيب أن لا نجد
له ذكراً موسعاً ، وأن لا نعثر من شعره
إلا على النزر القليل .

والشعراء ، فقال عبد الملك (١) : خارجة
أشعر الناس في مديح لأبي بكر هذا حين
يقول .

ما تذلل لك الشمس إلا حدو منكبه
... إلخ (الأبيات الأربعة السابقة)

ونخلص من هذه الأقوال والروايات أن
خارجة شاعرٌ مُجيد مطبوع ، تستحود
أشعاره على الإعجاب ، فهي في بعض



(١) أي ابن الماجشون .

الفصل الثانى

شعره

(الباء)

- ١ -

قال :

تخايلها طرف السمور لعائـقـى هـمـا هـفوة ثم استنفاق فأكذبـا
النص : هذا البيت مفرد ، جاء فى 'أكتاب (الورقة) لابن الجراح ٧٤ ، مناقه مع
الخبر التالى أ.

(أخبرنى أحمد بن يحيى النحوى : قال : أخبرنى عبد الله بن شبيب قال : حدثنى
محمد بن إسماعيل قال : جئت عبد العزيز بن عمران الرهوى يوماً ، فلما كنت عند
خوخته سمعته يقول : على أيمان البيعة إن لم يكن أشعر الناس ، فدخلت عليه فقلت :
من هذا ؟ فقال : خارجة الملى . فقلت : حين يقول ماذا ؟ ، قال حين يقول : وأورد
البيت) .

- ٢ -

وقال :

فَهَمَّ نياطُ القلبِ إذ نشرت به بنات الهوى فى لصدر أن يتقضبا

النص : هذا البيت مفرد فى (الورقة) لابن الجراح ٧٤

(التساء)

قال :

- ١- ولقد قالت لأتراب لها كالمها يلعبن في حجرتها :
- ٢- خدن عني الظل لا يفزعني ومضت تسعى إلى قبعتها
- ٣- بنت عشر. لم تعانق رجلاً صور البدر على صورتها
- ٤- ولقد قد قبلت فاهاً قبلة كدت ألقى الله من لثتها
- ٥- لم تعانق رجلاً فيما مضى طفلة غيداء في كائنها
- ٦- لم يطش سهم لها قط ومن ترويه لم ينج من رميتها

النص : في (التعميمات والنوادر) لأبي علي هارون بن زكريا الهجري ، (عاش في القرن الثالث الهجري) القطعة ١١١٢ ، حققه (د . محمود عبد الأمير الحمادي) .
نشر دار الرشيد بالعراق .

أما المؤلف فاكتمى بأن قال : (المللي) وعلق المحقق ، بأنه لم يهتد إليه لعدم الافصاح عنه ، ولكنه أضاف أنه يعتقد أن نسبه إلى ملل ، وهو موضع في طريق مكة بين الحرمين . بينه وبين المدينة ليلتان ، وهو واد مسحدر من ورقان (جبل لمزينة) حتى يصب في الفرش : فرش سويقة ، ودل على المراسد ١٣٠٩/٣



(الدال)

- ١ -

- ١- ألا طرقتنا والرفاق هجود فماتت بعالات النوال تجود
- ٢- ألا طرقت ليلى لقي بين أرحل شحاه الهوى والنأى فهو عميد
- ٣- فليت النوى لم تسحق الخرق بيننا وليت الخيال المستراث يعود
- ٤- إذا لأقاد النفس من فجعة الهوى بليلى ، وروعات الفواد تقيد
- ٥- كأن الدموع الواكفات بذكرها إذا أسلمتهن الجفون فريد
- ٦- إذا أدبرت بالشوف أعقاب ليلة أذاك بها يوم أعر مجيد (جديد)

النص : من كتاب الأمل للقالى ١/١٤ ، ومقدمته كالتالى :

« وأنشدنا أبو بكر قال : أنشدنا عبد الرحمن عن عمه قال : أنشدنا بعض أهل المدينة لخارجة بن فليح الملى » .

وهو فى كتاب (الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمحضرمين)

للخالديين ، تحقيق د. السيد محمد يوسف ٢/١٨٧

- ٢ -

وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب :

- ١- أرى البرق يدنو من يد مصعبية إلينا ويدكو فى صبير منضد
- ٢- يد عودتنا أن يروح غمامها علينا بنجو مستهل ويغتدى
- ٣- بسبب أبى بكر نفاذ بدولة على سالف من عيشنا غير مرغد

(١) هجر د : نيام . علات . حبح : ما يتلهى به .

(٢) لقي : المطروح لهوانه . عميد : هذه العشق .

(٣) تسحق : تبعد . المستراث : المستطى .

(٤) أقاد : اقصى ، يقال : أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

- ٤ - وما زال مَوَلَى التحية بالندى وما زال مشفوع الموال بموعده
٥ - إذا خُز هزته عروق كريمة يؤول إليها المجد من كل محتد
٦ - ترى سبل المعروف نحو سجالة عوامر بالحادين من كل ورد
٧ - أغر زبيري مته جوده بنو مالك في بيت مجد مشيد
٨ - كأن على عرنيده وجبينه شعاعين لاحا من سماك وفرقده
٩ - له نسب بين الربير وهاشم رفيع . وصديق النبي محمد
١٠ - هو السابق التالي أباه كما تلا أبوه أباه . سيد وابن سيد
١١ - أهابك إجلالاً وأرجوك التي تالين به للراغب المتودد
١٢ - له لحظة فيها لنا اليسر بالغي وأخرى ره وق للعادو بمرصده
١٣ - لقد لاذ منه العائدون من الردى بركن منيع الساحتين مويده
١٤ - له عطن رحب . وحوض وفارط . يعلّ ووداً أولهت بتوفده

النص : في (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار . القطعة ٣٠٧ . ١٧٠ / ١ - ١٧٢ ،
١١٠٠٨ في مجالس ثعلب ٢٣٥ ، وفي مخطوط . في الأنساب لإسماعيل بن إبراهيم
ابن محمد الكتاني البليسي (ملل) . وهو برقم ٥٩٦ في مكتبة رئيس الكتاب باستانبول
و ٨ في خزانة الأدب ١٠ / ٤٥٢

- ١ - الصبير : السحاب الأبيض الكثيف .
٢ - النجو : السحاب الذي به بريق المطر .
٧ - بنو مالك : يقصد به مالك بن نصر بن كنانة ، المقصود قريش .
١١ - المتودد .. جاءت في (مجالس ثعلب) : المتردد .
١٤ - العطن : مبرك الإبل . والفارط : هو الذي يقدم الواردين إلى الماء ليعملهم السقاء .
ويعل : أى يسقيهم مرة بعد مرة .

(الراء)

١ - قال يمدح عبد الله بن مصعب :

- ١ - دعانا لعبد الله والدهر باسط. علينا جناح البوس والجود عاثر
- ٢ - تواتر أخبـار يردن رحمـه علينا ، وللمعروف والنكر آثر
- ٣ - فإني لما أوليتني يا ابن مصعب يداً بعد أيد منعمات لشاكر
- ٤ - وإنك والحي الذي أنت منهم لكالدرد حفته النجوم الزواهر
- ٥ - ويسمو بكم مجد الزبير وفخره إذا عُددت عند النفار المآثر
- ٦ - وتسطيع منه غرة الفجر فيكم فتغضى لها عنك العيون الشوازر
- ٧ - فإن يك قوم قوضوا عرش مجدهم فقد رب مجداً أولاً منك آخر
- ٨ - رأيته تسمو للمكارم والعلا فلا زاهق عنها ولا أنت قاصر
- ٩ - وتعلو بك الأيام للندوة التي لها كنف يأوى إليه المعاشر
- ١٠ - لكم منكباها حيث قر قرارها وفرعك منها أئمن متياسر
- ١١ - وجادت يدك المستهل نداهما فأغنى وأقنى سـيبك المتظاهر
- ١٢ - فلا مجد إلا منكم فيه أول ولا مجد إلا منكم فيه عابر
- ١٣ - ولا حرب إلا قد قرعتم كمانها عليها بكم كانت تدور الدوائر
- ١٤ - لعمرك ما سدت على مـواردى لديك ولا ضـاقت على المصادر

النص : في (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار - القطعة ٢٦٧ ج ١/ ١٣٥ ،
ويذهب محققه الأستاذ (محمود شاكر) أن من هذه القصيدة البيتين المذكورين بعد ،
ينظر الهامش في ص ١٢٢ من الكتاب المذكور .

١ - الزواهر : النيرات .

٦ - الشوازر : من الشمر ، وهو النظر بغضب بموخر العين .

١١- آفنى : أرضى ، سيبك : عطاؤك .

٢- ولنى مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الربير يقول

١- بنى مصعب أنتم خيار خيارنا أكابركم والمعقبون الأصاغر

٢- هاليل قوامون بالقسط بيننا لكم خطاب تهتز منها المنابر

النص : القطعة ٢٤٤ من ١/ ١٢٢ من (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار ، تحقيق الأستاذ (محمود شاكِر) ، وذهب إلى أنهما من القصيدة الرائية السابقة . ويبدو الأمر كذلك .

٢- هاليل : جمع يهلُول . السيد الجامع لصفات الحير .

النص :

* في (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار : القطعة ٣١٦ ج ١ / ١٦٩ - ١٧٠

ومعنى اعتمام في ٣ ، ٦ : اختار .

وفي ٥ : لعل الصحة (مرغوبة) لا (مرهوبة) .

وقال الأستاذ (محمود شاكِر) في تعليقه على كلمة (مرهوبة) في البيت الخامس : « كذا في النسخة الأم ، ولم أعرف له معنى ، وفي (نسخة) كوبرلى : (مربوبة الشدى) كأنه من قولهم رب المكان إذا لزمه .. » ، وربما كان هذا هو الصواب .

* والأبيات الأربعة الأخيرة في (مجالس ثعلب) ٢٣٥ - ٢٣٦

و ١٣ في (لسان العرب) في موضعين ذلك وقصر . وهو فيه غير منسوب .

* وهى أيضاً في كتاب (الورقة) لابن الحراح .

١٣- تدلك الشمس : تميل للغروب . القصر : جمع قصرة : وهى أصل العنق .

٣- وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب .

- ١ - بين البروج ، أبو بكر ووالده حيث استوى فوق طرف الناظر القمر
- ٢ - في منزل بين مضجعي الشمس معتدل ومخفق الذبح ، يعيش دونه البصر
- ٣ - أنت الإمام الذي بالبر نعرفه اعتماده الدوام النعمة القدر
- ٤ - يومك : يوم تعم الناس رأفته ويوم حكم الدين الله منتصر
- ٥ - كم من يد لك لا تبلى صنيعتها مردوة الشدى معلول بها البشر
- ٦ - تضجى لديك جنود الرأى عاكفة يعتامها عكر من خاتمها عكر
- ٧ - تسمو بك الأرض غدوا في مناكبها حيث انتحى بك من أقطارها قطر
- ٨ - أكرم بأولكم في الناس من سلف والآخريين إذا ما عدت الآخر
- ٩ - إن يسبقوك - أبا بكر - بأسيهم تحت البناء فقد شيدت ما عمروا
- ١٠ - مرفه الشـأو سباق على مهل مستحصد الرأى لا كهل ولا غمر
- ١١ - مستعجم عن أذاة القوم منطقته مستسمح القـول لاعي ولا هذر
- ١٢ - مد الزبير له باعاً على شرف مطهر البيت ، والقضآن قد طهروا
- ١٣ - ما تملك الشمس إلا حذو منكبه في حومة تحتها الهامات والقصر
- ١٤ - آل الزبير نجوم يستنار بها إذا دجا الليل من ظلماته زهروا
- ١٥ - قوم إذا شومسوا ، ليج الشماس بهم ذات العناد ، وإن ياسرهم يسروا
- ١٦ - خُص المديح أبا بكر ووالده وعمهم منك إن غابوا وإن حضروا

٤- وقال :

- ١ - لقد طعنت في رب رب شابه الدي رقاق الثنايا واضحات المحاجر
- ٢ - ويسفرن للسارى إذا جن ليلها سبيل المطايا بالوجوه السوافر

النص :

* البيتان في (التذكرة السعدية) للعبيدي . تحقيق د . عبدالله العجورى ص ٣٤٢

قطعة رقم ١٥١

وقد ساقهما المؤلف دون تعليق . أما المحقق فقال : (خارجة بن فليح الملى ، مولى أسلم حجارى ، شاعر مجيد ، كثير الشعر . وفي محالسن ثعلب : المكى ، ولعله الصواب . ثم دل على موطن ترجمته وشعره . ولكنه لم يشر إلى الأغاني ، وجمهرة نسب قريش

٥- وقال يمدح محمداً بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر :

- ١ - ألا هل من البين المشت مجيرُ وهل لليلى السلفات عكورُ
- ٢ - لقد صدعت بين القرينين بغتة نوى ، يوم حرعاء الرياض هجور
- ٣ - ففى كبدي يا ليل من فحمة النوى نوائب وحى بينهن فطـور
- ٤ - يميت المنى شوقى مراراً وللهمى ... من أحـداقهن نشـور
- ٥ - غريب عـداوى يكاد فـؤاده إلى أهل جلى البلاد يـطـير
- ٦ - غريب له قلب يحن صباة وعين بأسراب الدموع دُرورُ
- ٧ - وإنى لعين أسـعدتنى بدمعهاـا وقلب مراة شهـوقه لشـكور
- ٨ - ولى روعة عند الإياب وزفـرة لها تحت أحناء الضلوع سعير
- ٩ - خليلي ما لليل باتت نحومة رواكد ما يسرى بها فتغـور
- ١٠ - أظن الليالى زدن طولاً على امرئ يطول عليه الليل وهو قصـير
- ١١ - سقى هضبات الفرش كل مجلحل له نضدٌ - من مزنة - وصبير
- ١٢ - وعادَ بأرض الجعفرين رائح هزيم ، ومنهل الغمام بكور
- ١٣ - هناك بنو الطيار فى الغرف العلى وجوه عليها نضـرة وسرور
- ١٤ - لهم غرر تحت الدجى جعفرية لها تحت جلباب الظلام زهور

النص :

من كتاب (النوادر والتعليقات) لأبي على الهجرى وهذه القصيدة في القسم الذي لا يزال مخطوطاً من الكتاب ، في المخطوطة الهمدانية . وقد تفضل بإمدادى بها من مصورة المخطوطة أستاذنا الجليل الشيخ (حمد الجاسر) حزه الله خيراً . وقد تصدرت قراءة النص لوجود طمس كثير ، وقد وضعت فراغاً للكلمات التي تعذر إدراكها . وفي البيت رقم ٢٦ أرجح كلمة (عليها) في الفراغ .

والنص من الصفحة ١٢١ من المخطوطة . وجاء في مقدمته .

« قال وأنشدني أبو الحسن إبراهيم بن يوسف بن عيسى بن محمد بن جعفر ابن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر الجرجة بن فليح المالى . وهو منى ، في محمد بن جعفر جده المذكور هاهنا : ... » .

١ - المشت : المُفَرَّق . عكور : رجوع .

٣ - وجى : الوجى رقة القدم من كثرة المشى ، استعير هنا للكمد .

٥ - عداوى : نسبته إلى عدا مزينه ، قال معن بن أوس العداوى - عدا مزينه في إليه :

وترى بها العوجاء كل ثنية كأن بها بواً بنهى تعاوله

قال أبو على : كل ما في العرب بنو عدا . فالنسبة إليه عدائى الأعداء مزينه فالنسبة إليه عداوى .

٧ - مراة : استدره .

١١ - النضد : ما تراكب من السحاب . الصبير : السحاب الأبيض الذى يصير بعضه فوق بعض درجات .

١٤ - زهور : نور .

- ١٤- ثرى أرضهم من وقع أقدامهم بها ومس الجباه الساجدات - ظهور
- ١٦- لهم نسب لو يس-تلان ... ذرى الصخر ظلت صمهن تمور
- ١٧- دعوت لنكبات الزمان محمداً وقد هيض عظم الجود فهو كسير
- ١٨- فليى ، وأنشأ منزلة من نواله لها عارض جم السجال مطير
- ١٩- له شيم فيها أناة وناثل عتيـد ، وفيها للنكير نكير
- ٢٠- تلاقت عايه بالمكارم منهم بطون نفت عنه القذى وظهور
- ٢١- تلاقت عليه أمهات حواضن الكرام فخور
- ٢٢- يمانية الأنساب أو مضرية تخيرها من سالفيه عشير
- ٢٣- كلكن بعقد الخاطبين وإنما دعاهن مجد ثاقب ومهور
- ٢٤- بعلياء تجرى الشمس دون فروعها ويقصر عنها الطرف وهو حسير
- ٢٥- بحيث استوى بدر السماء وبدرها . ا هناك لهم مجد أشم فخور
- ٢٦- فتي علقت كفى بأسبابه التي أغار ... بالسماح مغير
- ٢٧- هناك له بين النبي وجعفر وبين علي معقل ومصير
- ٢٨- ورثت يمين الجود جود ابن جعفر فأنت له فى الغابرين نظير
- ٢٩- وحرمت (لا) يا ابن النبي فلفظها لباغى الندى عبء علمك كبير



(العين)

- ١ -

- ١- أحن إلى ليلي ، وقد شط وليها كما حنّ محبوبس عن الالف ، نازع
- ٢- إذا خوفتني النفس بالنأي تارة وبالصرم منها أكذبتني المطامع
- ٣- أكَلَّ هواك الطرفَ من كل بهجة وصمّت عن الدّاعى إليها المسامع

النص :

في الأملالي ٢٢٣/١ ، وفي السمط ٥١٥ / ٥١٦ . أورد البيهتين : الأول والثاني فقط . ،
وقال . الولي . القرب . وفي مجموعة المعالي : المؤلف مجهول . تحقيق عبد المعين -
الملوحى : ٥٠٢ - ٥٠٣

وقال :

- ١- ثنت طرفي - نحو المطى صباية إلى فكاد القلب أن يتصدعا
- ٢- أقامت فطابت تربة الخيف إذ ثوت به بعد تعريف المعرف .. أربعا
- ٣- وطاب حجاب المروتين بنشرها ومتن الصفا الشرقى حتى تضموعا
- ٤- وما نلت من ليلي وفاء بعهدا وما نلت منها العهد إلا تضمرعا

النص :

من كتاب (الورقة) لابن الجراح ٧٥ قدمه بقوله :

« ومن قول خارجة ، أنشد نبيه بن أبي خيثمة عن مصعب والزبير بن بكار » . ثم
أورد الأبيات .

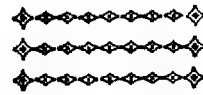
(اللام)

- ١- أشوقاً ولمَّـا يسلك البين مسلكا فما أبت إن شقَّت عصا البين فاعل
- ٢- هناك يحن القلب حنةً واله ويستنّ مرفضٌ من الدمع هاطل
- ٢- وإن عنّ لي بالليلـل ذكرك عـة هفوت وشاقتني الرسوم الموائل
- ٤- وأقع من ليلي ساءتتاب دارها وأخذع فيها بالمني وهي باطل

النص :

في الحماسة البصرية ١٩٠/٢ القطعة رقم ٢٥١ ، ولم يعلق المحقق بشيء . عنوان القطعة (وقال خارجة) ، ولم يذكر المؤلف من هو خارجة ، وصممت المعلق . ولكن جاء في فهرس الشعراء بعد ذكر (خارجة) وبين قوسين (بن فليح المليلي) .

٢- يستنّ : ينصب . مرفض . مترشش !



(النون)

قال :

فقد جعلت دواوين الغواني سوى ديوان ليلى يمحيننا

النص :

البيت مفرد في كتاب (الورقة) لابن الجراح ٧٥

عبد العزيز أحمد الرفاعي
عضو المجمع المراسل (من السعودية)

المصادر

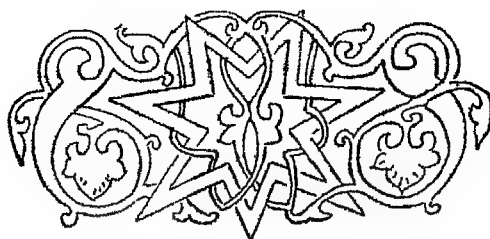
- ١ - الأصفهاني أبو الفرج (٣٥٦) ، الأعالي ، طبعة محمد أفندي ساسي .
- ٢ - البصري : إعل بن أبي الفرج (ت ٦٥٩ هـ) . الحماسة المصرية . تحقيق : محتر الدين أحمد (عليكره) . القاهرة : عالم الكتب .
- ٣ - البكري : ١ - عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) ، معجم ما استعجم . تحقيق : مصطفى السقا ، المعهد الخايف للأبحاث المغربية .
- ٢ - سمط. اللآلى ، تحقيق . عبد العزيز الميمنى ، القاهرة : لجنة - التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٤ هـ .
- ٤ - السبيسي : إسماعيل بن إبراهيم بن محمد الكتاني^١ (٧٢٨ - ٨٠٢ هـ) ، كتاب فى الأنساب ، مخطوط. برقم ٥٩٦ فى مكتبة رئيس الكتاب فى استانبول ، تركيا .
- ٥ - ابن بكار : الزبير (ت ٢٥٦ هـ) ، جمهرة نسب قریش وأخبارها ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، الطبعة الأولى .
- ٦ - ثعلب : أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) ، مجالس ثعلب ، شرح . عبد السلام هارون ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : دار المعارف .
- ٧ - ابن الجراح : محمد بن داود (٢٩٦ هـ) ، الورقة ، تحقيق : عبد الوهاب عزام ، وعبد الستار أحمد فراج ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : دار المعارف .
- ٨ - الحموى : ياقوت (ت ٦٢٦ هـ) .
- ٩ - الخالديان : أبوبكر محمد^٢ (٣٨٠ هـ) ، وأروعثمان سعيد^٣ (ت ٣٩٠ هـ) - ابنى هاشم : الأشباه والظائر ، تحقيق : السيد محمد السيد ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ م .

١٠- العبيدي : محمد بن عبد الرحمن (من رجال القرن الثامن الهجري) ، التذكرة السعدية في الأشعار العربية ، تحقيق : د عبد الله الجبوري ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨١ م .

١١- القالي . أبو علي (ت ٣٥٦ هـ) ، الأمالي .

١٢- مؤلف مجهول ؟ كتاب (مجموعة المعاني) ، تحقيق : عبد المعين الملوحي ، دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٨ م .

١٣- هارون : عبد السلام محمد ، تحقیقات وتنبیہات فی لسان العرب .



تراجم أربية من مخطوط مجهول (تاريخ عبد الحميد بك) للدكتور أبو القاسم حسد الله

نحقق الآن كتاباً في التراجم نظن أنه لم ينشر بعد . وقد اخترنا منه نماذج من الشخصيات التي عرفت في مجال الأدب بالخصوص ، وإلى وقت الشروع في كتابة هذه الدراسة كنا نعتقد أن مؤلف الكتاب يكاد يكون مجهولاً أيضاً ، لأننا لم نعثر على سوى اسم (عبد الحميد بك) في المخطوط وطالما رجعنا إلى كتب التراجم لأهل القرن التاسع عشر (13 هـ) فلم نعثر له على ترجمة ، ولولا بعض الإشارات في غضون الكتاب عن والده ، وحياته هو الشخصية ودراسته ، لما استطعنا أن نعرف من هو .

وحتى عنوان الكتاب ما يزال مبهوراً ومجهولاً عندنا ، إذ كل ما أفادنا به المصدر الذي رجعنا إليه هو أن عنوان الكتاب (تاريخ عبد الحميد بك) ، وكلمة (تاريخ) هذه لا تدل على أن الكتاب في التراجم ، فقد يكون تاريخاً للدول أو البلدان والأمم ، وقد يكون تاريخاً شخصياً أو سيرة ذاتية ، ولكن المتمعن بعد ذلك في محتوى الكتاب يدرك أنه مجموعة من التراجم أو قاموس أعلام .

وعندما جمعنا المادة لهذه الدراسة وأخذنا ننتهيها لتحريرها أطلعنا على كتاب أحمد تيمور (أعلام الفكر الإسلامى في العصر الحديث⁽¹⁾) ، فإذا فيه ترجمة قصيرة

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الأحد ٧ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .
(1) ط أ ، القاهرة ، 1967 ، ص 204 - 205 . ولا ندرى من أين أضيفت كلمة (نافع) لإسم عبد الحميد ما دامت لم ترد في المخطوط .

عبد الحميد ، رغم أنه ترجم لمن اسمه
(محمود) وتناول في أعلامه الأصدقاء
وغيرهم (2) .

ومهما يكن الأمر فإن دراستنا هذه
تتناول التعريف بالمؤلف ، عبد الحميد ،
والتعريف بمخطوطه ، ونماذج من الأدباء
الذين ترجم لهم .

(1) التعريف بالمؤلف :

ترجم عبد الحميد بك لأبيه ولم يترجم
لنفسه وبناءً عليه فإن والده هو خليل بن
مصطفى آغا بن حسن آغا (ويسميه ابنه
الأمير خليل أفندي) ، وهو من مواليد
قوة الحوالى سنة 1185 . وقد نشأ الوالد
في مسقط رأسه حيث تعلم المبادئ ثم
أرسله والده (جد المؤلف) إلى اسطنبول
حيث تعلم التركية والفارسية وبعض
العلوم . وبعد رجوعه إلى قوالة اصططحه
محمد علي (قبل ولايته على مصر) ولازمه

لمؤلف الكتاب الذى نحن بصددده . لم تبلغ
النصفحتين ، وإذا اسمه فيه (عبد الحميد
نفع بك) ، وإذا عنوان كتابه هو (تاريخ
أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثانى
عشر) وبقدر ما أفادتنا هذه الترجمة
بقدر ما زادتنا حيرة لأنها لم تورح لعبد
الحميد نافع ميلاداً ولا وفاة . ولم تصنف
كتابته . ولعل السبب فى ذلك هو أن أحمد
تيمور لم يطلع على الكتاب أصلاً وإنما
سمع عنه أنه بيع بعد وفاة صاحبه كما
بيعت كتبه الأخرى .

هذه هى الإشارة الأولى التى أفادتنا
وحيرتنا معاً . أما الإشارة الثانية فهى
ما ذكره محمد عبد الغنى حسن فى ثنايا
كتابته (أعلام من الشرق والغرب (1))
من أن عبد الحميد نافع قد جمع وطبع فى
حياته مختصر ديوان صديقه محمود صفوت
الساعاتى ، والغريب هو أن اسم الساعاتى
لا يظهر أبداً فى تاريخ (أو قاموس)

(1) دار الفكر العربى ، القاهرة ، 1949 ، ص 44 ، 55 .

(2) كما أنه لم يترجم لإبراهيم أمدى طاهر الذى ذكر تيمور أنه كان من الشعراء الجيدين وصديقاً حميلاً
لعبد الحميد ، عاش معه ولم يفرق بينهما إلا الموت ، وكذلك لا وجود لاسم نصر الحورينى فى قاموس عبد الحميد
رغم أن تيمور يقول إنه كان (عبد الحميد) يهد إليه بمقالة كتبه وتصحيحها .

التابعة للدولة ، ثم حاكماً على ولايتي الغربية والبحيرة ، ثم على ولاية بنى سويف ثم مديراً لولاية الدقهلية ، ثم على ترسانة السفن بسولاق ، بالإضافة إلى نظارة الكسوة الشريفة ومصاحبة ضرب العملة .

ولو ترجم عبد الحميد لنفسه أو وجدنا له ترجمة وافية ، لما أطلنا في ترجمة والده كل هذا الطول وقد وجدنا في المخطوط تعليقاً لمحمد عارف ، صهر عبد الحميد (زوج أخته) ، أن وفاة عبد الحميد كانت سنة 1280 (1863) . وحاء في ترجمة مصطفى بيك الجميل المولود سنة 1247 (1831) قول عبد الحميد إنه كان « رفيق وصاحب في الصغر » . وآخر تاريخ ذكره عبد الحميد في المخطوط هو تاريخ وفاة مصطفى الكبابطى الجزارى ، سنة 1278 (1861) أى قبل وفاة المؤلف بسنتين . ويذكر أحمد تيمور أن عبد الحميد « مات شاباً » ، ومعنى ذلك أنه قد ولد لأبيه بعد التحاقه بمصر ، ونقدر ذلك بحوالى سنة 1245 (1829) ، عندما كان الوالد يقوم بإحدى وظائفه

مدة وكانت بينهما مصاهرة ، ثم تقلب خليل في عدة وظائف قبل الاستقرار بمصر منها الكتابة في إحدى سفن الأسطول العثمانى ، وبعد ولاية محمد على مصر لحقت به عشيرته وأصهاره ، ومنهم خليل والده مؤلفنا .

ويريد المؤلف أن يبرز ثلاثة أمور من حياة والده : أن نسبه من جهة الأم ينتهى إلى الإمام الحسين ، فهو من آل البيت والأمر الثانى أنه من عائلة موظفين ساميين (آغوات) كانت تقطن فوالة ، والأمر الثالث أن والده قد أصبح في مصر من كبار الأغنياء والملاك لأنه ترك عند وفاته سنة 1256 (1840) قصرًا ضخمًا في شبرا تحيط به البساتين والحدائق الواسعة ، كما ترك نحو ألف فدان من الأرض موزعة في عدة جهات ، بالإضافة إلى أربعة بيوت كبيرة ومجموعة من الحوانيت . أما الوظائف التي تولاه خليل أفندى فكثيرة نذكر منها : ناظر سوق السمك في الإسكندرية ، وناظر سوق الغلال في رشيد ثم أصبح محافظاً على رشيد ، ثم ناظرًا على القلعة ، ثم على مصلحة المنسوجات

(باشا) . وقد توفيت في سنة وفاة أخيها
(1280) وورث زوجها مكتبة عبد
الحميد . كما أشار تيمور ، ولعله قد ورث
منه أشياء أخرى أيضاً ، رغم تساقفه الذي
عبر عنه بقوله « يضحى صدرى ولا
ينطلق لسانى » . وفي ترجمة حسن بك
منجى يقول عبد الحميد إنه ابن عمه
الشقيق وأنه ورث منه ربع الميراث تعصيباً
في الأرض الواقعة بينى سوييف والأمتعة .
وكثيراً ما يذكر عبد الحميد أموراً عائلية
تتعلق بأصهاره وأقاربه ولا ندرى إن كان
قد ترك عقباً .

وكانت ثقافة المؤلف هي ثقافة هذه
الفئة أيضاً . فهو قد درس التركية
والفارسية والعربية ، ويظهر ذلك من
إشاداته بمن يعرف اللغتين التركية والفارسية
وكان والده قد درسهما . أما العربية فقد
تمكن منها ، ولكن ليس إلى الحد الذي
يذكره له أحمد تيمور عندما قال إنه شغف
بالأدب « حتى صارت له ملكة أدبية يعتمد
بها » . ذلك أن أسلوبه في كتابه الذي
نحققه لا يدل على ذلك . وتكون ملاحظة
أحمد تيمور صحيحة إذا ما صنفنا

المذكورة . فهل كان الميلاد بالقاهرة ؟
ليس هناك ما يدل على ذلك الآن ، ولكن
من الواضح أن عبد الحميد قد تنقل مع
والده في بعض الأماكن التي تولى فيها تلك
الوظائف .

وواضح أيضاً أن عبد الحميد نشأ في
نعمة وبدخ . وهو من تلك البيوتات
الدخيلة على مصر عندئذ والتي ارتبطت
بعائلة محمد علي ، واستثرت على حساب
الإنسان المصري . ويظهر ذلك من مجموع
التراجم التي اختارها عبد الحميد لكتابه ،
فبعضها من أعيان هذه الفئة الطارئة والغنية
والتي تمتعت بالوظائف السامية والامتيازات
الكبيرة . ومن هذه التراجم ما يمت بصاة
وثيقة إلى عائلة المؤلف من قريب أو بعيد
مثل أحمد باشا يكن وحسن بك منجى .

أشرنا إلى المصاهرة التي كانت بين
محمد علي ، والى مصر ، و (الأمير)
خليل والد عبد الحميد . ومن الطبيعي أن
يكون لهذا أيضاً أقارب وأصهار ، فأخته
(منيرة) كانت متزوجة من محمد عارف

عبد الحميد في « العجم » الذين درسوا العربية وتأدّبوا بها وتذوّقوا أساليبها رغم الخلفيات اللغوية والعائلية التي كانت معهم .
وهناك إشارات عديدة تدل على ثقافة

عبد الحميد . فبالإضافة إلى اللغات المذكورة ، كان مولعاً بالأدب والموسيقى والميقات . ففي ترجمته لأحمد بن إسماعيل البقلي قال إنه قرأ عليه فن الميقات والحساب ، وإن له معه مراسلات أدبية ومناشدات شعرية وكان الشيخ البقلي يتردد على قصر عبد الحميد في شبّرا سنة 1273 (1856) وأنه كان عندئذ في مجلس حافل وفي ترجمة قاسم ابن علي التونسي قال إنه لما ورد المدينة المنورة « اقتبسنا من مشكاة أنوار علومه ، وانتزَعْنَا بِحَدائق رياض فِهْرَمَه » . وذكر مرة أخرى في ترجمة رحمة الإسمرائيلي المتجول أنه شاهد علاجه منه بنفسه بالقاهرة

وأنه رأى له شهادات معه أعطاهما له « حكماء الأطراف » وهو يعني بهم الأطباء وحين ترجم لعلّ اللقاني قال عنه إنه أملاه نسبه أنه حسيني .

ومن جهة أخرى يذكر عبد الحميد أنه أخذ الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ مصطفي الكبايطي الجزائري⁽¹⁾ عن محمد صالح الرضوي البُخاري . كما أخذ حديث المصافحة عنه وعن محمد عاقل أفندي . وكلا الشيخين كان بالاسكندرية⁽²⁾ . والملاحظ أن عبد الحميد قد أكثر من تراجم المتصوفين والدراويش أيضاً ، وكان يذكر كراماتهم وخوارقهم بعقيدة واضحة . وهذا كله يدل على أنه كان غارقاً في تيار العصر أيضاً من البدع والدروشة والطرق الصوفية رغم أنه كان ، كما ذكرنا ، من أهل النعمة والجاه ، وكان منزله ، كما يقول تيمور ، موثلاً للأدباء والمناظرات وكان

(1) ترجم الحياة ونشاط الفتى مصطفي الكبايطي في دراسة خاصة نشرت في مجلة (عالم الفكر) الكويتية إبريل - مايو 1985 ، وهي مطبوعة ضمن كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، ج 2 ، الجزائر ، 1985 ص 11 - 8 . انظر أيضاً رثاء محمد عاقل للكبايطي في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة) ، الجزائر ، 1983 ، ص 17 - 47 وكذلك في مجلة الثقافة (عدد 44 ، 1978) .

(2) لاحظ أن عبد الحميد كثيراً ما ذكر الاسكندرية ونسب إليها الأعيان والأدباء ، فهل أقام بها أكثر من القاهرة أو كان يتردد عليها بكثرة ؟

يطلقون عليه اسم (تاريخ عبد الحميد بك)
اختصاراً أما محمد عارف ، صهر المؤلف
فقد أطلق عليه اسم (المجموع) عندما
ذكر في تعليق له أن « عبد الحميد بك
جامع هذا المجموع انتقل إلى دار الرحمة
سنة 1280 . « ولا بدري من أين أخذ
أحمد تيمور العنوان (تاريخ أعيان القرن
الثالث عشر وبعض الثاني عشر)

والظاهر أن عبد الحميد قد ألف كتابين
أو كتاباً واحداً في جزئين تناول أحدهما
تراجم أعيان القرن الثاني عشر والآخر
أعيان القرن الثالث عشر ونحن نفهم
ذلك من العبارة التالية التي وردت في
ترجمته لمحمد أمين الزلي ، حيث قال :
« ونقلت منه (أى من الزلي) جملة من
تراجم أعيان القرن الثاني عشر في تاريخي
الذي رتبته فيه ، والثالث عشر هذا - أسأل
الله إتمامه » . فمن الواضح أن عبد الحميد
ألف « تاريخاً » في أعيان القرن الثاني
عشر واستفاد من عمل الزلي فيه ، ويوحى
كلامه أنه رتبته واستهى منه . وأما عمله

مولعاً باقتناء الكتب والمغالة بها حتى جاءه
الوراقون من كل فج . ويذكر تيمور أيضاً
أن عبد الحميد قد حنق الموسيقى واستعمل
بها وأتقن العرف على القانون ، وألف
رسالة في الموسيقى . وما يشهد على ذلك أن
عبد الحميد كان يتهير في بعض تراجمه
إلى من أتقن الموسيقى علماً وعملاً . كما
يقول . وألف فيها الرسائل . وقد ترك
عبد الحميد عدة مؤلفات .

1 - تاريخه الذي نحن بصددده .

2 - رسالة في الموسيقى (1) .

3 - مختصر ديوان الساعاتي (2) ومنها
من هذه الأعمال الأول .

(ب) المخطوط :

ليس هناك عنوان ثابت لهذا العمل ،
فهو كما قلنا قاموس أعلام أو مجموع
تراجم . والمؤلف نفسه هو الذي استعمل
كلمة (تاريخ) لعمله ، كما سنرى .
ولعل هذا هو الذي جعله مفهرسي الكتاب

(١) أشار إلى ذلك تيمور ، ص 205 .

(٢) ط . على الحجر سنة 1860 في 90 صفحة .

والطاء ، والعين ، والقاف ، والميم ، والباء وكثير من هذه الحروف لا يتضمن سوى ترجمة واحدة أو اثنتين . مثل الباء ، والذال

والذال ، والطاء ، والقاف إلخ . وقد ذكرنا أن آخر تاريخ مذكور في التراجم هو تاريخ وفاة الكهابطي الجزائري سنة 1278 فهل أصيب عبد الحميد بمرض عاقه عن مواصلة عمله إلى أن مات به سنة 1280 ؟

ومهما كان الأمر فإن عبد الحميد قد جمع مادة كتابه من عدة مصادر ، من ذلك ما استقاه من معاصريه وزملائه وشيوخه . ذلك أن معظم الذين ترجم لهم كانوا معاصرين له (أهل القرن الثالث عشر) وفي عدد من الأماكن يتحدث عن المترجم له كشاهد عيان ، وأحياناً كراوٍ عن غيره من المعاصرين . فإذا عرفنا أنه أن قد تنقل في حياة والده إلى مناطق عديدة من مصر ، تبعاً لوظائف والده ، فإننا ندرك أنه جمع المعلومات عن تراجمه من هذه الاتصالات الشخصية والروايات الشفهية وقد لاحظنا أنه كان يقيم المجالس الحافلة في قصر والده بشبرا فإذا هو يستقبل فيه الأدباء والأعيان . وقد ترجم لعدد من

الخاص بأعيان القرن الثالث عشر فما يزال لم يتمه عندئذ ، كما يوحى كلامه أيضاً ولم يرتبه .

ويزداد الأمر وضوحاً عندما نعرف أن الجزء الذي بين أيدينا إنما هو الخاص بأعيان الثالث عشر ، وهو غير مرتب وغير تام فعلاً . فهو غير مرتب لأن التراجم متداخلة ويقع في عدة صفحات غير مرتبة من الكتاب ، مثلاً ترجمة خليل الغزلات تقع على الصفحات التالية . 7 ، 64 ، 68 ، وترجمة علي الصيرفي تقع على صفحات 18 ، 34 ، 72 ، 73 . وهكذا . ولذلك كان علينا إن نجمع للترجمة الواحدة ما تفرق عنها في مختلف صفحات الكتاب . وقد قلنا أن العمل غير كامل أيضاً لأن الموت قد أدرك عبد الحميد وهو منهك في عمله ، فهناك أولاً بياضات متروكة لبعض التراجم قصد تسويدها متى توفرت المعلومات ، وهناك ثانياً حروف عديدة لم يترجم فيها لأى شخص . والحروف الموجودة هي : الألف ، والباء ، والحاء ، والخاء ، والذال ، والذال ، والراء ، والسين ، والشين ،

رجال السلطة من جيل والده الدين لاشك
أنه تعرف على بعضهم من خلال والده
أو سمع بهم أو كانوا أصهاراً لهم .

وهناك مصدران آخران لهذا الكتاب :
أولا خزانة الكتب التي جمعها المؤلف
بالشراء ، كما لاحظ تيمور ، وهي الخزانة
التي قيل إن صهره محمد عارف (باشا)⁽¹⁾
قد استولى عليها بعد وفاته ثم تفرقت
بالبيع وغيره . أما المصدر الثاني فهو النقل
من كتب المعاصرين . وقد صرح أنه نقل
من تأليف في التراجم للزلي ، ذاكراً العبارة
التي أشرنا إليها أعلاه ، وقد بدأها بقوله
عن محمد أمين الزلي : « وجمع كتاباً في
في تراجم المتقدمين والمتأخرين من العلماء
والأدباء والأعيان ، ومات قبل أن يرتبه ،
رأيت ونقلت منه جملة ... إلخ »⁽²⁾ . كما
أشار إلى أنه اعتمد على تأليف في التراجم
لصديقه محمد أفندي عاقل⁽³⁾ .

ومن ثمة نرى أن كتاب عبد الحميد
الذي نحققه ما هو إلا عمل في تراجم رجال
ونساء القرن الثالث عشر ، ما يزال في
مسودته غير كامل وغير مرتب وفيه
تشطيب كثير تارة على العبارة وتارة على
الصفحة كاملة . وعلى حواشي الصفحات
تعاليق أحياناً للمؤلف نفسه وأحياناً لغيره ،
وهو في حوالى 165 صفحة ، ويحتوى على
حوالى مائة ترجمة غير متناسبة الطول .
ففيه الترجمة ذات الثلاثة سطور مثل
الشيخ سيد أبو عماشة ، وفيه الترجمة
ذات الصفحات الطوال مثل الشيخ حـ من
القطار . ومن بينها أسماء مغمورة لا تكاد
تجد لها ذكراً في كتب التراجم ومن أخذ
حظه من الشهرة مثل ابن العناني الجزائري .
وفيه تراجم الأدباء والعلماء والأعيان ،
والمصوفة . وفيه بعض غلمان محمد بن
وضباطه وبعض أهل الفتوى والطب والأدب .

(1) كان محمد عارف متزوجاً من 'أخت المؤلف . ومن الصدف أن هذه السيدة قد توفيت سنة وفاء
أخيها (1280) ، وقد وجدنا روحها ، محمد عارف ، يشكو بعدها من الشكوى مما حل به ، وهذا نص
كلامه . إن عبد الحميد بك ، جامع هذا المجموع ، انتقل إلى دار الرحمة في سنة 1280 ، ثم أخته آمنة هانم ،
الشهيرة بمنيرة ، لحقته سنة 1280 ، وهي حريمي . . وتركنا على عوائل ناصبة بطرة ، فرأيت ما رأيت
بسبب تلك المهذومة (كذا) ، بضيق صدرى ولا ينطق اسانى . ص 83 من المخطوط .

(2) ص 112 من المخطوط .

(3) ص 161 - 164 من المخطوط .

تلخيص ما أورده عبد الحميد عن كل ترجمة محتفظين أحياناً ببعض العبارات المفتاحية في وصفه أو حكمه على شخصية المترجم ، ومن ثمّة فنحن لم نرجع إلى مصادر أخرى لتوثيق معلومات المؤلف عن كل شخصية . وقد كنا رجعنا إلى بعض التراجم في دراسات مستقلة مثل ترجمة الكبايطي وترجمة محمد بن محمود ابن العنابي (1) . وكنا نود ذكر ترجمة محمد عقل لعلاقته بالمؤلف وبالأدب ولكننا لم نَجدها ضمن الكتاب رغم أن عبد الحميد ذكر أنه ترجم لصاحبه في حرفي (م - ح) .

1 - أحمد راشد المصري :

ولد بالقاهرة سنة 1215 (1800) وأخذ العلم بالأزهر . وعمل بدواوين القاهرة بوظيفة كاتب ، وفي سنة 1544 (1828) حل بالإسكندرية وتوظف بدواوينها أيضاً وكان أثناء ذلك يشتغل بـتـحصيل العلوم

وفد ضم الكتاب عدداً من أهل مصر والواردين عاينها ، من الجزائر تونس ، والحجار والسمام ونحوهم ، وفيهم الأتراك والإيرانيون والهنود وأضرابهم . كما أن فيه من لم يخرج ربما من بلاده مثل حاكم تونس وحاكم المغرب الأقصى . فالكتاب إذن ليس خاصاً بتراجم المصريين ولا بتراجم المشرفيين ، بل شمل مجموعة من أعيان العالم الإسلامي مشرقه ومغربه . وقد أحصيت عدد التراجم المغاربية فيه فوجدت تسعة من المغرب الأقصى وتسعة من الجزائر ومئة من تونس .

(ج) بعض التراجم :

والتراجم التي سندكرها اخترناها أصلتها بالأدب ، لأن الكتاب يضم كما ذكرنا أعياناً من أهل الدين والسياسة والحكم والتصوف . وسيكون عملنا هنا هو -

(1) أصدرنا عن ابن العنابي كتاباً سنة 1978 . واستفدنا من ترجمة عبد الحميد له في ط . 2 المعدة للنشر وقد نشرنا ذلك في مجلة (حوليات جامعة الجزائر) (1988) . وكان ابن العنابي من أبرز علماء الجزائر عند احتلالها من قبل الفرنسيين . وقد حكموا عليه بالنفى فاستقر بمصر وتولى الفتوى بالإسكندرية وله تأليف منها (السعي المحمود في نظام الجنود) ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، الجزائر ، 1983 . وقد توفي ابن العنابي بالإسكندرية سنة 1850 .

الشيخ خليل الغزلات . قاضي الإسكندرية
عمد^(٢) .

نشأ أحمد المسيري في بيروت وحفظ بها
بعض القرآن ، واستكماله في طرابلس
الشام عندما انتقل إليها والده سنة 1233
(1817) وظل يتنقل مع والده بينها
وبين بيروت إلى أن توفي والده سنة 1239
(1823) فذهب إليه ناله الغزلات وجاء
به إلى الإسكندرية مع عائلته . وينقل
عبد الحميد عن محمد عاقل أن أحمد
المسيري اعتكف بعد وصوله إلى الإسكندرية
« على التحصيل والتلقين ، وبذل الجهد
في الفنون والتفنين ، إلى أن بلغ مناه ،
وكاد أن يكاتف في العلم أباه » . وأخذ
العلم على ناله المذكور ، ومحمد بن سليمان
العلاف ، وحسين الإدكاوي .

ثم دارت به أيدي الزمن وسافر إلى
القاهرة واحتمى بالمفتي محمد أمين المهدي
ومكث عنده مدة ، ودرس بالأزهر على

الرياضية وغيرها ، وأخذ يدرس ما مهر
فيه من هذه العلوم لبعض أخصائه . كما
تولى خليفة الطريقة الخلوتية .

تعلم علم الموسيقى علماً وعملاً على الشيخ
علي الصيرفي الصغير (الابن) ، وبرع
في آلة القانون البسيط . علماً وعملاً أيضاً .
« وألف فيها رسائل عدة » . ثم درس
اللغتين التركية والفارسية . وأتقن الأخيرة
حتى صار يتكلم بها كأنها^(١) . (وقد
ذكرنا هذه الترجمة هنا لصلتها بالموسيقى
لأن عبد الحميد ولع بها أيضاً وألف فيها)
ولم يذكر وفاته .

٢ - أحمد المسيري :

أحمد بن علي بن موسى المسيري ، نسبة
إلى بلدة بولاية البحيرة « الأديب الشاعر
والأريب الناصر » . ولد ببيروت سنة 1225
(1810) كان والده قد رحل إلى بيروت
عندما احتل الإنجليز مدينة الإسكندرية
سنة 1222 (1807) . أمه بنت خليل والد

(1) ص 41 - 66 من المخطوط .

(2) أطال عبد الحميد في ترجمة الغزلات . وكانت بن بعض علماء تونس والغزلات مراسلات وأشعار
انظر شعر محمد بن سلامة التونسي في خليل الغزلات في كاش رقم 16511 المكتبة الوطنية - تونس . وفي
هذا الكناش بعض أحبار محمد بن سلامة عندما ختم كتاب (الشفاء) للقاضي عياض .

لأنجاة له من الموت إلا بالشرب . ولكنه
« اختار الموت مع التوبة على الحياة ،
والأوبة » وقد مات في الإسكندرية -
عام 1268 (1851) عن 43 سنة وقد
توسع عبد الحميد في أخبار المسيري كما
رواها له محمد عاقل . سيما أخبار المسيري
في الحجاز مع حاكمه أمين باشا وعلاقته
السيئة بأهل عسير واستنحاده بالمسيري
ايعمل له زاييرجة في ذلك . وروايات خاله
الغولات عنه .

ثم أضاف عبد الحميد معالومات أخرى
عن المسيري حول أدبه بالذات فقال إنه
كان « من نوادر الدهر » علماً وأديباً ،
وأن عدداً من الأدباء انتفعوا به ، وجاء
بجملة « من غرر نظمته ونثره » فأورد
قطعة في مدح بطرس كرامة التزم
لفظة (الخال) على اختلاف معانيها :

لبطرس إبراهيم آل كرامة

رسائل مدح في طلائعها الخال

ففي العلم والأفضال والمجد والاعلا

على أنه من أصل عصره الحال

له من رقيق النظم كل محرر

على تاجه بين الوري عقد الخال

حسن القويسي ، ومحمد الأمير الصغير ،
ومصطفى البولاتي وأجازوه ، وصار
« في العلوم خزانة . وفي الأدب ريحانة »
واختص بالشعر والخطابة ، وملك أعنة
النشر والكتابة ، واشتغل مصححاً للكتب
في المطبعة البولاقية .

ثم دارت به الأيام مرة أخرى . فخرج
إلى الصعيد ، وانضم إلى العسكر فسير إلى
الحجاز ، « يتأطى حرق الجوى ، ويتأوه
من النوى » ، ثم رجع إلى مصر وتوظف
في الدواوين ، ولكنه سرعان ما ترك
الوظيفة « واشتغل بالعلم والآداب والمسامرة » .
وكان سريع الفهم ، حاضر البديهة « طالما
نظم المائة بيت محاضرة بلا محاضرة » .
ولذلك ضاع أكثر شعره ، وقد جمع حبران
المخلع بعض أقواله من أوراق ممزقة في
(مجموع) جاء نحو عشرين كراسة .

وقد اشتهر المسيري بالخلاعة والفكاهة

بين الناس وابتلى بداء الإفرنجي (؟)

فكان يشرب الخمر ثم أقبلع عنها ، واختلى

بنفسه ، وتخلي عن مجالس أنسه ،

ثم رجع إليه المرض وحكم الطبيب بأن

وروى له قطعة أخرى التزم فيها لمظة
(سلامه) :

سلا القلب عن طي لا يبيح سلامه
فتمل لعزول قال غنى سلامه
لئن كنت راودت السلوفلاو فت
حسنة قلبي في هواه سلامه

٣ - على الصيرفي :

على الصيرفي بن أحمد الرشيدى ، من
الأشراف . ولد برشيد سنة 1170 (1756)
ونشأ بها ، ثم توجه إلى الأزهر ، وتخرج
منه في المعقول والرياضيات . ورجع إلى
رشيد بعد المائتين للإقامة والتدريس .
وقد اشتهر بمهارة واسعة بالعلم والغنى والجاه
لدى الحكام .

قال الصيرفي الشعر ومارس الإنشاء ،
وتعاطى العاوم الرياضية ، واشتهر في
ذلك حتى في الشام . ولما سمع به أحمد
الجزار استقدمه إلى عكا ، سنة 1220
(1805) واستفاد منه الميقات والرمل ،
والحروف ، وأقام لديه خمس عشرة سنة .
ثم رجع إلى رشيد وتولى بها نقابة الأشراف
وقد ظل بها يدرس ويفيد إلى وفاته
سنة 1238 (1822) .

ولعل الصيرفي ديوان شعر أخذه مفتى
اسطنبول عارف حكمت ، أثناء مروره
بمصر للحج ، أخذه من ابنه محمد الصيرفي
« وله الشعر الدقيق والإنشاء الرقيق » .
يتناقل الناس شعره ، وقد شطر البردة
وسمى التشطير (المواكب البدرية في
الكواكب الدرية) . ومن شعره :

ألقى يديه على صدرى فقلت له
أبرأت منى مكانا أنت موجهه
وله في الغزل :

غزال جعلت الروح رهن وصاله
فلا الوصل أعطاني ولا رد لي رهني
غدا مالكي لكن نعمان خـ
قضى في دمي سفاكا ولا شافعي يغني
يظن بأنني في الهوى غير ثابت
فيقطع في قلبي ويحكم بالظن
ومن تشطيره للبردة :

أمن تذكر جيران بذي سلم
أطلت سهدك في حزن وفي ألم
أمن تباعد أحباب وفرقتهم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

فهيجت نار وجد زائد الضرم

وله قصيدة طويلة طرز في أوائل أبياتها

اسم (الشيخ عبد الرحمن إبراهيم

الخضري) ، ومنها قوله :

لا زلت أخفى الهوى والدمع يظهره

وهل رأيت كشيئاً قط يخفيه

شأن عجب فحمر الشوق متقد

على الدوام وما دمعى بمُطفئيه

* * *

هذا الكتاب الذي يثلى فيه جزم من

يأتى بمثل له أو من يضاهيه

يا كاسي الحظ حظاً أنت لا يهده

وكل فضل بفضل أنت كاهيه

ما لي جواب سوى عجزى ومعدرتى

إليك فاقبل فحجز العبد كافيته

ألفاظه مسحوت عقلاً نقارته

ما روت من سحر هذا لا يماريه

والصير في ابنه : دلي ومحمد . والأول

شاعر أيضاً ، خير أن نثيرة أبيه طغت

عليه حتى إن شعره ينسب إلى أبيه أحياناً .

4 - محمد أمين الزلى :

محمد أمين بن حبيب بن أبي بكر بن

خضر الزلى . المشتهر بأمين أفسدى الزلى .

ولد بالمدينة المنورة ونشأ بها وأخذ بها

النام عن الواردين عليه من علماء الأطراف .

وتكون هناك في المتقول والمنقول والرباضيات

« و غلب عليه الأدب فنظم ونثر وتفرّد

فيهما » .

طاف الزلى العراق والشام ومصر والروم

واشتهر هناك . وله مراسلات ومحاورات

مع أدباء الآفاق . وقد جمع حولهم كتاباً

السماء (المجمع الأدبي) لم يخرج منه من

مودته . وله كتاب آخر في تراجم -

المتقدمين ، والمتأخرين من العلماء والأدباء

والأعيان . مات قبل أن يرتبه « نقلت منه

جملة من تراجم أعيان القرن الثاني عشر

في تاريخي الذي رتبته فيه ، والثالث عشر

هذا » .

وجاء الزلى إلى مصر مراراً . واجتمع

بأعيانها وعلمائها ، وحصلت بينه وبين

وإلى لز نظمت الرهر في كاسي
ما كست مشاك بالانفان مشتهرا
وتتد ترجمة الرلى من صمحة 126 إلى
131 . وفيها قطع وفصائد معظمها في
العرل

5- محمد كاشف البخارى :

محمد بن محمد عبد الودود بن محمد
عبد الغفور بن محمد فاروق . أخبر المؤلف
أنه بلغه أن فاروق هذا قد أوصى بتسميته
عقبه إلى ما شاء الله بمحمد . فوصل العقب
إلى محمد عاقل (صديق المؤلف) وهو
الرابع من عقبه بهذه التسمية .

ولد محمد كاشف (المشتهر بكاشف
أفندي) في خوجند من أعمال القوقاز
سنة 1192 (1778) ، قرأ هناك القرآن
ثم أرسله والده إلى بخارى كمادة أهل
تلك الناحية مع أولادهم . وقد أخذ العلم
على ميرزا عبد الغفار ، والطريقة النقشبندية
على ميرزا رجب بابا إيشان المتوفى بمصر
سنة 1232 (1816) .

وبقي محمد كاشف في بخارى إلى وفاة
والده سنة 1220 (1805) ، ثم اختلف

الأديبين أمين أفندي المجدى الحمصى
وبطرس كرامة مجاورات أدبية وآخر
وروده على مصر متسكياً (ترك المؤلف منه
فراغاً أكثر من نصف صمحة)

جاء ذكر الزلى في (حديقة الأفراح)
لأحمد اليمنى الشروانى إذ قال عنه . صاحبنا
الذى اجتمعت به عام 1222 (1807) في
محلة وقد أشاد به . وذكر له قصيدة
طويلة في العرل مطلعها :

لاح الصباح براية بيضاء
وسطا فمترق عسكر الطامع
والروضة الغناء قام هزارها
يشدو فاشجانا بطيب عناء

وله من قصيدة أرسل بها إلى أحمد
اليمنى الشروانى :

حزت المحاسن جمعاً والمعادن في
الآداب فرداً فما أبقيت للشعرا
ما شام مثلك في بدو وفي تحضر
من طاف طول الزمان البدو والحضر
دعوى فيك عليها حجة ظهرت

من نظمك العذب يا من نظم الدرر
سرفتنى ببيان دون صنعته

نظم البديع ومعنى يهجل الزهرا

أعني وعميرها من الماصب إلى أن وصل
إلى بطانة المدرسة البحرية بالإسكندرية .
وقد توفي سنة 1268 (1851) عن 68 سنة .
وترك بالإسكندرية أملاً كاملاً وعقاراً .

كان محمد كاتب شاعراً ماهراً بالفارسية
والتركية والعربية . كما حلق الإنشاء .
ومن شعره :

دع كثرة الفكر في أمرهم به
وخل سبيل القضاء يجرى على قدر
ونم حلماً من الأفكار مسترحاً
فكثرة الفكر تبدى شدة الخطر

ومن إيشانه تقريره لترجمة (كلستان)
لسعدى⁽¹⁾ . التي قام بها جبران المخلع من
الفارسية إلى العربية . ومن ذلك قوله :
« أزهار حمد تزهر في رياض الجنان
على مدى الأزمان ، وتمازى شكر يقتطفها
بنان البيان والأركان ، وجداول ثناء
متسلسلة لا ينقطع مددها من ينبوع -
الأذهان ... »

أما بعد ، فإن كتاب كلستان روضة
منتقاة من شوك الشوائب ووردها ، مدبجة

مع عمه حول تركة والده فحج عن طريق
مصر سنة 1221 ، وبعد الحج رجع إلى
مصر ، والتقى فيها بالشيخ عبد الحكيم
قراني بابا (وهو الشيخ الذي أقرأ أيضاً
والد المؤلف) ، وكان شيخاً على تكايا
البخاريين بوقف البساطي ، فتنازل له عن
مسيخة التكايا . فتولاها واتمغل
(محمد كاشف) بالمطالعة . وفي سنة
1229 (1813) اختار محمد لظاعلي -
خوذة له . ليعلمه الفارسية إلى سنة
1232 (1816) . ثم عينه الوالي محمد
علي رئيساً على خوجات علمانه في إسما
إلى 1239 (1821) . وبعد سنة واحدة
ررق بابنه محمد عاقل .

وعين محمد كاشف مصححاً للكتب
الفارسية والتركية بمطبعة بولاق إلى -
سنة 1241 (1825) . وفي هذه السنة
أرسله محمد علي إلى إيران ليتجسس له
على أحوال دولتها هناك بإشارة من الباب
العالى ، فتوجه محمد كاشف إلى إيران
ماراً بدمورية . وبعد سنة رجع إلى مصر ،
وعينه الوالي محمد علي على مدرسة قصر

(1) من الدين قرطوا هذه الترجمة أيضاً محمد ابن العنابي الجزائري ، كما ذكر عبد الحميد في ترجمته له .

العطار ، وإبراهيم الرياحي التوني أثناء
مروره للحج وفي سنة 1264 (1847)
حج مع والده ، ورجع إلى الإسكندرية
فأقام فيها واشتهر بالشعر ، وجرت بينه
وبين أدباؤها محاورات . ولكن المنية وافته
في ريعان شبابه سنة 1274 (1857) عن
25 سنة وتسعة أشهر ، فكان ذلك سكباً
كبرى على والده .

ويحبر عنه عبد الحميد أنه كان «حاذقاً
ذكياً متكلماً» . ولم يذكر له وظيفة
تولاها ، وجاء له بشعر غزير . فممنه في
مدح أحمد بك صادق :

دم في زمانك أنت وحدك صادق
حامى الدثار ودون مجدك طارق

وكتب إلى أبيه أثناء غيبه عنه رسالة
صدرها ببیتين :

ولو لم يكن عندي بقايا تجلّد
لجبت إليكم قد فداً بعد فدا

وسابقت أفراس الرياح بهمتي
وحدثت نفسي أن أمد لكم يدي

وبعث إليه برسالة أخرى وصدرها أيضاً
ببیتين ، ولكن نشر الرسالتين غير مذكور

بألوان اللطائف خدودها .. جمعت بين
أخلاق المقراء وسير الماوك . وأبدعت
تمائل السلاعة . بما أودعت من أصائل
البراعة ... إلخ » . وهو تقرّظ طويل
كتبه سنة 1259 (1843) .

وقد علق المؤلف (عبد الحميد) على
ذلك بقوله : إن المقرّظ كان يتقدح في
الترجم بعبارات أوردتها ، فيها تعريض ،
ولكنه مع ذلك عذره في قدحه ، لأن الفرع
في نظر عبد الحميد ، لا يمكن أن يرقى إلى
الأصل ، وقال : إن من اطلع على الفرع
والأصل (النص الفارسي والترجمة العربية)
يظهر له « التضاد بينهما » . ومن هذا
التعليق ربما يظهر المدارس أن عبد الحميد
كان يتقن الممارسة ، كما أشرنا .

6 - محمد نوار الاسكندري :

محمود بن عبد الله نوار ، أصله من
الحجاز ، ولد بالإسكندرية سنة 1248
(1832) . ونشأ بها وحفظ القرآن ،
ودرس العلوم العقلية والنقلية على والده
وعلى المعاصرين له من العلماء بالإسكندرية
وكذلك بالأزهر حيث كان والده محاوراً
به ، فكان من مشايخ محمود الشيخ حسن

وله قصيدة طويلة في العتاب بعث بها إلى
الشيخ حسن اللقاني :

أعيدى على الكأس شممولة خمرا
فالحاظك الوسنى تعلمنى السكر

وجاء فيها قوله :

سلوا من قوام البان جرح فؤادهم

مقدمة كبرى اذا سلموا الصغرى

كما يعرج المولى بمبضع ضده

شرايين ودى ثم لا يحسن الجبرا

بروحى من يعفو ويهزم تارة

على مثله يحنى ويحتسب الأسرا

كبير أناس يستخف بأنفس

لتكبر لكن نفسها تكره الكبرا

وما شأن مثلى موسر من جفائه

سوى أنه لله يجنب العسرا

وله قصيدة أخرى أرسلها إلى نفس

الشيخ جاء فيها :

إذا جن ليل العاشقين فأقبلى

إلى مستهام عند دار ابن مقبل

تواضعت أحيانا فلم يجد نفعه

ورحت بأعباء الصبابة مبتلى

وعربدت أياما فضيل بي الهوى
وأرت بأعجاز وعدت لكل كل

* * *

همام له مجيد يلوح وهمة

تنفوح بنشر من شدا طيب همدل

وفهامة صاخ القريض بنمطنة

وعلامة يزهو على تخير أمثل

وتغزى له ذات العـلوم وتنتهى

ويعنو له المعلوم فى أى محفل

لعمرك إني ما كذبت وإنيـا

ذكرت لكم قدرا ولم أتوغل

إليه انتهى فى الشعر كل بدبعة

تروق وتجلو ضمغن أزمة معول

فخذها مسجاة بأحسن حلة

فأنت لها كفء تكرر بمغزل

وشد عليها بالنبال وقل لها

إذا جن ليل العاشقين فأقبلى

٧ - مصطفى أبو الفضل :

ينتهى نسبه إلى السادة الوفاية . ولد

بالحواتر بولاية الدقهلية سنة 1228 (1813)

وجاء إلى الإسكندرية مراهقا . وهناك كفله

على بك جنينة ، قاضى الإسكندرية ورباه

وأقرأه القرآن وعلمه الكتابة ثم ألحق

بكتبة المحكمة إلى أن صار هو رئيسهم .
و أكثر من محالطة شعراء الإسكندرية حتى
تصبح من أبرز الشعراء .

وانهمك في اللذات والحلاعة مع صديقه
أحمد المسيرى حتى يرد ما عنده من أملاك
ومتعنيات .. وخاف افتصاح أمره بين
الناس وسافر إلى القاهرة . واشتد به
الفقر فأتفق عليه بعض إخوانه هناك .
وفتح له دكاناً يبيع فيه الأقمشة . ثم
تعرف على بعض الأعيان فعينه قاضياً في
مدينة رشيد . وتحسنت حالته المادية .
ونكحه عزل من القضاء سنة 1270 (1853)
فرجع إلى الإسكندرية وإلى ملاذه وخلاعه
فيها إلى أن ضاع منه كل ما جمعه أثناء
ولايته القضاء . ولما ضاق به الحال افتتح
دكاناً يرتزق منه بالنساخته . وقد قال
عنه :

يـ سألني عن حالتي من بعد ما
قد كنت من أهل الفتوة والهمم

ما حال عان مشزو بمكانة
يستحلب الأرزاق من شق القلم

وفي سنة 1271- توفي بالسل أثناء رجوعه
من مؤنة السيد البدوي . عن 43 سنة .

كان « أديباً . شاعراً منشئاً . وكان
في أوقات فاقتة واحتياجه حريصاً على
اقتناء كتب الآداب وممارسة الظرفاء
والأدباء » . وقد وجد عنده بعد وفاته
ما يسيف عن 160 مجلداً في الأدب . وله
شعر في مدح آل البيت ، وفي التوسل
بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وفي التحسر
على ما فات . وفي الغزل والوصف . وقد
قال في التحسر :

العين قرحى ونار القلب تتقد
والوجد قام ولا صبر ولا جلد

يا ليت شعري وهل للوصول من أمل
وهل تعود ليال عيشها رغد

تلك الليالي التي ما كان أجملها
درت كأصغات حلم ليبتها تعـد

وقال في الربيع :

إذا اخضر روض فيا حيدا
ثغور أقاحيه تبدى ابتسام

ياد لقاب الشـجى عندها
سماع الأغاني وتسرب المـدام

ويا حسـذا الوقت من سـاعة
جديع محاسنه في انتظام

والمغرب في القرن الثالث عشر) . وهذه
هي بعض التراجم الأدبية أو المتصلة بالأدب
الواردة فيه . ونحن عاملون على تحقيق
هذا المخطوط الخصب في معلوماته المتنوع
في شخصياته ، رغم عدم استيعابه وإحاطته
لوفاة صاحبه في تسببه وقيل إتمامه . ونحن
نحسب أن المخطوط ما يزال بكرة . فإن
سبقنا الغير إليه بالتحقيق أو بالتعريف
وحسبنا منه الجهد الذي بذلناه في استجلايه
وتصويره ، والعلم الذي استقيناه من
صفحاته وسطوره .

وفوق كل ذي علم عليم .

أبو القاسم سعد الله
عضو المجمع المراسل (من الجزائر)

وذكر له عبد الحميد - النموذجيين في
الإشياء الأدبية ، أحدهما استدعاء بعث به
إلى صديقه أحمد المسيري إلى خان بروص
والآخر رسالة بعث بها من رسيد إلى الشيخ
محمد عاقل ، أثناء ولايته القضاء بها ،
وكلا النموذجيين في غاية الرقة والسلاسة
بأسلوب ذلك الوقت . وأضاف عبد الحميد
غوله عنه : « وشعره وإنشأؤه كثير تناقله
أهل الإسكندرية » . وقال : إن له (ديواناً) -
وجد بتركته وكان « أكثره محوفاً -
وخمریات » . ولما أطلع عليه أخوه ،
وكان متصوفاً ، مزق الديوان ولم يترك
منه « إلا ما في المجاميع وصدور بعض
الناس » .

خاتمة :

هذا هو مخطوط عبد الحميد بك الذي
قد يصادق عليه عنوان (أعيان من المشرق



آراء ابن جني

في تضعيف كتب الشريف الرضي

للدكتور حسين علي محفوظ

كان الرضي تلميذ ابن جني وصه - مديقه
 وكانت بينهما مودة أكيدة . وحلقة
 متقدمة . وأسباب جامعة . وقد قرأ عليه
 ضوياً . واستمد منه كثيراً . وكان هو
 شوق الصلاة عليه قبل دمه .

قرأ الرضي على ابن جني . وتعلم منه ،
 ونقل آراءه في كتبه . وقد أطراه وأثنى
 عليه في كتاب تلخيص البيان . ووصفه
 - مستباط الخبايا . واستطلاع الخفايا .
 قال : « كان - عما الله عنه - كثير
 الاستباط للخبايا . والاستطلاع للمحميا »
 وقال في كتاب حقائق التأويل : « وكان
 [ابن جني] يعنونه به التعلل في استباط
 معنى . والترويج إلى عامياتها . والغوص
 على قراراتها إلى أن يورد مثل هذا الذي
 ربما خلدش به فصله الذي لا مغمز فيه ،
 ولا مطعن عليه . ومع ذلك فهو في هذا
 العلم السابق المسوم ، والأول المقدم ،
 والبحر الحميم ، والدليل المأموم » .
 ووصف أقواله واستباطاته ، فقال :
 « وهذا - أيضاً - من الأقوال الغريبة ،
 والاستنباطات اللطيفة » .
 وقد قال ابن جني في كتاب الرضي
 (حقائق التأويل) هذا : « صنف الرضي
 كتاباً في معاني القرآن الكريم يتعذر وجود
 مثله » .

عبر الرضي عن ابن جني بلفظ شيخنا
 في كل المراتن ولقبه « شيخنا وصديقنا »
 مرة في الكلام على إراغة القارب .

(٥) التي حدثت في الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر المعقود يوم الأحد ٧ من شعبان سنة ١٤١٠
 هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

بها الصباي . وقد سماه ابن النديم كتاب
تفسير المراثي الثلاث . والقصيدة الرائية ،
ولا ندرى ماهي !

وقد رثى الرضى أمتاذه ابن جنى - وقد
توفى ببغداد ، ليلة الجمعة ، لليلتين بقتين
من شهر صفر ، سنة ٣٩٢ هـ ، بقافية أولها :

ألا يا لقوى للخطوب الطوارق
وللعظم يُرمى كل يوم بعراق

وهي في (٥٩) بيتاً . قال فيها ، مما يوضح
أعماق الصداقة والمودة بين الرجلين :
شقيقى إذا التاث الشوق وأعرضت
خلائق قوى جانباً عن خلائقي

* * *

وفارقتى عن خلة غير طرقة
تضمنها صدر امرئ غير ماذق
(تروق ماء الود بينى وبينه
وطاح القذى عن مسلسل الطعم رائق)

أشار الرضى إلى ابن جنى في بعض كتبه .
فقد ذكره مراراً في المجازات النبوية ، وفي
تلخيص البيان ، وفي حقائق التأويل .

وفد فسر (الأمتاذ) ابن جنى قصيدة
الرضى الرائية التي رثى بها أبا طاهر إبراهيم
ابن ناصر الدولة الحمداني . وقتله أبو الدواد
العتيلي ، في المحرم سنة ٣٨٢ هـ « وهذه
القصيدة فصيح الألفاظ ، كثيرة المعاني .
فسرها ابن جنى في حياة رضى ومدحه
لأجل ذلك » ، ومطلع القصيدة :

ألقى السلاح ربيعة بن نزار
أودى الردى بقرىعك المغوار

وهي في (٥٩) بيتاً .

وقصيدة الرضى في مدح الأمتاذ ابن جنى
أولها :

أراقب من طيف الحبيب وصلاً
ويأبى خيال أن يزور خيالاً

وهي في (٣٥) بيتاً ، قال فيها :

وأكبر همى أن ألقى فاضلاً
أصداف منه للغليل بلالاً

ولابن جنى تفسير العلويات ، وهي أربع
قصائد للشريف الرضى ، كل واحدة في
مجلد . وهي القصيدة التي رثى بها أبا طاهر
ابن ناصر الدولة ، والقصيدة التي رثى بها
الصاحب بن عباد ، والقصيدة التي رثى

وقال في الحديث (٩٤) في قوله عليه الصلاة والسلام للرحل الذي قال لبعض الصحابة . « إن فتح الله عليكم الطائف » . فقال عليه الصلاة والسلام . « لقد غلغت النظر يا عدو الله . . . » .

روى لما أبو علي . . الفارسي ، في كتابه الموسوم بـ (الإيضاح) إجازةً ، وأنشدناه الشيخان أبو الفتح وأبو الحسن النحوي ملافة قول الشاعر :

طالين ركديون وأشعرن كرة

فهو إضـاء صافيات الغلائل
وقال في الحديث (٢٠٠) في قوله عليه الصلاة والسلام . « ما رل من القرآن آية إلا أولها طهر وبطن ... الحديث » وأنشدنا أبو الفتح النحوي - رحمه الله - قول الشاعر :
أما ترى قالبا معني

أقاب أمرى ظهره للبطن
قد قبل الله زياداً عنى

وكان [ابن جني] رحمه الله يقول : في :
قوله : (قد قبل الله زياداً عنى) سر لطيف
وهو أنه أقام قبله مقام عزله فكأنه قال
قد عزل الله زياداً عنى ، لأنه إذا قبل فقد
زال ساطاه ، وأمنت سوطاته

ونقل بعض أقواله وآرائه ، وروى عنه بعض
المؤلفين . ذكره في المحازات النبوية (٦)
مرات .

قال في الحديث الثاني عشر . في الكلام
على الفصاحة العجيبة في قوله عليه الصلاة
والسلام - وقد تذاكر الناس عنده أمر
إطاعون وانتشاره في الأمصار والأرياف -
« إن أَرَجو ألا يطلع إلينا نقابها » . يعنى
نقاب المدينة .

ركب شيخنا أبو الفتح النحوي - رحمه
الله - يسمى هذا الجنس « شجاعة الفصاحة »
لأن الفصحى لا يكاد يستعمل إلا وفصاحته
جريدة الحذان ، غزيرة المواد .

وقال في الحديث (٣٩) في قوله عليه الصلاة
والسلام لأرواجه : « أسرعكن لحاقاً بي
أطولكن يداً » .

وقد جاء - أيضاً - في جمعها (أى جمع
اليد التي هي العطية) يدي . أنشدنا شيخنا
أبو الفتح عثمان بن جني . وأظله من أبيات
الكتاب :

ولا أذكر النعم - إلا بصالح
فإن له عن - يدى يدياً وأنعم

وذكره في تلخيص البيان خمس مرات .
قال في الآية (٨٧) من السورة التي تذكر فيها
التوبة ، في الكلام على الخوالب أن يكون
الخوالب ههنا جمع فقرة خالعة وكست
أسـ جمع شيخها أبا الفتح عثمان بن جنى
النحوى رحمه الله يقول ذلك . ويذهب إلى
مثله أيضاً في قوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم
الكوافر » . ويقول : هي جمع فرقة ككافرة
إلا أن الكلام يكون على القول الأول استعارة
ويكون على هذا القول حقيقة

وقال في الآية (٢) من السورة التي يذكر
فيها السحل ، وكان شيخنا أبو الفتح عثمان
ابن جنى - رحمه الله - يقول : معنى قولهم
في القسم (لعمر الله ما فعلت ذلك)
أو (لأفعلن ذلك) إنما يريدون به القسم
بالحياة يُحييها الله ، لا بحياة يحيا بها تعالى
الله عن ذلك علواً كبيراً ، فكأن المقسم إذا
أقسم بهذه الحياة دخل ما يخصه منها في
جملة قسمه . وجرى ذلك مجرى قوله :
لعمرى . فيعبر مقسماً بحياته التي أحياء
الله بها والعمر ههنا هو العمر ، ومعناه
الحياة . فكنت أستحسن هذا القول منه
جداً . وله نظائر كنت أسمعها عند قراءتي

وقال في الحديث (٢١٦) في قوله عليه
الصلاة والسلام : « اللهم إنا نعوذ بك من
الآبِهيْن » ، ومثل تسميتهم الشيء آبهماً إذا
كان على الصفة التي ذكرناها (أى للشيء
لا يملك دفعه ، ولا يستطاع رده) ما أوردناه
شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى رحمه
الله . وأظنه من أبيات الكتاب (أى كتاب
سهيويه) :

ودامية يتقيها - ا - الرج - ا

ل مرهوبة الحد لا فالها - ا

قال : والمراد بقوله : (لا فالها) أى ليس
لها جهة واحدة تتقي منها ، كما يتقى
الحيوان العادى من جهة أنيابه . أو ناحية
أظفاره بل كل جهاتها محذور ، وكل
نواحيها مخوف .

وقال في الحديث (٣٥٤) في قوله عليه
الصلاة والسلام : « من قعد في مصلاه ، حين
يصلى الصبح حتى يسبح الضحى . . . في
حديث طويل » . ومن الشاهد على ذلك
قول ذى الرمة . . . وأبين من هذا قول الآخر
وأوردناه شيخنا أبو الفتح النحوى
رحمه الله :

قالت له وارتفعت ألافى

يسوق بالقوم غزالات الضحا

عليه . وكان - عفا الله عنه - كثير الاستنباط
للخبايا ، والاستطلاع للخفايا .

وقال في الآية (١٥) من السورة التي يذكر
فيها طه عليه الصلاة والسلام ، قال 'لى ،
وأنشدنى أبو على منذ أيام بيتاً هو من أنطق
الشواهد على الغرض الذى رمينا إليه . وكان
سماعى ذلك من أبى الفتح رحمه الله وأبو على
الفارسى معنا فى الزمان حينئذ باقى لم يمّت .
والبيت ، وهو قول الشاعر :

لقد علم الأيقاظ أخفية الكرى

ترججها من حالك واكتحالها

وهذا البيت أنشدنيه أبو الفتح النحوى
عن أبى على الفارسى على قوله : (ترججها
من حالك واكتحالها) .

وقال فى الآية (١٨) من السورة التي
يذكر فيها لقمان ؛ وقال شيخنا أبو الفتح
عثمان بن جنى أنشدنا أبو على الفارسى هذا
البيت ، أى :

تراهم إذا ما جثتهم فكأنما

يشيمون أعلى عارض متراكب

وقال : يصلح أن يجعل فى مقابلة قوله

تعالى : « وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ
الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفَى » .

البيت فى صفة المتكبرين بالغيرة . والآية
فى صفة الخاضعين بالذلة . وهما فى طرفين .
وسبباين مختلفين .

والبيت المتقدم ذكره ، أنشدناه أبو الفتح
عن أبى على على ما ذكرته .

وذكر الشريف الرضى شيخه وصديقه
ابن جنى مراراً فى (حقائق التأويل فى مشابه
التنزيل) . وقد بقيت قطعة من بعض
مجلداته .

قال فى الآية (٨) من السورة التي يذكر
فيها آل عمران ، وكان شيخنا وصديقنا
أبو الفتح النحوى يقول : أما قولهم عور
وحول فالأصل فيه أعرر وأحول لأن جميع
نظائره كذلك . ولأن العور والحول أدخل
فى باب الخلقة من الألوان . وليس يقال فى
الألوان حمر ولا سود . فدل ذلك على أن
أصل حور وحول التشديد ، والأصل أولى
بهذه الأشياء .

* * *

وقال فى تزيين حب الشهوات فى الآية (١٤) ،
من السورة التي يذكر فيها آل عمران :

العباد جميعاً في قبضته وملكته - : وقد
تقدم ما حكيناه عن شيخنا أبي الفتح
النحوي من كلام في قوله تعالى . « فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَنَزَّلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ
السَّمَاءِ » الآية ٥٩ في البقرة ، وهو قوله :

إنما كرر تعالى ذكر الذين ظلموا ولم يقل
وأنزلنا عليهم . لأن ذلك أشد مبالغاً في
ذمهم ، وأدخل في باب التفتيش لذكرهم
ولأن إظهار اسم المستحق للعقاب مع الإخبار
بوقوعه به أبلغ من إضماره . وأجلد بخوف
الخائف من مشاركته في وجه استحقاقه .

وقال في « كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ » في الآية (١١٠)
وأنشدنا شيخنا أبو الفتح النحوي في مثل
ذلك .

سراة بى أبي بكر تسامى
على كان المسومة العرب

يقال في فصل النظر عندنا غير الرؤية :
في رؤية الموت . في الآية (١٤٣) من السورة ،
وأنشدنا شيخنا أبو الفتح :

فيأى 'هل يجرى بكائى بمشاه
مراراً وأنفاسى إليك الزواقر

ومما يجرى هذا المحرى ما عسره لنا شيخنا
أبو الفتح عثمان بن جنى - عند القراءة عليه -
وقد مضى قول الشاعر (وهو الأفضل) في
تشبيهه الناقة بالحمار الوحشى :

كأنها واضح الأفراب في لتح
أسمى بهن وعزته الأناصيل

قال . أراد بقوله . (أسمى بهن) ، أى
ركب بهن السماء وهو يعنى بهن الحمار
وأشبهه . وهذا مثل قولهم . أعبر وأتهم .

وقال في أحد ميثاق النبيين في الآية (٨١)
من السورة ، وقال لى شيخنا أبو الفتح عثمان
ابن جنى ، عند بلوغى عليه في القراءة من
كتاب الإيضاح لأبى على الفارسي إلى باب
المصادر - وفد مضى في أثنائه ذكر هذا
البيت - أى قول الشاعر :

أمن رسم دار مربع ومصيف
لعينيك من ماء الششين وكيف

فقال . كأن الشاعر قال : أمن إن رسم
دار مربع ومصيف بكيث لها . فالمربع .
والمصيف فاعلان في المعنى .

وفال في معنى رجوع الأمور إلى الله - وهى
غير خارجة عن سلطانة وقدرته ، وتقلب

وإني متي أشرف من الجانب الذي

يه أئت . من ديس الجوانب باطر

قال : وكان يستشهد بهذا الشعر على أن الروية غير النظر . ويقول : لو كان النظر بمعنى الرؤية لم يطلب الشاعر عليه الجزاء ، لأن المحب لا يستشيب على النظر إلى محبوبه ثواباً ، ولا يستجرى عاياه جراءة .

، قال في معنى قوله تعالى : « فَاكْبَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » في الآية (٣) من السورة التي يذكر فيها النساء . وفي أن من سمع الكلام على هذه المسألة تبين الفرق بين قولهم (اللائي) بالياء ، و (اللاتي) بالتاء . وكان شيخنا أبو الفتوح النحوي - رحمه الله - يقول : إن اللاتي واللائي جميعاً جمعان للتي ، إلا أن اللاتي بالتاء المعجمة من فرقها للجمع القليل ، واللائي بالياء المعجمة من تحتها للجمع الكثير . قال : ومن الدليل على ذلك أن كل جمع يضارع واحدة من جهة من جهات المضارعة فهو أدل على ما قرب من واحدة في باب العدد

وقال في معنى قوله . « إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا » : وقد ذكر لنا شيخنا أبو الفتوح

عثمان بن جنى النحوي في ذلك وجهاً آخر . قال : (إن العادة قد جرت إذا مدح الإنسان أو تمدح أن يذكر أسلافه وقديمه وبيته ، وأوليته ، أو يذكر له ذلك . » .

وقال في معنى قوله تعالى . « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » في الآية (٤٢) من السورة : وعلى ذكرنا قول الله سبحانه . « وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَسُولًا أَخْرِجًا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ » . فقد كان شيخنا أبو الفتوح النحوي عمل في آخر عمره كتاباً يشتمل على الاحتجاج بقراءة الشواذ ناحياً به نحو أبي على المارسي في عمل كتاب المحجة ، وهو الاحتجاج للقراء السبعة . فقال فيه محتجاً لقراءة من قرأ في الزخرف :

« وبادوا يامال ليتمض عليما ربك ... » بالترخيم ، بعد ذكره وجزهاً في ذلك : يجوز أن يكون اتخذ ذلك على وجه الحكاية لكلام الكفار . وهم في أطوار العذاب لأنهم لسدة آلامهم ، وإطاسق العذاب عليهم قد ضعفت قواهم ، وخنفت أصواتهم ، وضعفوا عن تسميم اسم مالك عند بدائهم له ضعف أنفاس وخنفت أصوات فحكى سبحانه قولهم ذلك على وجهه

حسين على محفوظ

عضو المجمع المراسل (من العراق)

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - حقائق التأويل في متشابه التنزيل - الشريف الرضى .
- ٣ - تلخيص الميان في محاربات القرآن - الشريف الرضى .
- ٤ - المحازات النبوية - الشريف الرضى
- ٥ - ديوان - الشريف الرضى .
- ٦ - تقديم حياه الشريف الرضى - د . حسين على محفوظ .
- ٧ - الشريف الرضى ، « دراسات وأبحاث » / د . حسين على محفوظ .
- ٨ - الشريف الرضى . « مقالات » / د . حسين على محفوظ .



بين العام والأدب عندنا : برنخ لايبغيان للدكتور أحمد سليم سيدان

الكلمة المكتوبة أو المسموعة ، وهما
العامل من أجل مستقبل أفضل ، لنا ،
والإنسانية جمعاء .

وقبل أن أشرع بعرض ما أشكو منه
أستأذنكم أيها السادة بأن أعرض أمامكم
صورة من تضافر العلم والأدب في العالم
المتقدم :

غنى عن القول إن علوم اليوم هي صناعة
غربية . أجل إن جذورها عربية وإغريقية
وبابلية وفرعونية ، ولكن جذوعها وفروعها
وأغصانها وأوراقها وثمارها — كلها غربية —
وهي متطورة آخذة بالعلو والنماء ، ومفاتيح
تطورها كلها بيد الغرب . وهي كلما
أردادت نمواً ، زادت بعداً عن جذورها ،
كشجرة تنفاح تتركب على فروعها شتى
أشواك الفواكه ، فتؤتي ثماراً غير تنفاحها
الأصيل .

سأدنى الكرام^١

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قدري أن يكون أول حديث لي إليكم
شكوى . ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة
يؤاميك أو يساميك أو يتوجع ولكن
شكواي لا للمواساة والتوجع ، بل هي
دعوة لتأمل وتفكير يفضي إلى عمل جازم .
إنها الشكوى مما أراه عندنا من قطيعة بين
العلم والأدب تفصلي إلى مانعاني منه من
أزمة فكرية ، وجمرد ذهني في عالم متطور
متفجر يطلع كل ساعة بجديد ، في كل
من مجالات الفن والأدب والعلم والتكنولوجيا
في جميع دروب الحياة . والعلم والأدب ،
ابنان توأمان للفكر الإنساني ، طبيعتهما
وطبيعهما أن يكونا متضامنين متكافلين ،
يسند كل منهما أخاه ويغذي به ، سلاحهما

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الأحد ٧ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ

الموافق ٤ من مارس سنة ١٩٩٠م

في مررته . ونجد سائق التاكسي ورة
نسيت -- نجد كلاً من هؤلاء . له من العلم
المعاصر صيب . يحاربه في تطوره
وتفكره . يتلقاه في الكتب المبسطة ،
والصحف والشرائح . وفي الإذاعة والتلفزة
وعبارات عنصرية عارفين ينهمرون ما يقولون .
حتى أحدث الابتكارات العلمية والتكنولوجية
يحدث الحديث عنها . وعما يستطير من أثر
نها . على لسان الخاص والعام إن من قيم
الحياة في العالم المعاصر أن المرء المتقف
ينبغي أن يكون ملماً بما يحرق في حقول
العلوم من مستحدثات نظرية وتطبيقية .
أضف إلى ذلك أن العالم المتقدم يعيش
عصر صراع هو حرب حياة أو موت ، أداته
المفيدة صاحبة الغلبة المطابقة هي العلم .

مد الأربعينيات من هذا القرن . صرنا
نعيش عصر تفجر علمي رهيب . الخنمي
فيه أشد هولاً من الظاهر المرئي ، ولكن
العيون اليقظة والأذهان المتمتعة لا تلبث
أن تكشف كل خفي . وتحاربه بما هو
أكثر خفاءً ليس علم اليوم كمالياً من
الكماليات . وإنما هو ، كالماء والهواء ،

وعندما كان الغرب يتاقى علومه من
الكتب العربية ، كانت لغة الكتابة عنده
لاتينية ، وكان المتعلمون فيه هم القلة
التي تتقنها ، وكان أكثرهم . بل كلهم .
رجال دين . ثم تنبه العرب إلى ضرورة
إحياء لغاته ، البيئية . وجعلها لغات
كتابة . . وفي غضون ذلك كان إبداء
الفكرى اللدني قد بدأت دواكيره ، فقامت
بهضته الفكرية ، ثقافية كانت أم اجتماعية
أم سياسية ، أم أدبية - والعلم ركن هام
من أركانها ، فكان إن مصمت لغته المكثرة
في تلزرها مع تطوّر العلم . حتى جاءت
الآداب الغربية مجبولة بالعلم ، وهو الركن
الأساسي من أركانها ، والملمهم الأكبر في
تسريع إنتاجها وتطويره ، سعراً كان أم
فصحة ، أم فن رسم أم موسيقى . العلم في
الغرب طابع الحياة اليومية ، يرضعه الطفل
مع حليب أمه ، ويتلقاه في البيت والشارع
والملاعب والمطهي ، والصحافة اليومية بل
المدرسة . في الغرب نجد رجال القلم .
والأدب ، والصحافة والسياسة . والتاجر
في متجره ، والصانع في مصنعه ، والفلاح

يتركون الخيار للقارئ كى يسقى الكتاب
ذا جاذبية خاصة ، وكىلا يؤدي حجب
بعض الكتب إلى البحث عنها خلصة .

وعلى صعيد الإنتاج الأدبى :

نجد الأديب ذا رؤية علمية ، يدرك
اتجاهات علوم عصره ، وله فى قرارة نفسه
فلسفة علمية تقيّم الحاضر وتشارف
المستقبل ، فهو فى ما يبدع من أدب مكتوب
أو مسموع يخلق رخياله فيستطلع ما هو
حار وما قد يجرى فى المستقبل القريب
أو البعيد . وبذلك يوحى إلى زميله العلمى
بأفكار جديدة ، ويدفعه إلى مزيد من
البحث والاستقصاء ، حتى ليجعل من خيال
الأديب بالأمس وأوهامه بعضاً من حقائق
اليوم وعلومه ، فيدفع الجديد من حقائق
اليوم أديب الغد إلى جديد من الخيال ،
وجديد من الرؤى والتطلعات .

هكذا يتصافر الأديب والعالم فى العالم
المتقدم ، كل منهما يستند الآخر ويرفده .
ومع تطور العلم والتكنولوجيا يتطور الأدب
والفن ، حتى لتقام بين حين وحين معارض
لآداب الخمسينيات والستينيات وفنونها ،
فتقارن بما كان قبلها وما جد من بعدها ،
وما أبعد ما بين هذا وذاك .

والغذاء ، ضرورة من ضرورات الحياة .
والسلاح الأقوى من أسلحة الصراع .
لا يغير من الصورة ما صار يبدو اليوم من
انفراج بين أكبر قوتين فى العالم .

والدول المتقدمة همها أن تقيم تفاعلاً
قوياً مستديماً بين العلم والناس والعلم والأدب
والأدب والعلم الإنسانيات .

فعلى الصعيد الشعبى :

ما إن يتم إنحاز علمى ذو شأن . مما قد
يكون له أثر فى حياة الناس ، مثل كشف
طبي أو صناعى أو زراعى ، حتى تنبرى
وسائل الإعلام لنشره ، بأقلام خبراء
علميين تربويين ، فى الإذاعة والصحافة
والتلفاز ، ثم تصدر الكتب العلمية
المبسطة تريد البحث فيه تفصيلاً ، بطبعات
شعبية رخيصة الثمن .

وإذا ظهر كتاب قيم بلغة أجنبية : مما قد
يفيد الجماهيراً ، فلا يلبث أن يترجم ،
وينشر بطبعات رخيصة . وقد يكون النشر
سلاحاً ذا حدين ، فتظهر النشرات المفيدة
إلى جانب كتب اللهو والمجون . ولكن
النشر فى العالم المتقدم حر ، والقارئ هو
الذى يختار ما يرضيه . والمربون يعرفون
أن بعض الكتب تضر ولا تنفع . ولكنهم

زملاؤه . أما ماضيه فينظر إليه باعتباره صفحات مطوية في سجل حياته . إن يكن فيها بدائية قائمة ، وسطور معتمة : فتلك مراحل تجاوزها ، وبقي الماضي . بعيره وشره ، تراثاً يحافظ عليه ويصونه لأن فيه جدوره ومسببات حاضره وأمجاده . إن الفرق الحضاري بين ماضيه وحاضره يزيده ثقة بالنفس . وأملًا بمستقبل أفضل وتطلعاً إلى تحقيق أمجاد تضيف اسمه إلى قائمة الخالدين ، ما أكبر الفرق بين فكر المواطن في العالم المتقدم ، وفكر نظيره في العالم الثالث ! ذاك يتطلع إلى مستقبل أكثر إشراقاً ، وهذا يحنُّ إلى الماضي ، ويتبرم بالحاضر ، ويخشى المستقبل المجهول . كم أتمنى لو يتضافر العلم والأدب عندنا تضافرهما في الغرب .

وقد يحسن ، قبل أن ننتقل إلى وصف حال العلم والأدب في العالم العربي أن نلقى نظرة سريعة على العلم الغربي التخصصي على الصعيد العالمي ، المعروف منه للعيان ، ناهيك عن الخفي تحت ستار المجهودات العسكرية .

حتى اللغة يعثرها ما يعثرى العلم والأدب من تطور . إن اللغة أداة العلم والأدب ، تتسع إذا اتسعت آفاقهما وتضيق إذا ضاقت . إنها لغة الأمة ، ولها من ثم كرامتها وفداستها . ولكنها أيضاً لغة حية فهي من ثم مقطورة قابلة للانساع والنماء . إنها بحق مرآة حياة الأمة ، تعزُّ إذا عرت الأمة ، وتهون إذا هانت .

إن لعلم المتجدد يالهم الأدباء بقدر ما يلهم العلماء فينوعون إنجازهم ويزيدونه جاذبية ، مستندين إلى خلفية علمية صلبة . وهو قد يلهم غير المتخصصين بأكثر مما يلهم المتخصصين . فمن قبل أن يتكرر العلم سفن الفضاء وينزل العلماء أرض القمر ، وضع الأدب قصصاً تصف مثل هذه السفن وتتكلم عن رجال الفضاء . خيال أدباء اليوم يجعله علم الغد حقيقة ، وخيال الأدباء في العالم المتقدم يسبق إنجاز العلماء ويلهمهم .

والمواطن في العالم المتقدم يعثر بحاضره لأنه يمدّه بالثقة بالنفس ، ويدفعه إلى صدق الانتماء ، فيعمل على تحقيق أمجاد تضاف إلى ما حقق آباؤه وما يحقق

بحهودهم . لا المطمع ، ولكن بغية تأدية رسالة ما ، قومية أو إنسانية . وقد يقصون الأمر ، لا يحتثون حليلاً سوى إرضاء نزعاتهم الخاصة . أو قد يصلون إلى - اكتشاف أو ابتكار أو تطوير يدر عاينهم ما يرضيهم من سمعة مجرية . وقد يدر عاينهم أو لا يدر ما يرضيهم من مال . هؤلاء هم الذين يتحقق على أيديهم محد البلد وتقدم الحضارة الإنسانية . ولكن على أيديهم أيضاً يتحقق صنع السلاح المدمر الذي قد يقضى في لحظة حنون على أكثر ما صنعته الفكر الإنساني في قرون طويلة . تلك هي الأنس التي نرى عاينها العلم المعاصر المتفجر

وعليها نرى أيضاً صرح الآداب والفنون المعاصرة . وما فيها من تنوع وإبداع ، يذمها جميعاً منهجية علمية تعلم الفرد أنه سيد نفسه ، قادر على أن يشكر ، مدعو إلى أن يخطئ . وينفذ ، واثقاً من نفسه . مؤمناً بربه ، يعمل بموضوعية وأمانة علمية يظلمه تحكيم العقل ومقاييس المنهج العلمي المستند إلى برهان تجريبي عقلي - علماً كان أو أدبياً أو فنياً . طبيئاً كان ،

في المستويات الجامعية نجد في كل قسم من أقسام الكليات العلمية مختبر بحث يخصص كل ركن من أركانه لفرع من فروع البحث . ويستغل كل ركن أستاذ أو فريق من الأساتذة أصحاب التخصص الواحد ، أو التخصصات المتقاربة فيعملون بعد الفراع من المحاضرات اليومية في بحوث يملأون من وراءها تحقيق إنجازات تحت لهم ولجامعاتهم شيئاً من المجد أو بعضاً من الدخل أو يعملون في إيجاد حلول لمشكلات محددة تعرضها المؤسسات الصناعية أو الزراعية أو التجارية القائمة من حولهم . وهذه المؤسسات تعتمد لهم ولكلياتهم مبالغ سخية يتقاضون منها أجورهم ، ويشترون بها ما يلزم من معدات ويشغلون بها من يحتاجون إليهم من عمال ومساعدى بحث .

ومن المتخصصين الذين لا يعملون في الجامعات من يعملون خبراء أو مستشارين في النمايات الخاصة أو العامة ، يساعدون في التخطيط أو التصحيح أو التطوير .

ومن المتخصصين من يهونون البحث والاستكشاف . فيعملون أهداً أو جماعات

أو مهندساً أو تاجراً أو صانعاً أو راعياً
كلهم في النهج العلمي والأدبي سواء .

فيذا جئنا إلى وضع العلم والأدب في
العالم العربي ، فيأني أحشى إذا أفصحت في
وصف صورتهم الهزيلة أن أشعر بالإحباط .
تلك الفئة العظيمة من الأدباء المدعى ،
والعلماء ممن حققوا إنجازات ذات قيمة
عالمية في مجال الابتكار أو الاكتشاف .

أو التلويز . ولكن مهما يكن عدد هؤلاء
القلة ، فإن عالمنا عدد أبنائه يربو على مائة
مليون ، لا يكون حاله مرضياً أن يقل كل
من الأدباء والعلماء فيه عن مائتين ، منهم
ألف على الأقل يعمارن على مستوى عالمي
ويساهمون في صنع الحضارة الإنسانية ،
ويدون لأبجدية جديدة مع العالم
المتقدم .

غنى عن البيان أن تربتنا وأجواءنا الفكرية
والثقافية والإقليمية والطائفية تحتاج إلى
تطوير كبير كي تصبح صالحة لنمو الإنتاج
الأدبي والإنجاز العلمي على مستوى عالمي ،
أو صالحة للسير مع التيار الفكري العالمي
لقد قامت النهضة الغربية ، في أواخر
القرون الوسطى ، في نور الفكر العربي

الإسلامي الذي أقامه أجدادنا في رحاب
الحضارة الإسلامية ولكن كان قديراً .
نحن أن نقوم بالحضارة العربية المعاصرة
ونحن نعط في سمات عتيق وعدم
شروعاً نهض من سباتنا ، في أواخر القرن
التاسع عشر ، ألعينا أدنا عرباً في العالم
المعاصر ، فلا علمه ساهمنا في صنع .
ولا أخواننا الحاضرة تصلح له . ولا تربتنا
الدمية ثلاثة ، حتى ولا لغتنا الموروثة
تتسع لاستيعابه .

سيصدم عرلي هذا أدباء يتغنون بلعنا
الجميلة ، وعاميين يتباهون بما أنجز الآباء
وماذا يحدى التغنى والتساهى إن لم يعمل
إلى تطوير مباحج حياتنا وتمكيننا ، حتى
لعتنا ، إلى أن تتلاءم مع طابع حياة اليوم
المتطورة السريعة التطور ، المخاضعة للتطوير .

إليك متلاً واحداً يسين كيف وقفنا حامدين
في عالم سريع الحركة ، التوقف فيه
كالهبط من شاطئ . وعندما ابتكر الغرب
الطباعة ، بحروف متحركة . كان ما يزال
يتلقى عاومه من كتب عربية . فقام الغرب
بطباعة هذه الكتب العربية . أهنا نحن
فقد مكنتنا بعدها في الشرق ثلاثمائة سنة

وما تزال تجرى بما لا يشتهي دعاة تطوير الحياة الفكرية في عالمنا العربي ، من أجل معالجة ما نعانى من سطحية وأزمة فكرية ، تحت ريقه ستار حديدى اسمه المحافظة .

باسم المحافظة على القديم ، وبدعوى أن آخر الأمر لا يصالح إلا بما صالح به أوله ، تفكر أجدادنا للعلم باسم الدين . والدين مما يصنعون براء ، واكتفى الأدباء بالتهبارى فى المدح والهجاء ، نفاقاً و بهتاناً . والأدب والفن مما يفعلون براء وباسم الدين تميدت الحرية الفكرية ، وأعلن الفقهاء الحرب على العالم . وقد كان الإسلام أقوى دعوة إليه . وكما أحرق الغلو الأوربي علماء فى ظل محاكم التفتيش ، أحرق الغلو العربى كتب الفلسفة وأعدم أصحاب الرأى الحر ، بدعوى ظاهرها الحفاظ على الدين وباطنها التنافس على موائد الولاة .

هذا ماجرى فى أواخر العصور الإسلامية قبيل انتقال القيادة الفكرية والسياسية إلى العالم الغربى . وفى غضون القرن التاسع عشر ، شرعنا نضيق وقد مثلت فى أذهاننا ذكريات عصور ماجدة مضت ، فأخذنا

ننسخ باليد ، وكانت أول مطبعة وردت إلى مصر تلك التى جاء بها نابليون فى أواخر القرن الثامن عشر عندما شرعنا نطبع كتباً طبعها الغرب من قبلنا بثلاثة قرون .

فى العصور الإسلامية الأولى أعلى المسلمون صرح المنهج العلمى ، بأن جعلوا الاختبار والملاحظة ركناً من أركانه . لقد أدركوا أن التفكير جهد إنسانى متطور يتغير بتغير الزمان والمكان ، فنادوا بالألأ رأى لميت ، لأن الماجنين مهما أبدعوا فإن تفكيرهم وإبداعهم لزمان غير زماننا وأحوال غير أحوالنا قالوا هم رجال ونحن رجال ونحن أدرى منهم بما يتلاءم بينها وبين أيامنا لقد أوصوا بأن يقوم على رأس كل مئة سنة مجتهد يحدد ويطور ، حسب مقتضيات العصر ؛ فإن لم يقم مجتهد ، وجب على المجتمعات الإسلامية أن تعمل على إيجاده بالرعاية الحكيمة والتربية الهادفة .

ولو امثل اللاحقون لهذه التوصيات لتغير مسار التاريخ الإسلامى . بل تاريخ العالم بأسره . ولكن تجرى الرياح بما لا تشهى السفن . ولقد جرت الرياح

نجمد في وجه تيار فكري دافق لا يلوى
على شيء .

ما نحتاج إليه كى نخرج من جمودنا
الفكري منهجية علمية تضم تحت جناحيها
أدبائنا وعلمائنا وكل مفكرينا على السواء
منهجية تدفعهم إلى التخطيط والتطوير ،
مؤمنين بالله ، واثقين بقدرتهم العقلية ،
متطلعين إلى المساهمة مع المساهمين في بناء
مستقبل أفضل يأخذ فيه العرب والعروبة
مكانة قومية وإنسانية تليق بتاريخنا
الحضارى المحيد .

غنى عن البيان أننى ، رغم تبرى بالحاضر
ومافيه من سطحية وأزمة فكرية ، لأعترز
كل الاعتزاز بما حققت أقطار عربية من
انتصارات عسكرية وسياسية واقتصادية
ومن خطوات موفقة نحو الوحدة العربية ،
أمل كل مواطن شريف . فى تقديرى ،
وحكمى الموضوعى أننا ، أدباء ومتأدبين
ما تزال أفكارنا وحيالاتنا ، تهيم فى الماضى
القريب ، يوم انقلب الفكر والأدب مجرد
شكليات جوفاء ومحسنات لفظية يحليها
سجع وجرس ، ولا يدمعها فكر ، وصار

نستغنى بأمجاد مضت ، من غير أن تحقق
أمجاداً مستجدة ،^٣ وليس من السهل
تحقيقها فى عالم يتطور بسرعة خاطفة ،
ويتفجر فيه العلم تفجراً فوق كل تصور ،
فى حين أننا مازلنا يمضى بنا الزمان ،
وعيوننا إلى وراء ، تحن إلى الماضى ، وتترجم
بالحاضر ، ونخشى المستقبل ، مازلنا
ننظر إلى الغرب نظرة ريبية وحواف ،
نحاشى أن نفيد من تجربته ، وأن نتعمق
أسباب ضعفنا وقوته .

إننى ياسادق أعترز وأرفع رأسى عالياً
بالشعر العربى ، الوجدانى منه والقوى
والإنسانى ، وأعترز وأرفع رأسى عالياً ،
بآدابنا الحديثة ذات النزعة القومية ،
والنزعة الإنسانية ، وأعترز أيضاً وأرفع
رأسى عالياً أتباهى بكل عربى أعجز فى
البلاد المتقدمة إنجازاً متميزاً . ولكنى أتألم
حسرة عليه إذا لم يجد فى بلده ما يمكنه
من مثل هذا الإنجاز . إن ما أشكو لكم
ياسادق منه أن أجواءنا الفكرية هنا
محافضة إلى حد يجعلها لا تتواءم مع تيار
الحياة المتطور . إنها تقيم برزخاً بين الأدب
والعلم يعرقل مسار كل منهما ، ويجعلنا

تمة مدائى وحقائق وأفكار ينبغى أن
تتبع بيننا وتجري في حياتنا كما يجري
الدم في عروقنا . كى نحقق الحو والتربة
اللازمين لتضافر العلم والأدب عندما .
كى نساير تيار الحياة المعاصرة ونمضى مع
الركب بكرة وكرامة فاعلين لا منفعين .
خلاقين لا مقامدين ولا متطالمين من هذه
المدائى والحقائق والأفكار

١- إن العلم هو نالى الحياة المعاصرة :

يمدها سلاح السلم والحرب والجدد
واللهو . وهو ملهم الشعراء والكتاب .
والأدباء . يمدهم بالغذاء الفكرى ويدفعهم
إلى الابتكار والإبداع . مع إدراك للحاضر
وهشارفة للمستقبل . ومع تخطيط سليم
لتحقيق ما يسعون وإدراك ما يأملون بل
إن العلم هو الذى يعلمنا كيف نعبد الله
حق عبادته ، فى عالم يتراوح كالمجنون
بين تقى الراهد المتصوف ، وصلال الاحمق
المفتون .

٢- إن التطور هو سنة الله فى الكون :

كى تمضى الحياة دائما إلى الأفضل ،
ويتشارك الفكر ما هو أرقى وأشرف . من
أجل ذلك وهبنا الله العقل ، الأفراد يولدون

شعور مديح بمناق وارتراق . وهجاء سخي
رهبان . أم ، العلم عملنا فمن مآسياه أن
مرهج التعليم ماتزال هى التى رسمها
الاستعمار . وما طراً عليها من تغيير إنما
هو سطحى لا يمس الجذور . ولا يصل إلى
حد الاجتهاد الحر والابتكار

إن الحو والتربة ببقيا فى العالم الإسلامى .
والعالم العربى بخاصة . على مثل ما كانا
عليه فى أواخر العصور الوسطى تفكير
تقليدى مكرر معاد . وتعلم تافه يبنى يعتمد
على الحفظ ويتنكر الاجتهاد . وأقوال
وشعارات لا يسند لها واقع ولا دليل . وترة
تقبل الكلام المروق الأجوف . ولا تعنى
المصمون وترويض المنهج العلمى الموضوعى
والمنطق العلمى الحر

وما العمل ؟ أقول : إن عايضا بالاضافة
فى تيسير نشر العلم بين العلميين والإنسانيين
على السواء . خلق الحو المناسب والتربة
لناسد لأن ينمر العلم ويشيع ويصبح
طابع حياتنا والموجه الفعل لتفكيرنا .
وتصورتنا . وأن ينمو الأدب الحر المنبعث
عن أصالة فى التفكير ورؤية نافذة وعلم
غزير .

تبتدع عملية جديدة أو تعرض فكرة جديدة حتى يهرع التكنولوجيايون إلى استغلالها بابتكار جديد ، وليس هذا التفجر ، والتجديد مقصوراً على مستويات التخصص بل هو يمتد إلى الحياة اليومية ويدهم الناس في بيوتهم ومطابخهم ومجالى جدهم ولهوهم . الحاسوب الذى كان فى أوائل الستينيات حديث الجامعيين صار اليوم الشغل الشاغل فى المصانع والمتاجر والمصارف والدوائر العامة والخاصة وماذا نقول عن وسائل الطاعة والتصوير والاتصالات والطائرات ؟ وماذا نقول عن عالمنا الواسع الذى غدا صغيراً نرى فيه على شاشة التلفاز فتیان الشرق والغرب فى تعاملهم وجدهم ولهوهم . الأقمار الاصطناعية تعمل على ترحيد العالم سلوكاً وعادات ، شئنا أو أبينا .

هذا يضعنا أمام تحدٍّ لا بد من مواجهته . ومواجهته لانتم بالتنكر للعلم والتكنولوجيا ، بل بالتكليف معهما لأمر محتوم . وهذا التكليف يقتضى تغييراً جذرياً فى مفاهيم التعلم والتعلم وواجبات المعلم . فالتعلم عملية تمتد مدى الحياة . فى الماضى قال فيلسوف : إنا أفكر ، إذن أنا موجود .

ويكبرون ويموتون . وقد ينتاب الفرد ، أو المجموعة أو الأمة بأمورها ما يستاب الأفراد من عجز وهرم . ولكن الحياة بعامة فى هذا الكون الرهيب ، سائرة أبداً بفضل الله إلى الأحسن . والتطور قائم منذ الأزل ، وماض إلى الأبد . كان فى الماضى يجرى بطيئاً وهو اليوم يغد السير بفضل العلم ، ويقتضى إلى التطوير أى عمل العقل فى تسريع التطور . والتطوير إنما هو عمل بإرادة الله ، ونجاحه يفتضى إلى مزيد من الثقة بالنفس ومزيد من شكر الله

وليس التطوير شغل العلماء والأدباء وحدهم ، فكل مواطن مكلف بتطوير عمله إلى الأفضل : المزارع فى حقله يطور سنبابل القمح كى تجود بعطاء أغزر وأجود ، والصانع فى مصنعه يطور إنتاجه ليصير أفضل وأكثر ، والأديب والكاتب والشاعر والناقد والمؤرخ يجددون ويبتكرون ، وينوعون . إن كل نجاح هو خطوة نحو نجاح أكبر .

٣- تطوير العلوم والمعارف :

قدرنا أننا نعيش فى عصر تنفجر فيه العلوم والمعارف بسرعة مذهلة . فما إن

تجاوزها التطور العلمي . أو معلومة ثبتت
أما ليست على صواب . ومن ثم فمبادئ
العلوم الأساسية التي تعلمناها قد جعلها
التمسح العلمي غير ذات موضوع . وما لم
يبادر للتعليم سنسقى أكثر جهلاً مما يقدر
المقدرون . إن من المعلومات المحدثه ما لا بد
لكل مثقف أن يلم به ، علمياً كان أو أدبياً
أو لغوياً .

إن لم يسهم في تطوير الحياة المعاصرة
فلا أقل من أن نشغل معها على نحو
يحمض . بقاءنا ، وإن لم نفعل فأغلب ظنى
أن الحياة المعاصرة ستخلفنا ورائها وتمضى
قدماً لا تنتظر .

أظننى أطلت عليكم أيها السادة . شكراً
لإصغائكم وسعة صدوركم .

والسلام عليكم

أحمد سعيان

عضو المجمع المراسل (من الأردن)

واليوم يقول كل فرد . أنا أتعلم . إذن
أنا موجود والتعليم لم يعد يقتصر على
إنهاء مقرر محدد . إنما هو يعلم المرء كيف
يتعلم وكيف يبقى على صلة بالمستجدات في
مهنته وميدان عمله . كى يبقى مواكباً لتيار
الحياة المتدفق . والمعلم لم يعد الموظف الذى
تخرج وقد شدا من العلم شيئاً فهو يعطيه
للمتعلمين جيلاً وراء جيل . إنما هو متعلم
تتزايد معلوماته يوماً بعد يوم . وتسمع
خبراته - هو صاحب مهنة وصاحب رسالة
حياته مكرسة لتسليغها

أيها السادة : إذا كنا نحطط بحد لنكون
في صفوف الأمم المتقدمة . فينسغى أن
نتدارك ما فاتنا من عناصر الحياة المعاصرة
أدباء وعلماء . إن تفجر المعرفة قد جعل
أكثر المعارف التقليدية معلومات بدائية



عود لابن النفيس للكتور حسن على إبراهيم

فمن الواضح أن ابن النفيس لم يُشَرِّح القلب ولم يفتح حجراته وإلا لما قال إن البطين الأيسر يخرج منه شريانان لا شريان واحد وكلنا نعلم الآن أن هناك شرياناً واحداً يخرج من البطين الأيسر وهو الأورطي كما أنه حمل الشريان الرئوي يخرج من البطين الأيسر وقد أهمل تماماً ناحية كبرى وهو أن الدم الفاسد يأتى من شتى أنحاء الجسم ويصب من خلال الوريد الأجوف السفلى والوريد الأجوف العلوى في الأذين الأيمن ومنه إلى البطين الأيمن ومن هذا يخرج الشريان الرئوي حاملاً الدم الفاسد إلى الرئة ليتحد بالأكسجين ويتخلص من ثاني أكسيد الكربون ثم يعود دماً أحمر ندياً من الرئة إلى الأذين الأيسر ومنه إلى البطين الأيسر ويخرج من خلال الأورطي ليغذى سائر الجسم بالدم النقي . وابن النفيس

في المؤتمر الماضي تكلمت عن ابن النفيس فأثار قولى ما يشبه الثورة بين أعضاء المؤتمر ويبدو أن ابن النفيس كانت له في نفوسهم مكانة عظيمة ، دل أقول ما يشبه التسأله هذا مع أنى كنت أقول كلاماً علمياً بحثياً ولم أقصد الإساءة إليه فقد كان عالماً كبيراً في زمانه ، وهو الذى تنبه إلى وجود دورة رئوية دموية وعرف أن الهراء يختلط بالدم في الرئة ، وأن ذلك لازم للحياة منذ أن قال جالينوس إن الروح تدخل إلى الجسم مع كل شهيق ، والناس تعرف أن التنفس لازم لاستمرار الحياة ، ولكن ابن النفيس أراد أن يفسر كيف يحدث ذلك داخل الصدر وهنا وقع في نفس الخطأ الذى وقع فيه كثير من الأطباء العرب وهو إعمال الخيال بدون تشريح أو تجربة هذا باستثناء أبى بكر الرازى ، وحميد بن إسحاق ، وأبى القاسم الزهرائى وابن زهر .

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة السادسة من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

معذور لأنه نظر إلى القلب فرأى أن الشرير
الرئوى ظاهرياً يميل ناحية البطين الأيسر
فيخيل للرأى أنه خارج البطين الأيسر
ثم إنه قال إن هناك جرماً بين البطينين
يتلطف فيه الدم قبل أن يدخل البطين
الأيسر وهذا الجرم لا وجود له . والذي أثار
المؤمر أكثر ما أثار هو أنى قلت إنه كان
يتخبط وقد عدلت هذه العبارة في مقالى
إلى « أن ما قاله ابن نفيس لم يكن
صحيحاً بمقاييسنا الحالية » وربما كنت
واقفاً تحت تأثير سيء ، فقد كنت أقرأ
قلها بقليل أن الإدريسى هو أول من رسم
خريطة للكورة الأرضية وكل من عنده
أطلس جغرافى كبير يرى في مقدمته صوراً
لخرائط للأرض منذ أيام اليونان وبطليموس
بل في الواقع أن الخريطة التى رسمها
بطليموس للأرض أضبط من خريطة
الإدريسى ثم إن الإدريسى رسم أكثر من
خمسين جزيرة كبيرة بين أفريقيا والهند
فأين هى هذه الجزر ؟ كذلك كنت أقرأ
أن أحمد بن ماجد المعروف بأسد البحار
هو الذى علم فاسكودى جاما كيف يدور
حول رأس الرجاء الصالح وهذا غير صحيح

كما أنه هو الذى علم ماجلان بعد ذلك
كيف يدور حول الكورة الأرضية وقد قرأت
كتاباً كبيراً عن رحلة ماجلان وهو ما كان
يكتبه كاتب السفينة يوماً بيوم منذ تحضير
السفن حتى إبحارها . ثم ما جرى يوماً
بיום حتى عودت السفينة واحدة فقط إلى
إسبانيا بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات
فلم أقرأ إشارة واحدة إلى ابن ماجد . وكان
كاتب السفينة التى يدور الوقائع دقيقاً
جداً فكان يكتب يوم الثلاثاء كذا في شهر
كذا في عام كذا . حدث هذا ثم يوم الأربعاء
وهكذا . وهذا من ماجلان كما تعلمون في
جزر الفلبين وعادت السفينة واحدة فقط
من الثلاث يدور ماجلان . ولكن الطريف
في هذه الرحلة أن يوم وصول السفينة كان
يوم الثلاثاء . فلما تدون وقائع السفينة ،
ولكنهم وجدوا أنه يوم الأربعاء في إسبانيا
هذا مع عدم المثلأ لإطلاقاً في التدوين وقد
سُغلت هذه الظاهرة عقول العلماء مدة طويلة
فلم يكونوا يعلمون في ذلك الوقت أن هناك
خطاً يسمى خط الزمان الدولى وهو يعبر
المحيط الهادئ من الشمال إلى الجنوب وهو
خط ١٨٠ درجة طولى والذي يعبر هذا

المخطط من الغرب إلى الشرق إلى الغرب
يكسب يوماً والذي يعبره كما فعل ماجلان
من الشرق إلى الغرب يفقد يوماً من عمره .

اعذروني لخروجي عن الموضوع ، والآن
أعود إلى ابن النفيس ونحن كعرب كان
عندنا علماء كبار لنا أن نفخر بهم ومنهم
ابن النفيس طبعاً ولكن أرجو أن يكون
ذلك الفخر في حدود العلم والمعقول ، والآن
لأرضيكم سأعود إلى كتاب شرح تشريح
القانون لابن النفيس ، فقد أصاب الرجل
في نواح عدة أذكر منها بعض الأمثلة .

يقول تعليقاً على كلام ابن سينا :
« كل عضو فلا بد وأن يكون في جُرمه خلل
بنفذ فيه الغذاء إلى عمقه وهذا الخلل إن
لم يكن محسوساً سمي مساماً ويسمى ما كان
خلله من العظام كذلك مُصمتاً لأنه مُصمت
في الحس وإن كان ذلك الخلل محسوساً .
فإما أن يكون متفرقاً في جرم العضو كما
في عظم الفك الأسفل فيسمى ما كان كذلك
من العظام هشاً ومُتخللاً أو لا يكون
متفرقاً في جرمه ، بل مجتمعاً في موضع
واحد ويسمى ما كان العظم كذلك محوفاً

وكل عظم فيما أن يكون صغيراً جداً ،
كالأغلة ، بل كالعظام السمسمانية
Scsamoid Bones فلا يحتاج فيه إلى
تجويف محسوس لأن هذا الصغره يتمكن
الغذاء من النفوذ إلى قعره بسهولة لقصر
المسافة .

هذا الكلام في جملة صحیح ولو أن لي
- كطبيب يعيش في القرن العشرين -
تعليقاً وهو أن عظم الفك الأسفل من أقوى
العظام وأن التجويف الذي فيه يسير بطوله
تحت كل الأسنان والغذاء لا يأتى إليه من
وسطه كما يقول ابن النفيس ، بل يأتى
إليه من زاويته الخلفية على الناحيتين ومن
العشاء المحاطى الذي يغطيه والتجويف
الذي فيه لم يوجد لكى يكون تخفيفاً
فعضلات الفك من أقوى عضلات الجسم
وهي تستطيع أن تحمل أضعاف أضعاف
وزن الفك . فالتجويف الذي يوجد بداخل
الفك بطوله يسير فيه الشريان الفكي ،
والأوردة الفكية وهو المصدر الرئيسى
لتغذية الفك والأسنان والقناة التى يسير
[فيها اسمها القناة الفكية Mandibular Canal]

كذلك أعجبنى في كلام ابن النفيس
وجود العظام السمسمانية التي قال ابن سينا

والتجويف يقل إذا كانت الحاجة إلى الرقاية أكثر ويكثر إذا كانت الحاجة إلى الخفة أكثر هذا يُعتبر بحسب الأمور .

أحدها : اختلاف نوع عظام البدن الواحد فإن عظم الساق يحتاج إلى الخفة أكثر من عظم الفخذ لأن حاجته إلى الحركة أكثر من حاجة عظم الفخذ

ثانيها : اختلاف الأردان في القوة فإن البدن الذي عضله ضعيف الحلقة يحتاج أن تكون عظامه أخف ليتمكن القوة الضعيفة ولا كذلك البدن القوي .

ثالثها . اختلاف الأردان في السن فإن الشيخ تضعف قوته عن تحريك الثقل ، فتحتهاج أن تكون عظامه أخف وذلك يحصل بسبب تخلخل عظامه أثناء اغتدائها (هذه الظاهرة نسميها الآن تخلخل العظام في الشيخ Senile osteoporosis ولو أن مسميها ليس قلة التغذية كما قال) .

رابعها . اختلاف نوع الحيوان ، فإن الحيوان الشديد البطش كالأسد يحتاج أن تكون عظامه شديدة القوة ، إما يكون كذلك إذا لم يكن تحويها كبيراً . هذا

أنها موحودة بين الأصابع وفي أوتار الأصابع أو بين السلاميات ، ولو أن إنكاره لها لم يكن مسيئاً على تشريح إذ قال إنه يعتقد أنها غير موجودة وفي الرافع توجد عظمة مسمائية واحدة في يد الإنسان داخل الوتر للعضلة القابضة للإبهام وهذا الكلام لن يتغير لأنه مسيئاً على التشريح الدقيق لآلاف الأيدي إلا إذا ظهرت فصيلة جديدة من البشر .

كما أحسن ابن النفيس عند كلامه عن العظم اللامي في الرقبة Hyoid Bone فوصفه بأنه علاقة وهذا صحيح لأن كثيراً من عضلات الفك والرقبة تنشأ منه . وهناك عضلات خاصة لتثبيت العظم اللامي فمثلاً أهم عضلة لفتح الفم هي الذقنية اللامية Genio Hyoid Muscle فعند فتح الفم للأكل أو للتثاؤب مثلاً تعمل هذه العضلة وقد وجب عند هذا الشد من أسفل على العظم اللامي وإلا ارتفع إلى أعلى ولم ينزل الفك فتتقلص العضلات المرتبطة بالعظم اللامي من أسفل وتحفظه في مكانه كما يعجزني قوله التالي في العظام وأنقله حرفياً :

الكلام في جماته صحيح وليس من المستطاع
بالطبع أن يعرف ابن النفيس الهرموبات
المسئولة عن هذا .

أما عند كلامه عن عظام الحمجمة يقول
مصححاً ما قاله ابن سينا « الجواب .
أما ما قيل عن الأمر الأول فإننا وإن سلمنا
أن الأجراء التي يحب تخلصها من عظم
الرأس يقل قبولها للآفات الحارجية بما قلتم
لكنها لا محالة شديدة القبول لمثل العفونة
ونحراها وهذا كلام صحيح .

ويقول : « ولعل الذي رأسه من عظم
واحد قد كان فاسد الذهن ردى الأخلاق
لأجل احتباس الأبخرة الكثيرة في دماغه »
وهذا كلام غير صحيح لأن هذه الحالة
تعرف الآن بتضيق الحمجمة Craniostenosis
ولا توجد أبخرة تتصاعد من الدماغ
لتحتبس ولكن فساد الدهن يأتي من
نقص نمو المخ في هذه الحالات

سادتي .. لن أطيل فالكتاب طويل جداً
وهكذا يمضي ابن النفيس يصيب مرة ،
ويخطئ مرة ، ولكنه مفكر عظيم بلا شك
ويكفيه فخراً أنه أصاب تماماً في كثير من
المواضع ،

وقبل أن أحتم كلامي أذكركم بما قلته
عن ابن سينا في أول مرة تكلمت عنه
وعددت أخطائه فقد قلت ترى ماذا يقول
الأطباء بعد ألف سنة إذا قرأوا كتبنا التي
نتداولها وندرسها الآن ؟ إنهم في الغالب
أن يفهموها وإذا فهموها فسوف يضحكون
من جهلنا هذا إذا لم يقض الإنسان على
نفسه بآطماعه وغبائه قبل ألف سنة
بكثير .

إن عيب الأطباء القدامى أنهم لجأوا
إلى التفكير البحت دون تشريح جيد ،
أو تجربة والطب الحديث قام على التشريح
الدقيق والتحارب والعلم الكامل بالكيمياء
الحيوية ووظائف الأعضاء وهي أسس
الطب الآن .

أيها السادة . أشكركم مرة أخرى لحسن
استماعكم لهذا الموضوع الحاف وإني عندما
أتكلم عن الطب فإنما أقول كلاماً موضوعياً
حيادياً فإننا لا أحارب أحداً أو أحابي الآخر
وشكراً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسن على إبراهيم
عصو المحم

القرآن وتعريب الإنسان للأستاذ علي رجب المدني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على نبيه ورسوله الأمين محمد بن عبد الله
بن عبد المطلب وعلى آله وأصحابه ومن
تبعه إلى يوم الدين

من السهل على الباحث المتعمق في
أهداف القرآن وتوجهاته أن يدرك حقيقة
أن القرآن قد أرسى أول ما أرسى مجموعة
من التعاليم التي أوجب اعتبارها من
المسلمات ومن أهمها ما يلي :

١ - أنه آخر كتب الله المنزلة ، الجامع
لخلاصة تعاليمه إلى الإنسانية جمعاء لا إلى
قوم بعينهم .

٢ - أنه خاطب الناس (كل الناس)
بقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ

ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَهَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَابَكُمُ » ،
وقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » .

٣ - أنه انطأ من مبدأ استنكار كل
ما من شأنه أن يفرق بين إنسان وإنسان
من عرق ولون أو انتماء عصبي أيًا كان مأثاه .

٤ - أنه تجنب مخاطبة الرسول صلى الله
عليه وسلم بنسبته إلى العرب ، ولم يورد
للعرب ذكرًا إلا فيما تحدث به عن الأعراب
في بضع آيات ، ولكنه تحدث عن القرآن
ذاته بقوله : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ،

(٥) أتى هذا البحث في الجلسة السادسة من جلسات المؤتمر المعقّدة وم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠
الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م

على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ
عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * « وفي آية أخرى : « وَكَذَلِكَ
أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا » ، « قُرْآنًا عَرَبِيًّا
غَيْرَ ذِي عِوَجٍ »

٥- أن حكمة الله شاءت أن يختار
صاحب رسالة القرآن من العرب المستعربة
التي تنحدر من صلب إبراهيم الخليل وابنه
إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وتتصل
بالدم العربي من طريق زوج إسماعيل الجرهمية
القحطانية « دعاة بنت مضاض » التي
أنجب منها اثني عشر ولداً من بينهم
عدنان الذي ينتهي إليه نسب الرسول
محمد صلى الله عليه وسلم ووصله بالدم
المصري عن طريق الأميرة المصرية الجدة
هاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل عليهما
السلام وبذلك وصل خاتم رسله بعدد من
الأعراق ليكون مؤهلاً للرسالة العظمى
الجامعة التي تخاطب جميع الناس دون
نظر إلى الأعراق والانتماءات ومهد بكل
ذلك لفكرة الدمج المستهدفة برسالة محمد
تحت لواء قومية واسعة مشتركة هي قومية
العقيدة الإيمانية التي تنحدر عن تعاليم
القرآن المنزل بلسان عربي مبين .

وبذلك يتحقق ما استهدفه الله بقوله
عز من قائل : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَرَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » ، وقوله :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنْثَى » فتحدث في الآيتين عن ذكر
واحد هو آدم وأنثى واحدة هي حواء ،
والمندحدرون عادة من أب واحد وأم واحدة
يعدون إخوة لا يستقيم القول بأن فارقاً من
أون أو عنصر أو غيرهما من شأنه أن
يفرق بينهم أو يحول دون تعارفهم ،
وامتزاجهم والتقاءهم على صعيد الأسرة
الواحدة .

٦- أن القرآن يقوم على شقي التعاليم
والإعجاز وإذا جاز أن يقال إن التعاليم
قابلة للترجمة إلى لغات غير العربية فإن
إعجازه المتمثل في صياغته المتميزة وما تنطوي
عليه من إيماءات وإشارات وصور لا يتسنى
لأقدر المترجمين أن ينقلوا شيئاً منها إلى
لغة أخرى ، هذا الإعجاز الذي يشكل
الركن الرئيس في تأثيره وهدايته وأخذه

والإمام الغزالي وابن الحاجب الذين كانوا من الأعاجم (عدا ابن جني فكان يونانيًا) وغيرهم ممن عدوا بالآلاف حذقوا اللغة العربية وتبحروا في علومها وألفوا بها العديد من المؤلفات القيمة التي ساهمت في نشر حضارة الإسلام وأمجاده وفتوحاته وحفظ تراثه .

٧- يبين من الأرقام المتقدمة أن اللغة العربية قد رشحها الله ضمناً (باعتبارها لغة كتابه المنزل للإنسانية كافة) أن تكون هي أيضاً لغة الإنسانية كافة ، وارتفع بالانتماء العربي عن مفهوم الانتماء القوي الضيق القائم على التمييز العرق أو القبلي أو العنصري إلى مستوى القومية الإنسانية العامة التي تنادي بأن كل إنسان أخ للآخرين دون أية فروق ، وأن ما بين الشعوب من فروق موروثية مرشح بنزول القرآن وانتشار دعوته للاضمحلال التدريجي الذي من شأنه أن يجعل الرباط بين المسلمين لا يختلف عما كان يربط أباحنيفة والبخاري وسيبويه وابن جني بالمجتمع العربي المسلم . ويؤكد القاعدة التي أرساها محمد صلى الله عليه وسلم في

بمجامع القلوب والعقول معاً . لا بد للإحاطة به من الإحاطة باللغة العربية الفصحى وإجاعتها لإجادة تتيح للناطق بها أن يستوعب تلك الدقائق المعجزة التي تطرد عنه كافة الشبهات والشكوك التي تضعف الإيمان القلبي وتنزل به إلى الدرجة التي لا تؤهل صاحبها لأن يسلك في عداد المؤمنين الصادقين الذين التزم الله لهم بالنصر والدفاع عنهم وبأن لا يجعل للكافرين عليهم سبيلاً .

ولقد أكدت أحداث التاريخ في صدر الإسلام أن تعميم التعليم والتعلم للغة العرب كان يواكب حركة الانتشار للدعوة الإسلامية في مختلف الأمصار مما أهل تلك الأمصار لأن يستوعبوها ويتكلموا بها على نحو جيد مكنهم من تلاوة القرآن بلغته وفهم مكنونات إعجازه حتى برز منهم جهايزة من أمثال سلمان الفارسي والأئمة أبي حنيفة النعمان والبخاري وسيبويه ، وابن جني وابن العميد والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني وپشار بن برد وعبد الحميد الكاتب ، وأبي نواس وابن الرومي والطغرائي وابن سينا

حديثه المشهور تلك القاعدة التي تقضى بأن العربي من يتكلم لغة العرب وذلك فيما أورده ابن عساكر من قوله صلى الله عليه وسلم . « ليست العربية في أحدكم من أب أو أم وإنما هي لسان فمن تكلم العربية فهو عربي » .

والمؤمن بالقرآن عندما يستوعب هذا التحليل لا يتردد في التخلي عن كل ما يفرقه عن المجتمع العربي أو يجعله في موضع العريب عنه ، وبذلك يتحقق الهدف الأسمى للرسالة العامة التي اتخذت شعاراً لها قول الله تعالى في القرآن : « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » .

٨- والحق أن الله رشح البشرية للتأخي في ظل الأمة الواحدة من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ، وذلك بأن جعل الإسلام ديناً أوحده لكافة الرسل وهو ما ورد صريحاً في سياق العديد من آيات القرآن الكريم فمن قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ .. » إلى قوله عز من قائل : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

الناس . . » إلى قوله عز من قائل على لسان رسوله نوح عليه الصلاة والسلام : « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » إلى قوله جل شأنه فيما يحكيه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ : رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ، وقوله عز وجل . « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ مُشْرِكِينَ إِذْ خَضَعَ يَعْقُوبُ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » ، ثم قوله على لسان رسوله يوسف عليه الصلاة والسلام : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّيْ مُسْلِمًا وَالْحَقِّقْنِي

الادعاء بوجود أديان سماوية أخرى غير الإسلام لأن في مثل هذا القول منافاة صريحة للنصوص القرآنية المتقدمة .

ولقد اتفق المفسرون على أن ماورد في خاتمة سورة (الكافرون) من قوله تعالى :
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ « يقوم على نفسى الاعتراف من الله بدين غير الإسلام ، وأن هذا النص إما أنه ورد في سياق الحدل والتهكم أو أنه «وهو الأقرب إلى الصواب» يريد بالدين الجزاء فكأنه يقول : « لكم جزاؤكم ولى جرائى » إذ أن كلمة دين تطلق ويراد بها الجزاء ومنه قوله تعالى :

« مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ » ، أى يوم الجزاء وهذا التحليل من شأنه أن يعرجنا إلى القول بخطأ كل أولئك الذين درجوا على التحدث عما يسمونه الأديان السماوية ، إذ لا يليق أن يرد مثل هذا التعبير مع علمنا بأن الدين عند الله الإسلام وأنه دين جميع الرسل .

وإذا تناولنا قوله تعالى فى القرآن المجيد :
« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وإن هذيه

بالصالحين » ، وقوله عز وجل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام : « يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ » ، وقوله عز وجل على لسان سليمان، فى رسالته إلى باقىس ملكة سبأ : « إِنَّهُ مِنْ مُسْلِمِينَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتْرَئِي مُسْلِمِينَ » ، وقوله على لسان سليمان عليه السلام أيضاً فى حديث النملة : « فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

وقوله عز وجل على لسان بلقيس :
« وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »
وقوله سبحانه وتعالى على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام : « فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » إلى قوله عز شأنه :
« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

وعلى هذا يمكن القول بعدم جواز

إلا أن لكل من أولئك الرسل شريعته .
فالشرائع تعددت أما الأديان فلا وليس
عمة من دين سماوى غير دين الإسلام .

ولئن لم يكن الله قد أوجب عالمية اللغات
التي نزلت بها الكتب والصحف على الرسل
السابقين لانتفاء عالمية دعوتهم وقصرها
على شعوبهم تمهيداً للرسالة العامة العظمى
التي اختار الله لها محمداً صلى الله عليه
وسلم ، ولأن هؤلاء الرسل كانوا قد زودوا
بمعجزات مادية حسية كتلك التي زود
بها إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى
ومن قبلهم نوح وهود وصالح ويونس ،
وغيرهم ، فإن الأمر مختلف بالنسبة لرسالة
محمد صلى الله عليه وسلم العامة لجميع
البشر فإن الله اقتضت حكمته أن يقصر
معجزة محمد على ما أودع القرآن من
إعجاز يتفق مع ما انتهى إليه أمر البشرية
من تطور عقلى وتنبؤ لاستيعاب المعجزة
التي تخاطب العقل المستكمل لنضجه ،
حتى تكون ملتقى وملاذاً لكل شعوب الأرض
التي تتحد في ميزة العقل الذى أراد الله أن
تقوم وحدة المجتمع الإنسانى وحضارته
على أساس منه .

أَمَّاكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ «
فلما ننانون بآن الله استهدف وحدة الشعوب
الإنسانية وجعلها أمة واحدة منذ أن بعث
أبانا آدم عليه السلام بدعوة الإسلام ،
وفقاً لما ورد بقوله تعالى : « وَمَا كَانَ
النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَتْ بَيْنَهُمْ فِيهِ
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » سورة يونس الآية ١٩
وقد ذكر المفسرون أن الناس كانوا أمة
واحدة على دين الإسلام منذ آدم عليه
السلام إلى عهد نوح عليه السلام ، ثم من
عهد إبراهيم عليه السلام إلى عهد عمرو
ابن لحي الذى أورد الكلبي في كتابه
(الأصنام) أنه أول من أدخل في العرب
عبادة الأصنام بعد أن كانوا على دين
إسماعيل عليه السلام ، وكان عمرو هذا
يتولى الحجاجة على الكعبة وقد استورد
عبادة الأصنام من وادى الأردن عندما
ذهب إليه في زيارة .

وفى قوله تعالى : « لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ
شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » إشارة إلى أنه وإن كانت
الأديان السماوية لا تتعدد وإنما تنحصر في
دين واحد هو الإسلام بالنسبة لكافة الرسل

آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ « صدق الله العظيم .
إلى غير هذا من الآيات العديدة التي وردت
في هذا المعنى .

وخلاصة القول أن الإيمان هو سبيلنا
الأوحد لاكتساب مرضاة الله وحمايته وأمنه
ونصرته ، ولا سبيل إلى عطف الإيمان الذي
يؤهل الإنسان لذلك إلا بالاقتناع العقلي
والانصياع الوجداني اللذين لن يتحققا
لأحد بدون قراءة القرآن بلغته وبتضلع
فيها يؤهل القارئ لإدراك مكانة إعجازه
وأبعاد ما ترمى إليه آياته .

فإذا تسابق الناس إلى تعلم العربية
وتحرى الدقة في النطق بها والقدرة على
الغوص إلى مكنوناتها فإن ذلك من شأنه
أن يحقق هدفاً مزدوجاً يتمثل في سهولة
الوصول إلى منبع الهداية الذي تلتقى حوله
العقول والمشاعر بالقدر الذي يرتقى بمطامح
الإنسان ويسمو به إلى مرتبة من الصفاء
والروحانية يتخلص بها من نوازع الشر
فيه ويتأهل بها لمفهوم المحبة والمواخاة ،

وعلى ذلك فإن تعلم لغة القرآن حق من
حقوق الإنسان أينما كان يتحد مع التزامه
باستيعاب تعاليم القرآن وإعجازه ويجعل
تعميم وتعليم هذه اللغة واجباً قدسياً على
جميع المؤمنين بالقرآن وشريعة محمد
صلى الله عليه وسلم .

ولو تحقق للإنسانية هذا الحلم لسلمت
من جميع الشرور التي حاقت بها وأسباب
التطاحن التي هيمنت على حياتها طوال
القرون الماضية التي تلت نزول القرآن على
محمد صلى الله عليه وسلم ، ولوقوف الإخاء
على مجتمع إنساني واحد لا يحمل في داخله
شيئاً من أسباب التناحر والتصادم ويتمتع
من الإيمان بالله بالقدر الذي يؤهله لنصرته
ودفع الأذى عنه وفق ما تعاهد به في
العديد من آيات كتابه كقوله سبحانه :

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »
وقوله : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ » ، وقوله : « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ
الَّذِينَ آمَنُوا » ، وقوله : « وَلَنْ يَجْعَلَ
اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا » ،
وقوله عز شأنه : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى

الصندوق الدولي

لتعميم اللغة العربية الفصحى

إن مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي يضم النخبة الممتازة من أعلام العربية المتمكنين فيها والمتمتع بالشهرة العالمية التاريخية التي ترتفع به إلى مصاف أعلى الأكاديميات العلمية المتخصصة في العالم المعاصر هو الهيئة المؤهلة لتبني الدعوة ، والعمل على تحقيق فكرة هذا الصندوق الذي سيكفل بتوفير الموارد اللازمة للاتفاق على برنامج يبدأ بإعداد أحدث الوسائل التعليمية المتمثلة فيما يتسنى استخدامه من وسائل تقنية وتجنيد العلماء المتخصصين في حقول اللغة العربية الذين يتكفلون بما يتاح تقديمه لهم من تلك الوسائل بإيصال معلوماتهم إلى كل مستمع أو مشاهد في أطراف الأرض كلها ، مستخدمين أحدث وأيسر ما وصلت إليه الأجهزة النظرية في مضمار تعليم اللغات في الدول المتقدمة التي دأبت على تبسيط برامج تعليم لغاتها على النحو الذي نسمعه كل يوم من محطات إذاعة تلك الدول ، وما نشاهده في الأشرطة المسموعة والمرئية التي دأبت على تعميمها ووضعها تحت تصرف كل من يطلبها في

والبحث عن الإسلام واجتناب أسباب العداوة والبغضاء والتناحر . وهو الهدف الذي تتركز فيه أنظار الفلاسفة ودعاة الفضيلة والإصلاح في كل زمان ومكان .

وهنا أرى أن أعرض خلاصة (مشروع الصندوق العالمي لتعميم لغة القرآن)

إنه مشروع يقوم على الاستفادة من مستحدثات العلم والتقنية في تيسير إيصال فرص الإلمام باللغة العربية إلى كل الناس دون استثناء ، بدءاً بفشتي العرب والمسلمين اللتين يتحتم أن تنهدم بينهما الأسوار ، والحواجز وتنصهرا في بوتقة العروبة كأمثلة متحضر ومتمكن من قيم الأخلاق والمروعة والمسألة والتحضر ، والبحث عن المحبة بالقدر الذي يستهوى كل فئات المجتمع الإنساني المتعطشة لكل ذلك ويستميلها إلى نفس السبيل ، ويجعلها تتعشق من تلقاء نفسها تعلم لغة القرآن حتى تدرك معنى الإخاء ووحدة الأسرة اللذين يدعو إليهما القرآن فيما مر من آيات وفي غيرها مما لم يرد ذكره .

جميع أرجاء المعمورة . ولسنا في هذا الصدد بأقل استعداداً وقدرة من غيرنا .

وإذا كان المجمع يتخرج من أن يكون له دور ذو طبيعة مادية فإنه لا أقل من أن يصدر مباركته لهذا المشروع والتوصية لتنفيذه بالاستعانة بهيئة اليونيسكو الدولي والعربي واقترح تشكيل هيئة خاصة به تعمل تحت إشراف كل من المجمع ، واليونيسكو مكونة من شخصيات تشتهر بكفاءتها ونزاهتها وإيمانها بأهداف هذا المشروع .

وواضح أن هذا المشروع إنما يقوى على الوقوف على قدميه إذا ما اتجهت إليه الحكومات العربية والإسلامية باهتمامها وأولته من إيجابيتها القدر الذي يستحقه .

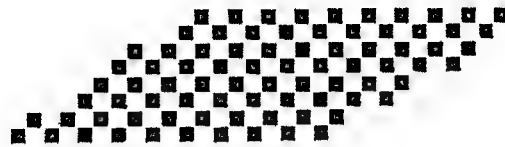
لذلك

أرجو أن يتفضل مؤتمر المجمع السادس والخمسون الموقر بأن يصدر توصيته بتأييد المشروع على النحو المتقدم .

وشكراً ،

على رجب المدني

عضو المجمع (من الجماهيرية الليبية) .



منهج طه حسين في الدراسات الأدبية للدكتور شوقي ضيف

دعت إليها طائفة من المستشرقين في إيطاليا وفرنسا وألمانيا ليحاضروا بها في قسم الآداب ، وكان بينهم جويدي الذي عني بعرض الأدب الجغرافي والتاريخي ، ونالينو الذي عني بعرض تاريخ علم الفلك عند العرب ثم بدراسة تاريخ الأدب العربي في العصرين الجاهلي والأموي ، وسانت للانا الذي عني بدراسة الفلسفة الإسلامية ، واليونانية ، وليتمان أستاذ اللغات السامية ، وعني بدراسة تاريخ الفلسفة . وطل طه حسين يستمع إلى محاضرات أستاذه الموصني في الصباح ، كما ظل يذهب في المساء لاستماع هؤلاء المستشرقين .

واستقر في نفس طه حسين مبكرا أنه ينبغي في دراسة الأدب العربي الانتفاع بطريقة شيوخه الموصني التي تعين على تكوين

يعد طه حسين الرائد الفد للدراسات الأدبية العربية في القرن العشرين ، وعوامل مختلفة تضاعفت في إحلاله هذه المنزلة الرفيعة ، ولكي تتضح لنا ينبغي العودة إلى تكوينه الأدبي في نشأته الأولى حين كان طالبا بالأزهر منذ السادسة عشرة من عمره وكان يختلف إلى دروس الشيخ "سيد المرصفي" ، وفيها كان يدرس لطلابه نصوفا في ديوان الحماسة لأبي تمام وكتابي الكامل للمبرد والأما إلى أبي علي القالي ، وكان يعل عليهم شروحا لما يقرأ ونظرات لغوية ونقدية ، من شأنها أن تكون في الطلاب ملكة الكتابة وتذوق الأدب والفقه باللغة وجودة اللفظ ورصانة الأسلوب .

وافتشحت الجامعة المصرية الأهلية سنة ١٩٠٨ فانتسب إليها ، وكانت قد

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة السابعة من جلسات المؤتمر (جلسة علنية مساء) المعقولة مساء يوم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

«ليس الغرض في هذا الكتاب أن نصف حياة أبي العلاء وحده ، وإنما نريد أن ندرس حياة النفس الإسلامية في عصره ، فلم يكن لحكم المعرفة أن ينفرد بإظهار آثاره المادية والمعنوية وإنما الرجل وماله من آثار ، وأطوار نتيجة لازمة وثمرات ناضجة لطائفة من العمل اشتركت في تأليف مزاجه ، وتصوير نفسه من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان . من هذه الحال المادية والمعنوية وإذا صح هذا كله فلابد للعلاء ثمرة من ثمرات عصره ، قد عمل في إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية .»

وما يلبث أن يعلن في التمهيد أن مورخ الأدب الذي لا يؤمن بالمذاهب الحديثة ولا يصطنع في البحث طرائقه الطريفة . ولا يطمئن إلى أن الحركة التاريخية جبرية ليس الاختيار فيها مكان لا يستطيع أن يوفق دراسة أبي العلاء حقها في رأيه . والمهم إعلان جبرية التاريخ الأدبي وأنه ثمرة عال ينبغي تبينها في دراسته ، وحار بعض الباحثين في استشعار طه حسين لهذه الحصرية وتساءلوا هل اطلع على آراءتين

الملكية الأدبية عند الطلاب وتقبل أذواقهم بما تعرض من المقادير اللغوية وبين الدقائق والأسرار البلاغية ، والانتفاع مع ذلك بطرق المستشرقين في دراسة تاريخ هذا الأدب في الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والفكر لابد إذن ودراسة الأدب من الأخذ بطريقة المصنفي التي تساعد على فهم النصوص الأدبية وتذوقها وتذوقاً حسناً والأخذ بطرق المستشرقين لاستنباط التاريخ الأدبي لهذه النصوص ومن أنتهجها من الشعراء والكتاب

وما توافى سنة ١٩١٤ حتى يضع طه حسين رسالة يحصل بها على درجة العالمية من الجامعة المصرية الأهلية . اتحد موضوعها دراسة أبي العلاء المعري مفيداً فيها من طريقة شحيحه المصنفي في فهم الشعر وتذوقه ومن طرق المستشرقين في دراسة تاريخ الأدب دراسة تعين على فهم المؤثرات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية في العصر كله . ويوضح تأثره العميق بطرق المستشرقين في دراسته لحكيم المعرة ودرتها المريدة قوله في فواتحها .

الناقد الفرنسي وما ذهب إليه من جبرية التاريخ الأدبي وجبرية علمه المؤثرة في سماته وخبرائمه ولا موضع لهذا التساؤل ، فتمد أعفاننا هو نفسه من تحليل ذلك بما ذكر من أنه يتبع فيه فلاسفة أوروبا والمسلمين ، أما فلاسفة أوروبا فمن ذكره له منهم أساتذته المستشرقون ولا نعرف هل كان بينهم تين أو لم يكن ، وأما فلاسفة المسلمين فلمعلمه بتقصيد ابن خلدون وما ذهب إليه من الجبرية التاريخية في فلسفته الاجتماعية بمقدمته المشهورة .

وبذلك يريم طه حسين منهجه في دراسة تاريخ الأدب العربي ، فهو ليس سرّداً لأخبار من هنا وهناك عن العصر وأدبائه ، بل هو دراسة جادة للأدب وأدبائه وللعوامل والمؤثرات الحتمية التي تتحكم فيه وفي منهجه وما ينتجون من آثار أدبيه ، حتى ليتم قول : « إن الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة يُعيد لها الخطيب والرسالة ينسجها الكاتب الأديب ، كل أولئك نسيج من العزل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل

الكيمياء » . وقد يكون طه حسين مسرفاً في تصور هذه الجبرية التي تشمل جميع الأدباء في العصر دون أي تفریق بين أديب وأديب ودون أي مراعاة لفردية الأديب ومواهبه الذاتية ، غير أنه كان من الضروري وهو يضع - لأول مرة - قواعد التاريخ للأدب العربي وأدبائه أن يقرع أسمع من يحاولون التصدي للدراسة هذا التاريخ بأن واجبهم أن يعكفوا على دراسة المؤثرات البيئية والسياسية والاجتماعية والعقلية والحصارية في العصر وفي أدبائه وما أنتجوا من شعر ونثر ، ويوضحوها توضيحاً تاماً ، ومن الخير أن لا يعطوها صمة الحتم والجبر والإلزام ، ولكن لا بد من استقصائها حتى تستبين سمات الأدب في العصر والعوامل التي تفاعل معها استبانة كاملة .

وجعل طه حسين الرمالة في تمهيد وحمس مقالات ، وتحدث في التمهيد عن مصادر الدراسة العربية القديمة والحديثة ومصادرها الإنجليزية والفرنسية ، وفي المقالة الأولى عرض زمان أبي العلاء ومكانه وشعبه ،

ونُدَّره وأطواره وخصائصه . وفي المقالة الرابعة يعرض علمه وكتبه . ويتحدث في المقالة الخامسة عن فلسفته الطبيعية ، والإلهية والعملية وخصائصه الفلسفية .

ولعلنا لانبالغ إذا قلنا إن هذه الرسالة تعد بدء التاريخ الدقيق لوضع الأسس القويمة لتاريخ الأدب العربي ، بحيث يدرسُ دراسة علمية سديدة كما يدرس أعلامه دراسة تحليلية تتبين فيها روح العصر بكل مشخصاته الزمانية والبيئية ، وبعبارة أخرى بكل مؤثراته - أو كما يقول بكل علله البيئية والسياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعقلية ، وقد جلى شخصية أبي العلاء جلاء تاماً وصور منزلته الأدبية والعلمية والفلسفية تصويراً بالغ الدقة ، ومهما اختلفنا معه - أو اختلف

بعض المعاصرين - إزاء بعض أحكامه عليه وخاصة على فلسفته وآرائه العقلية فإن هذه الرسالة تؤرخ - كما أسماها - البدء الحقيقي لدراسات الأدب العربي وتاريخه في القرن العشرين إذ وضعت على منهج سديد يستصحب بما اتخذه الغربيون في دراسات

وموضع عصره من العصور العباسية ملاحظاً أن ربط مؤرخي الأدب العربي بين السياسة والأدب يجر إلى حيف شديد ، لأن الدولة قد تضعف ويظل الأدب مزدهراً ولا يزال هناك من يردد هذا الرأي ، غير أنه من الصعب وضعُ بديل سوى السياسة للعصور الأدبية ، وهي في واقعها رمز ، لأن العصور الأدبية لا تنشأ فحاة ولا هي تنشأ بمراسيم سياسية ، إنما تنشأ تدريجاً وتتخذ حادثة سياسية كبيرة رمزاً لنشأتها على نحو ما صنعنا باتخاذ سنة ١٣٢ للهجرة بدءاً للعصر العباسي ، وكانت مقدماته بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات غير قليلة - ويعرض طه حسين في المقالة الأولى أيضاً الحياة الاقتصادية والدينية والاجتماعية والعقلية والفلسفية والأدب في العصر والعلوم الأدبية واللغة .

وفي المقالة الثانية يتحدث عن حياة أبي العلاء فيعرض قبيلته وأسرته ومولده واسمه ولقبه وكنيته وتربيته وتعليمه ، ومراحل حياته وأحداثها مفصلة غاية التفصيل . ويتناول في المقالة الثالثة أدبه وشعره في سقط الزند واللزوميات والدرعيات

الأدب وتاريخه من مناهج محكمة قوية مع الانتفاع فيها بمنهج شيخه المصنف وعنايته فيه باللغة والنقد وصقل الذوق الأدبي . ولما أظهر في رسالته من الاستعداد العلمي في دراسة الأدب وتاريخه قررت الجامعة الأهلية إرساله في بعثة إلى فرنسا سنة ١٩١٤ ورأى نهضة الفكر الأوربي تعتمد على الأصول الكلاسيكية اليونانية واللاتينية . فاقبل على التزود من تلك الأصول بتعلم الإغريقية واللاتينية ، وأخذ يختلف إلى محاضرات دور كايم في علم الاجتماع ، وأعجبته دراساته الاجتماعية وأعد بإشرافه رسالته للحصول على الدكتوراه في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية كما توضيحها مقدمته المعروفة وكان يختلف إلى محاضرات ديبل عن الحضارة البيزنطية ولفي برول عن فلسفة ديكارت ولانسون عن تاريخ الأدب الفرنسي ، وكان يرفع من شأن الذوق وما يثيره في الناقد الأدبي من انطباعات وإحساسات وتأثرات بحيث يستهوى قارئه ويجذبه إلى ما يقوله ، وأعجبه منهجه التأسري الذاتي في دراسة الأدب ، واختلف إلى محاضرات كازانوفا في تفسير القرآن الكريم وهو في أثناء ذلك كله ظل يعني بتاريخ اليونان والرومان

عناية أُنشأت له الحصون على دباوم الدراسة العليا في القانون المدني لروماني . وعاد إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩١٩ فعيّن بالجامعة المصرية أستاذًا للتاريخ القديم اليوناني والروماني . ويظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٥ وينشر خلال هذه السنوات طائفة من الكتب والمقالات تأليفًا وترجمة حول التراث اليوناني . ويصدر حزب الأحرار الدستوريين صحيفة السياسة في أواخر سنة ١٩٢٢ لتكون اللسان المعبر عن الحزب ومبادئه وأهدافه . ويصبح طه حسين كاتبها الأدبي . وينشر فيها يوم الأحد قصة مخصصة عن الأدب الفرنسي وكل يوم أربعاء ينشر فصولاً عن الشعر والشعراء في أواخر العصر الأموي والعصر العباسي الأول . بدأها في ديسمبر سنة ١٩٢٢ واستمر حتى فبراير سنة ١٩٢٤ وفيها عرض أباواس وشعراء الخمر واللهو من الوليد بن يزيد إلى مروان بن أبي حفصة ماراً بمطيع بن إلياس وحماد عجرد وبشار وواليه وغيرهم من المجان . وثار عليه كثيرون وعدوه مشوهاً لتاريخ العرب في حقبة ماهرة من حقب تاريخهم زمن المنصور والمهدي والرشد . ورد بأن العلم ينكر تقديس السلف ولا يعرف الهوى ولا العواطف واستشهد بعصور في تاريخ

ينبغي أن يصور ما خافوه من انطباعات في نفوس النقاد عن طريق التذوق الشخصي لأشعارهم . وسيعود طه حسين إلى ذكر مناهج النقاد الفرنسيين في دراسة الأدب عما قليل بصورة أكثر سعة وتفصيلاً .

وتتحول الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة حكومية منذ ١٩٢٥ ويصبح طه حسين أستاذاً فيها للأدب العربي وتاريخه ، وأخذ في محاضراته طوال هذا العام يعنى بدراسة العصر الجاهلي أقدم عصور الأدب العربي ، وما أن استدار العام حتى نشر كتابه : « في الشعر الجاهلي » مستعيناً فيه بمناهج الغربيين في دراسة الشعر اليوناني القديم ، وأحدث الكتاب ضجة هائلة في الأوساط الدينية والعلمية والسياسية والرأى العام بشكّه الواسع في الشعر الجاهلي وتعرضه فيه لبعض مسائل تمس الدين ، فصدر الكتاب . وفي السنة التالية أعاد نشر الكتاب في صورة معدلة وبعنوان جديد هو : « في الأدب الجاهلي » وفيه رسم منهجه في دراسة تاريخه ، وكانت بعض أسس هذا المنهج قد نشرها مفرقة في رسالته عن أبي العلاء وفي المقالات التي نشرها في السياسة والتي تحدثنا عنها آنفاً

اليونان القديم وتاريخ فرنسا الحديث كانت من أروع العصور ومن أكثرها لهواً ومجوناً وأضاف إلى هذه الفصول فصلاً عن شعراء الغزل في العصر الأموي ، وجميع هذه الفصول منشورة في الجزء الثاني من حديث الأربعاء ، وفي تضاعيفها نظرات وآراء في الشعر العربي وتاريخه مما أفاده في دراسة الأدب من أساتذته الفرنسيين ونراه في المقالة السابعة من الجزء يتحدث عن الغاية من نقد الشاعر ويرجعها إلى محاولة فهم شخصيته ، وعصره وبيئته ، وما يحدثه شعره في نفس الناقد من لذة فنية ، ويعرض في إجمال منهج سانت بييف Sainte Beine في نقد الشعراء وتحليل لشخصياتهم ومنهج تين Taine في عدم عنايته بشخصياتهم وإنما بعصورهم وبيئاتهم والأمم التي ينتمون إليها ومنهج جول ليمنتر Jules Lemaitre في عنايته بتأثير الشعراء في النفوس وما يبعثون فيها من العواطف ، ويرى الانتفاع بكل هذه المناهج في دراسة الشعراء ، وانتفع أيضاً بمنهج أستاذه لانسون في نقد الشعراء وأنه

فضم شوارد تلك الأسس وألف منها نسقاً واضح المعالم لمنهج .

ويتحدث في فواتح الكتاب عن دراسة الأدب العربي وتاريخه بمصر في معاهده المختلفة ويقول إنها عقيمة أشد العقم محدبة أشد الإجداب إذ لا تنشئ ملكة أدبية . ولا قدرة على النقد والتحليل ولا تصوراً سليماً لتاريخ الأدب ودراسة شخصيات الأدباء وما ينتحون من شعر ونثر ، ويقول إن مؤرخ الأدب العربي لا بد له من أن يكون واسع الثقافة باللغة وعامها والعلوم الدينية والتاريخ وتقويم البلدان والفلسفة والآداب الأجنبية القديمة والحديثة ، ويعرف الأدب بأنه مأثور الكلام شعراً ونثراً ، ويقسمه إلى أدب إنشائي وهو ما يستجه الأديب من آثار فنية شعرية ونثرية وأدب وصفي وهو الذي يدرس الأدب الإنشائي مفسراً أو مؤرخاً ومحللاً وناقداً ، ويقول . إن الأدب الوصفي هو ما سماه المحدثون باسم تاريخ الأدب

ويأخذ طه حسين في بيان مقاييس التاريخ الأدبي ، ويبدوها بالمقياس السياسي

وما يترتب عليه من تقسيم الأدب العربي إلى عصور ، ويرفضه كما رفضه في مقدمات رسالته عن أبي العلاء لما يحذر إليه من الربط بين قوة الأدب وضعفه وقوة الدولة من الناحية السياسية وضعفها ، فهو راق خصب إذا ارتقت الحياة السياسية . وهو جذب منحط إذا انحطت الحياة السياسية ومعروف أن الحياة السياسية العربية انحطت في القرن الرابع الهجري وارتقى الأدب وازدهر ، فالسياسة لا تصلح مطلقاً - كما يقول - أن تكون مقياساً دقيقاً للحياة الأدبية .

ويعرض المقياس الثاني لدراسة تاريخ الأدب ويسميه المقياس العلمي ، وهو مقياس اشترك في وضع مباحه ثلاثة من مؤرخي الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر أرادوا - بتأثير النهضة العظيمة للعلوم الطبيعية في عصرهم وسيطرة مناهجها وقواعدها في دراسة الفلسفة وظهور ما سمي فيها بالفلسفة الوضعية - أن يخضعوا الأدب وتاريخه لقوانين ثابتة كقوانين العلوم الطبيعية المطردة الثابتة . ونهض بذلك ثلاثة من أفذاذ مؤرخي الأدب

الطبيعة التي تخضع فيها جميع الحزقيات لكل قانون خضوعاً مطلقاً دون أى شذوذ ، ورد هذه القوانين إلى ثلاثة ، وهى الجنس والبيئة أو المكان ، والعصر أو الزمان -^١ أما الجنس فيُمثل فى الفطرة الموروثة لكل أمة تنتمى إلى أصل واحد ، وأما البيئة فيقصد بها الوسط المكافئ الذى ينشأ ويضطرب فيه جميع الأفراد فى الأمة بحيث يشتركون فى صورة واحدة من الروح الاجتماعية ومن الأخلاق والعادات وأما العصر فيقصد به الظروف السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية ، فالشاعر والكاتب إنما هو أثر من آثار الجنس والبيئة والعصر ، والغرض القويوم من دراسة تاريخ الأدب إنما هو بيان هذه المؤثرات أو بعبارة أدق القوانين التى أحدثت الكاتب أو الشاعر وأرغمته على أن ينتج ما أنتج من نثر أو شعر .

وأما برونيتير فقاده الأخذ بمناهج العلوم الطبيعية وقوانينها الجبرية - فى دراسة الأدب إلى تطبيق ما ذهب إليه داروين فى علم الأحياء من نظرية التطور أو نظرية النشوء والارتقاء فوضع فى ذلك كتابه :

الفرنسيين هم : سانت بييف Sainte Beune وتين Taine وبرونيتير Brunetiire أما الأول فرأى أن يرجع هذه القوانين إلى دراسة شخصيات الشعراء والكتاب دراسة نفسية عضوية تشمل عصورهم وأوطانهم وأسرهم وتربيتهم وتعلمهم ، وثقافتهم وتكويناتهم الجسمية والعقلية النفسية وصلاتهم الاجتماعية وجوانب ضعفهم وكل ما اضطربوا فيه من آراء ومن نجاح وإخفاق حتى إذا اتصحت فى شخصية الأديب كل هذه الجوانب استطاع مؤرخ الأدب أن يعرف ما يميز شخصيته ، وما يشترك فيه مع شخصيات أخرى بحيث يكون معها فصيلة أدبية فى الأمة على نحو ما يصنع علماء النبات فى تبين الفصائل النباتية المختلفة إذ يُستخلص للفصيلة الأدبية قانونها العلمى الأدبى كما يُستخلص هؤلاء العلماء لفصائل النبات قوانينهم العلمية الصرفة .

ومضى تين إلى نهج أبعد ، إذ لم يعتد فيه بشخصية الأديب الفردية ، إنما اعتد بقوانين حتمية جبرية تطبق على جميع أفراد الأمة . دون أى استثناء ، كقوانين

« تطور الأنواع الأدبية » محاولاً تقسيمها في الشعر والنثر إلى فصائل كفصائل الكائنات الحيوانية فهي مثلها يتولد بعضها من بعض ، وقد تتلاشى كما تلاشت بعض فصائل الحيوان ، وأخذ يطبق ذلك على المسرح والنقد الأدبي والشعر الغنائي ، واتخذ من ازدهار النوع الأخير بفرنسا في القرن التاسع عشر دليلاً على أن نوعاً أدبياً تلاشى في نوع آخر ، إذ ذهب إلى أن هذا النوع أو الشعر لم يتطور عن أصل من نوعه ، إنما تطور عن الوعظ الديني الذي ازدهر بفرنسا في القرن السابع عشر ثم ضعف وعاد يحيي من جديد في هذا الشعر الغنائي للقرن الماضي .

ويعتبر طه حسين على هذا المقياس العلمي عند مؤرخي الأدب الفرنسيين الثلاثة بأنهم كانوا غير موفقين فيما حاولوا من وضع قوانين علمية للأدب وتاريخه كقوانين العلوم الطبيعية لأن تاريخ الأدب لا يمكن أن يكون علماً خالصاً ، إذ لا يمكن لمؤرخ الأدب أن يبرأ من شخصيته وذوقه على نحو ما يبرأ عالم الطبيعة في وضع قوانينها العلمية . وهذا التفكير إلى مقياس ثالث

لتاريخ الأدب سماه المقياس الأدبي . وهو فيه يسمح مجالاً واسعاً للتذوق وتعبير مؤرخ الأدب عن انطباعاته إزاء الأثر الأدبي وصاحبه ، حتى يتمتع عقول قرائه وقلوبهم بتأثراته الذاتية . وهو في ذلك يستصفي باراء أستاذه لانسون ، مؤرخ الأدب الفرنسي وما كان يذهب إليه من الحملة على أصحاب المسهج العلمي السالف لما يؤدي إليه من مسخ تاريخ الأدب في رأيه ، إذ يخليه من شخصية المؤرخ الأدبي وتذوقه الشخصي . ويجعله جافاً مجدياً لا يحبب الأدب إلى القراء

ولم يعجر مع أستاذه إلى نهاية الشوط . فقد رأى أن يعيد مؤرخ الأدب من المناهج العلمية السالفة وأن يضم إليها تأثره وتذوقه للآثار الأدبية ، بحيث لا يطغى التذوق والتأثر أو بعبارة أخرى لا تطغى شخصية المؤرخ الأدبي على تاريخ الأدب وتتحكم فيه . وإلا أصبح فناً ولم يعد تاريخاً أدبياً وكما أنه يسعى أن لا يصبح علماً خالصاً كذلك ينبغي أن لا يصبح عملاً فنياً خالصاً ، وانهجته الذي ارتضاه بذلك لدراسة تاريخ الأدب أن يتخذ فيه سبيل

وسيط بين المناهج العلمية الصارمة السالفة وبين منهج لانسون التآثرى الدائى ، وتأثر بلانسون أيضاً فيما ذكره من أن مؤرخ الأدب ينبغي أن يستعين بمعارف متنوعة من التاريخ الحضارى للأمة وتراجم الأدباء وتواريخ العلوم والفلسفة والعلوم اللغوية ، مما جعله يذهب إلى أن دراسة الأدب ينبغي أن تمر بمرحلتين : مرحلة إعداد يتقن فيها مؤرخ الأدب علوم النحو و فقه اللغة ، والصرف والبيان والتاريخ ومعرفة مناهج البحث الأدبى ، حتى يستكشف النص الأدبى ويحققه ويضبطه ، ومرحلة ثانية تلى مرحلة الإعداد ، وفيها يتبين مواضع الجمال فى الأثر الأدبى معتمداً فى ذلك على الذوق الشخصى وبيان انطباعاته إزاءه مع ما ينبغي له من الحرية الفكرية فى البحث والنقد والتحليل .

ويدرس طه حسين بعد بيان منهجه وتفصيله الأدب الجاهلى محتكماً فى دراسته إلى منهج الشك الذى أوجب استخدامه الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى البحث ، وهو يتلخص فى أن الباحث ينبغي أن يدرس موضوعه خالى الذهن مما قيل فيه

دون استشعار أى شىء من عواطفه الدينية والقومية وقد مضى على هدى هذا المنهج لا يقبل حكماً ولا رأياً مما قاله القدماء إلا بعد تمحيص دقيق له ، ولا يلبث أن يعلن أنه درس الأدب الجاهلى دراسة علمية انتهت به إلى نظرية عامة هى أن الكترة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، ولا ينبغي الاعتماد عليها فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة للعصر الجاهلى ، وتحدث عن أسباب الوضع والانتحال فى الشعر الجاهلى وردّها إلى السياسة والدين والقصص والشعرية والرواة ، ثم درس الشعراء الجاهليين دراسة تطبيقية ، وبدأ بشعراء اليمن وربيعه وشك فى حقيقة امرئ القيس ، وانتهى إلى رفض شعره وأشعار اليمنيين ورفض - أو كاد يرفض - أشعار شعراء ربيعة ، إذ جمهورها - فى رأيه - منتحل مصنوع ، وذهب إلى أنه لم يسلم من أشعار مضر من الانتحال إلا القليل ، ومن هذا القليل مدرسة زهير وعنى بدراسة شعرها وخصائصه ، وأنكر النشر الجاهلى جملة ، وقال إننا لانستطيع أن نخلص

الأمثال الجاهلية من الأمثال الإسلامية ، فقد اختلط النوعان من الأمثال اختلاطاً واسعاً . وكتبت عشرات المقالات في الصحف وألفت طائفة من الكتب تعارض نظرية الكتاب في أن الكثرة من الشعر الجاهلي منحولة موضوعاً ، غير أن النظرية أدت دوراً مهماً في دراسة هذا الشعر إذ أصبح شعراؤه لا يدرسون إلا بعد مراجعة دقيقة لروايات أشعارهم ونفي الزائف منها والاعتماد على الوثيق منها الذي لا تتدخله الشبهة والارتياب .

ونمضى مع طه حسين إلى سنة ١٩٣٣ وفيها ينشر كتاباً عن حافظ وشوقي وهو في مجموعة نقد للشاعرين الكبيرين . وينشر طائفة من المقالات في بعض الصحف اليومية عن شعراء جاهليين ومخضرمين ، اختار فيها لكل منهم قصيدة مصوراً فيها انطباعات له بديعة ممتعة ، وجمعها في الجزء الثاني من حديث الأربعاء - وألقى مجموعة من المحاضرات تحدث فيها عن منزلة الأدب العربي بين الآداب القديمة الكبرى : اليونانية واللاتينية والفارسية ، ورأى أنه يتقدم الأدبين اللاتيني والفارسي

وأخذ في عرض النثر أثناء التمرين الثاني والثالث للهجرة وأعلامه التاميين : سالم مولى هشام بن عبد الملك كاتب الإنشاء في دواوينه وخليفته في الدواوين الأموية . عبد الحميد الكاتب وذهب إلى أنه كان يتأثر في صياغة كتابته باليونانية الكثرة استخدامه للحال ، وهي لازمة تلاحظ عند أستاذه سالم من قبله وتحدث عن ابن المقفع وشبهه بالمستشرقين الذين يحسنون العربية ويعيهم أحياناً الأداء السديد غير آبه بشناء القدماء عليه وعدهم له أحد الأدباء الأوفاد الذين يتقدمون أدباء العصر العباسي وكتابه ، ونوه بالحافظ ورسائله البديعة : « التربيع والتدوين » . وأضاف إلى هذه المحاضرات محاضرات عن كبار الشعراء في القرن الثالث الهجري . أبي تمام ، والبحتري وابن الرومي وابن المعتز . ونشر هذه المحاضرات جميعاً في كتابه : « من حديث الشعر والنثر » وهو يجلو جوانب من الأدب العربي نشرًا وشعرًا في القرنين الثاني والثالث للهجرة وفي سنة ١٩٣٧ أصدر كتابه مع المتنبي وهو فيه يدرسه دراسة نفسية تاريخية فنية . تتبعه فيها

ويسر الجزء الثالث من حديث الأربعاء وهو يصم مقالات متنوعة بعضها نشره في صحف يومية منذ سنة ١٩٢٣ وبعضه نشره بها في السنوات الأخيرة ، ويدخل في القسم الأول ما كتبه من مقالات عن القديم ، والحديد والرافعي وعن أعمال بعض المفكرين والباحثين والأدباء ويدخل في القسم الثاني ما كتبه من مقالات نقد فيها الإبداع الشعري عند علي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود أبي الوفا وإيليا أبي ماضي وفوزي المعلوف ويعود إلى أبي العلاء ، فيعرض طائفة من شعره وفكره وفلسفته في كتابه : « مع أبي العلاء في سجنه » ثم يعود إليه ثانية في كتابه « صوت أبي العلاء » ناظراً طرائف من شعره . وطه حسين - بكل ما قدمت - يعد الرائد الموجه الفضل لدراسات الأدب العربي وتاريخه ودراسات شعرائه المبدعين في القديم والحديث .

نوفى ضيف
الأمن العام للمجمع

منذ مولده ومنته في أسرة متواضعة . ورأى أن شعوره بهذا الصعف من ناحية أسرته وأهله الأديسين كان العنصر الأول المؤثر في شخصيته وبغضه للناس وما أخذ حياته من الشنود ، ويرافقه في تعلمه وارتحاله إلى المادية وبدء نظمه للشعر وتعرفه على مبادئ القرامطة ومفارقته للكوفة في السابعة عشرة من عمره وإليه ببغداد لمدة قصيرة وتحوله إلى الشام وثورته فيها وسجنه ومديحه للأمراء هناك وإقامته فترة في بلاط سيف الدولة ، وتحوله إلى كافور بمصر وفراره منها إلى العراق وارتحاله إلى إيران لمديح ابن العميد وعضد الدولة ، ويعود من لدهما ويفتك به القرامطة في طريقه إلى بغداد . ويدرس طه حسين المتنبي في كل ذلك محللاً نفسيته وشخصيته وشعره ويحمل عليه مراراً ويقول إنه كان متهاكاً على المنافع العاجلة وطلب المال من ممدوحيه الكثيرين ، وصباً عنانيته في الكتاب على شخصية المتنبي لا على شعره ، وعلى جوانبه التاريخية لا على جوانب فنه .



التربية المثلى للشباب في ضوء الإسلام للكتور حسن الفاتح قريبات

حرص الإسلام على تربية النشء من الذكور والإناث فهياً لهم ولما يزالوا في بطون أمهاتهم الرعاية التامة ، وجعل لميلادهم فرحة في الأسرة فسن لهم النسك^(١) أو العقيقة إعلاناً له^(٢) ، وأوصى باختيار أحسن الاسماء للأبناء^(٣) ، وشارك النبي عليه الصلاة والسلام في تسمية بعضهم حيث سمى ابناً لاسماء بنت أبي بكر بعبد الله بن الزبير^(٤) ، كما وضع إطاراً عاماً لتسمية المولودين في عصره وبعده ، فتمال : إن أحب أسمائكم إلى عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها

حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة ؛ وقال : لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحاً ولا نجيحاً ولا أفلح ؛ فإنك تقول : أثم هو ؟ فلا يكون ، فيقول . لا . أما هن أربع ، فلا تريدن عليها^(٥) .

وأوصى رسول الله ﷺ الأيوين بمساعدة أبنائهم على الاستمرار على الفطرة ، فلا يهودانهم ، ولا يمجسانهم ولا ينصرانهم فقال : كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الثامنة من جلسات المؤتمر المسعقة يوم الثلاثاء ٩ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٦ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

- (١) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٩٢ فما بعدها .
- (٢) الفيروزبادي : سفر السعادة ص ٨٦ والأحياء ج ٢ ص ٦٩ .
- (٣) الفيروزبادي : سفر السعادة ص ٨٧ والأحياء ج ٢ ص ٦٩ .
- (٤) أبو نعيم الأصفهاني : حلية الأولياء ج ١ ص ٣٣٣ وسفر السعادة ص ٨٦ .
- (٥) الفيروزبادي : سفر السعادة ص ٨٧ والأحياء ج ٢ ص ٦٩ .

وجسده عليه الصلاة والسلام العظماء
عملياً أمام الصحابة حين سعى لعيادة ابن
صغير لبعض بناته ، فتناولوه وروحه تقلقل
في صدره ، وبكى قائلاً : إنما يرحم الله
من عباده الرحماء^(٥) ، وروى أن الحسن
رضي الله عنه كان وهو صغير يصير على
ظهره عليه الصلاة والسلام وهو ساجد ،
فيرفعه رفعاً خفيفاً ، وكان يقعد في حجر
رسول الله ﷺ ، ويلبس لحيته ،
ورسول الله يفتح فمه ثم يدخل فمه في
فمه ، ويقول : اللهم إني أحبه فأحبه
وأحب من يحبه ، يقولها ثلاث مرات^(٦)
وروى أنه مسح على رأس ابن صغير لابن

بمجلسانه^(١) وأوصاهم عليه الصلاة والسلام
كذلك بتلقين أبنائهم الأذان والإقامة ولما
يزالوا في المهد ، وأذن هو عليه الصلاة
والسلام في أذن الحسن بن علي بالصلاة
حيث ولدته فاطمة رضي الله عنها^(٢) .

وسنّ لأُمَّته جمعاء التحنيك ، فمضع
تمرّة ، ثم وضعها في فم عبد الله بن الزبير
وكانت أُمّه أسماء بنت أبي بكر قد جاءت
به إليه قبل أن ترضعه ، وبذلك كان أول
شيء دخل بطن ابنها ريق رسول الله ﷺ^(٣)

مزح الرحمة القلبية عملياً بالدين ،
فقال : ليس ممّا من لم يرحم صغيرنا
ويوقر كبيرنا^(٤) .

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) قال ابن رافع رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسن بن علي حيث ولدته فاطمة بالصلاة
سفر السعادة ص ٨٧ والأحياء ج ٢ ص ٦٩ .

(٣) العرائل : الأحياء ج ٢ ص ٧٠ .

(٤) رواه أبو داود والترمذي .

(٥) عن أسامة بن يزيد قال : كان ابن بعض بنات رسول الله عليه وسلم يقضى فأرسلت إليه أن يأتيها
فأرسل إليها أن الله ما أخذ ، والله ما أعطى ، وكل شيء عنده إلى أجل مسمى فلتصبر ولتحتسب . فأرسلت
إليه فأقسمت عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل تناولوه الصبي وروحه تقلقل في صدره
فكفى فقال له عبادة بن الصامت . ما هذا يا رسول الله فقال الرحمة التي جعلها الله في بطنه دم وإنما يرحم الله
من عباده الرحماء ، رواه الشيخان ونقله السيوطي في كتابه التعال والإطفاء لنار لا تطفي بخطوط صغير بدار
الكتب الوطنية بباريس وهو ضمن مجلد كبير رقمه ٢٨٠٠ الورقة ٢٤٠ هذا وقد طبع المخطوط مع غيره تحت
عنوان الفتاوى .

(٦) أبو نعيم الخلية ح ٢ ص ٣٥ .

بنت حميد ودعا له^(١) ، وأردف خلفه بعض الغلمان ، وخصَّه برعايته ، ووجهه عبره كل الأمة مُبيناً لهم حقوق الله عليهم وحقوقهم على الله .

يقول معاذ بن جبل رضى الله عنه : بينما أنا رديف النبي ﷺ ، ليس بيني وبينه إلا آخرة الرجل ، فقال : معاذ ، قلت : لبنيك يا رسول الله وسعديك . قال : هل تدري ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ بن جبل ، قلت : لبنيك رسول الله وسعديك . قال : هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق العباد على الله أن لا يُعذبهم^(٢) .

وكرر عليه الصلاة والسلام هذا الأسلوب التربوي مع آخرين كان من بينهم سيدنا

عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، يقول ابن عباس : كنت رديف النبي ﷺ فقال : يا غلام أو يا غلاماً ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، فقلت : بلى . قال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد خفت القلم بما هو كائن^(٣) ، ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئاً لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه ، وعلى أن يمنعوك شيئاً كتبته الله عز وجل لك لم يقدروا عليه ، فاعمل لله تعالى بالرضى في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ؛ وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً .

وكان من تربيته عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه البخارى راجع السمط المحيد ص ٥٦ ونص الحديث : حدثنا أبو عقيل عن جده وكان قد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وذهبت به أمه بنت حميد إلى رسول الله (ص) فقامت يارسول الله بايعه : فقال النبي (ص) هو صغير ، فمسح رأسه ودعا له .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه أحمد بإسناد حسن والخطبة ج ١ ص ٣١٤ .

وَأُوكل لعُتَاب بن أُسَيْد وكان ابن عشرين سنة - أو إحدى وعشرين - إمارة مكة وقضاءها^(٢) ، وكذلك فعل مع معاذ بن جبل. ومما يذكر أنه أوصى معاذاً حين توليته بقوله : يا معاذ إني أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، ووفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورحمة اليتيم ، وحفظ الجار ، وكظم الغيظ ، وخفض الجناح ، وبذل السلام ، ولين الكلام ، ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والحرص من الحساب ، وقصر الأمل ، وحسن العمل ، وأماك أن تشتم مسلماً ، أو تكذب صادقاً ، أو تعصى إماماً عادلاً .. يا معاذ إذا ذكر الله عند كل حجر وشجر ، وأحدث مع كل ذنب توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية^(٣) وكان معاذ هذا على رغم صغر سنه موضع احترام وتقدير وإكباراً صحابة رسول الله

التَّيَّاب أن أكرمهم ، وعمل على بناء شخصيتهم ، وإبراز دورهم وتجسيد تقديره لهم ، فأفصح لهم المحال لمشاركة كبار الصحابة في حلقات البحث العلمي ، وفي صلاة الجماعة ، وأعلا من شأنهم فخصصهم بالذكر وجعلهم من السبعة الذين يظلهم الله يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ .

فمن أبي هريرة رضى الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قال : سبعة يُظلهم الله في ظاه يوم لا ظل إِلَّا ظِلُّهُ : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساحد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عاياه وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب ، وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه^(١) .

(١) متفق عليه .

(٢) المغني عن حمل الأسفار هامش ص ١٩٣ ح ١ .

(٣) رواه ابن عمر راجع بحلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ح ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١ وراجع المغني عن حمل الأسفار ص ١٩٣ ح ١ ،

ﷺ ، حتى أنه ليذكر أنهم كانوا ينظرون إليه إذا تحدث بينهم نظر هيبة له^(١)

وتقديرًا من رسول الله ﷺ لدور الشباب أوكل لأسماء - وكان دون العشرين - قيادة جيش المسلمين ، علمًا بأن في الجيش من هم آمن منه ، وأقدم منه إسلامًا . وأتاح لهم فرص التعليم ، والتربية والاستقرار الأسري ، وكان مما قال : ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتهما ، إلا أدخلناه الجنة^(٢)

وتولى هو عليه الصلاة والسلام تربية بعض الشباب في بيته ، فقام بتربية سيدنا علي ، والسيدة عائشة رضي الله عنهما ، وكانا صغيرين. كما قام كذلك بتربية نسله الطاهر الشريف من البنين والبنات ، وتبنى بالإضافة إلى هؤلاء وأولئك عددًا من الشباب كان من أشهرهم زيد بن حارثة ..

وكان لا يفتأ يسبغ رعايته وعظمه ورحمته وأبوته على اليتامى والمساكين وأبناء المعسرين .. ومما يروى في هذا الصدد أنه اتفق أنه قابل شابًا يائسًا وسط آخرين مبتهجين مسرورين فرحين فاصطفاه عليه الصلاة والسلام وقربه ، وأصلح من حاله وزينه وهيئته .. وقال له وهو يرفع من قدره : أما ترضى أن أكون لك أنا ، وعائشة أم المؤمنين لك أمًا ، وفاطمة اختنا^(٣) ؟

وأناخ عليه الصلاة والسلام ناقته ليحمل معه عليها أسماء بنت أبي بكر الصديق ، حيث رآها مجهدة بالسير ، وبما كانت تحمله على رأسها من أنوى ، غير أن حياة السيدة أسماء وغيرة زوجها ، جعلها تؤثر المشي على الركوب^(٤) .

وأثر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال

(١) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ح ١ ص ٢٣١ هذا وقد جعل الهمزة الهية من صفات الرئاسة ج ١٤ ص ١٥٠ عند تفسيره لقوله تعالى (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين) الأعراف آيات ٥٩ - ٦٤ هـ

(٢) محمد علي فياض : التاريخ الإسلامي عصر الخلفاء الراشدين طبع مطبعة المتوكل بمصر سنة ١٩٤٩ ١٩٥٠ م ص ٩٣ - ٩٤ .

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .
(٤) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧ .

عن صغير كان وقد بنى سعد هذيم من
قضاة قد خلفوه على رحلهم : أصغر
القوم خادمهم ، بل لقد أمر عليه الصلاة
والسلام هذا الصغير على كبار الصحابة
وزعماء الوفد ، إعلاء منه عليه الصلاة
والسلام لمكانة الخدمة الاجتماعية في
الإسلام^(١) .

وروى مسلم عن عروة عن عائشة رضى
الله عنها قالت : إن أبا بكر دخل عليها
وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتصربان
ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى
بشوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف
رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، وقال :
دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد .

وإدراكاً منه عليه الصلاة والسلام للملأه
البرئ المتسق مع الخلق - من دور نفسى ،
وتربوى ، في تقويم السلوك وتهذيب الطباع -
أباح للنساء والرجال أصنافاً منه وضروباً ،
فكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تلهو
وهى صغيرة فى بيت الرسول عليه الصلاة
والسلام - بما يدخل عليها المسرة ويطرد
عنها الملل ، وحيث شئت وكبرت أتاح
لها رؤية الحبش وهم يرقصون . تقول السيدة
عائشة رضى الله عنها : جاء حبش يزفون
فى يوم عيد فى المسجد . فدعا النبى ﷺ
فوضعت رأسى على منكبيه ، فجعلت أنظر
إلى لعبهم . حتى كنت أنا التى أنصرف
عن النظر إليهم

وفى رواية أخرى عن السيدة عائشة أنها
قالت : دخل على أبو بكر وعندى جاريتان
من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت به
الأنصار يوم بعث . قالت : وليستا
بمغنيتين . فقال أبو بكر : أبزمور الشيطان
فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
وذلك فى يوم عيد ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : إن لكل قوم عيداً وهذا
عيدنا .

وأورث عليه الصلاة والسلام الشباب
مكارم الأخلاق ، إذ رباهم على طاعة
الوالدين ، والبر بهما ، ومراعاة شعورهما
وإسباغ ثوب الرحمة عليهما . بل لقد آثر

(١) محمد أحمد حاد المولى : محمد المثل الكامل الطبعة الأولى بمصر ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م ص ١٢٩ .

العلاقات الإنسانية بينهم فقال : ألا أدلكم على ما تحبون به أفشوا السلام بينكم ، أفشوا السلام تسلموا ، وقد اعتبر الإسلام السلام الذي يُلقيه الفرد لمن عرف ومن لم يعرف ، من أفضل القربات التي يكسب بها رضا ربه ، ورضا الناس . فقال عليه الصلاة والسلام : إن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .. ورفع رسول الله ﷺ من قدر السلام فجعله من أحد شعب الإيمان حيث قال : ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الاقتار . وجعل عايه الصلاة والسلام المصافحة من تمام التحية ، فقال . تمام تحاياكم المصافحة .

أما الرد على السلام فقد عده الرسول ﷺ من موجبات الرحمة فقال : رحمة على القوم المسلمين الذين لا يردون تحية السلام .. وحذر عليه الصلاة والسلام كل المسلمين من أن يُعرضوا عن رد السلام ، فقال : ما من رجل يمر على قوم مسلمين

برهما حتى على الجهاد ، وقال لمن قدم إليه مبايعاً على الهجرة والجهاد : هل من والديك أحد حتى ؟ فقال الشاب : نعم كلاهما حتى ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : وهل تبغى الأجر من الله ؟ فتأجاب الشاب : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : ارجع إليهما فأحسن صحبتتهما .

وأرجع الرسول ﷺ شاباً قدم إليه للجهاد دون إذن والديه ورضاهما عن خروجه ، وبعد أن سمع منه قوله : يا رسول الله جئتُ أبياعك على الهجرة ، وتركت أبوى يبكيان . قال عليه الصلاة والسلام : ارجع إليهما فأصحبكهما كما أبكيتهما .

وحرصاً منه عليه الصلاة والسلام على مراعاة الروابط الاجتماعية أمر الأبناء بأن يوادوا من كان يواد أبويهم ، ويبروه ، ويواصلوه ، ويُحسنوا إليه فقال عليه الصلاة والسلام : إن أبر البر ، صلة الولد أهل وُدَّ أبيه ^(١) .

وفي إطار العلاقات الاجتماعية أيضاً دل الإسلام الشباب وغيرهم على ما ينمى

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى.

فيسلم عليهم . ولا يردون عاياه السلام ،
إلا أنزع عنهم روح القدس ، وردت عليه
الملائكة^(١) .

هذا ومكارم الأخلاق التي بشها رسول
الله ﷺ للشباب نظرياً وعملياً ، وربى
عليها أمته أكثر من أن تحصى فقد علمهم
السباحة في المعاماة ، والعفو في العطاء ،
والتضحية بالمال ، وبالنفس والوقت ،
وحسب إليهم عمل الخير ، وحشهم على
سمة الرحم ، وعلى زيارة الأحياء والأموات
من المسلمين .

وجعل الصلاة وسيلة لتوثيق الصلة بين
العبد وربيه ، والحج هجرة إليه ، والزكاة
تطهيراً له ، والصوم إعداداً له ، وتدريباً .
أضف إلى ذلك أنه حول بالنية كثيراً من
الأفعال العادية إلى عبادة .. فأصبح تبعاً
لذلك التعليم عبادة ، والزواج عبادة ،
وإمالة الأذى عن الطريق عبادة ، والتربية
البدنية إذا خلت من شوائب الاختلاط ،
واللبس الفاضح وغيرها عبادة .. وصارت
معاونة الزماني والمرضى عبادة ، واحترام

الصغير وتوقير الكبير عبادة ، ومشاطرة
الحيران أفراحهم وأتراحهم عبادة ، حتى
ولو كانوا يهوداً أو نصارى أو غيرهم ..
ومحبة الصالحين والتأسي بهم وانتهاج
طريقهم والانتظام في سلوكهم عبادة ..
والدعوة إلى الله بالمقال والمال عبادة ..
وصار العمل الدنيوي مكتبياً ، أو حقياً ..
أو صناعياً ، أو غيره إذا ما روعى فيه
المولى عبادة . وأصبحت نظافة البدن ،
والمكان ، والوقاية من الأمراض ، والعلاج
منها عبادة .. وتبسم الفرد في وجه أخيه
ومعاونته له عبادة .

وعموماً فقد ربط الإسلام بمنهجه التربوي
بين القيم الدينية والممارسات العملية ،
نسباً بالفرد اجتماعياً ، وحضارياً ، وعقلياً ،
وروحياً ، وخلق منه شخصية متميزة ،
استطاعت أن تبلور شؤون الحياة بما يتمشى
والدين ، وتبعاً لذلك أصبحت نعمة فصل
الدين عن الحياة أسطورة لاصلة لها بفكر
الشباب المسلم ، وعقيدته .

(١) نصر على عبد الهادي . النحية في الإسلام طبع المطبعة الكمالية بعابدين ص ٨ ، ١٢ .

كان الإسلام إذن فصحاً إيجابياً على الإنسانية وطاقة دافعة لها نحو الرقي ، والكمال والرفعة . كان وما يزال هو الدين العملى الوحيد الذى يتفاعل إيجابياً مع قضايا الشباب فى كل العصور . والأرملة والأمم ، هو دين ماضى الأمم . وهو دين حاضرها ، ومستقبلها .

لقد سمت تشريعاته الإلهية على كل

تشريع فاستأصل بحكمته جذور الجرائم . ينشر ألوية العدل . وسوى فى الحقوق والواجبات بين كل الأفراد . بل لقد هباً لغير المسلمين من العدل والرحمة ، - المساواة ما لم يكونوا يتصورون حدوثه فى مجتمعهم الدنيوى ، ومن ثم كان حرص غير المسلمين على دولة الإسلام يماثل حرص المسلمين عليها .

حسن الفاتح قريب الله
عصو المجمع المراسل (من السودان)



الفكر العلمى العربى وحضارة الغرب للدكتور يوسف عز الدين

المقدمة :

التقسية العلمية القائمة على أصول البحث المنظم عندما بنى الحضارة الإنسانية وعندما طور أساليب البحث العلمى وأقامها على أسس قوية ومنهج دقيق فى جميع ميادين العلم التطبيقى وسوح العلم النظرى . رداية من الطب والرعاية وعلم الحيل (الميكانيكا) ووصولاً إلى الأدب والنقد والشعر .

وبالرغم من الجهود التى تبذل والطافات العلمية التى تدر فى سبيل تعريف الجيل المعاصر بقيمة حضارتنا وكثرة المؤتمرات التى عقدت والكتب الكثيرة التى نشرت ومراكز الأبحاث التى انتشرت فى العالم وكأها تؤكد أصالة العلم فى تراثنا وحذوره العميقة فى علوم الغرب وأنه اعتمد عليها فى حضارته فما زال هذا الجيل لا يصدق هذه الحقائق بعد أن نشأ فى

حضارة الغرب التى سيطرت على كل معالم الحياة العلمية المعاصرة ، وليدة البحث العلمى الجاد ، وابة أصول البحث العلمى المنظم لأن العلم هو القاعدة القوية التى قام صرح الحضارة العربية على أساسها . وأصول البحث المنظم طور المعارف العامة وضبط النظريات الحديثة عندما وصعت لها الضوابط فسيطرت على العالم الحديث باستخدام التقنية الحديثة والتطبيق العلمى الحديث ودخلت العلوم فى تجديد المعارف القديمة وتطوير الحضارة المعاصرة وبالتالى تقدمت حياة المجتمع الغربى الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية والمكرية .

ولم يكن الغرب بأقل قدرة وقابلية فى

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة التاسعة من جلسات المؤتمر المعقودة يوم الأربعاء ١٠ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م .

وقد اهتم الغرب بالعلوم العربية والحصارة الإسلامية واعتنى بالحصارة العربية والإسلامية التي أُنشئت العلوم والفنون والقوانين المتنوعة التي كتبت باللغة العربية لأن المسلمين يفصلون اللغة العربية في بحوثهم على الكتابة بلغتهم المحلية ، تقديساً لهذه اللغة ولأنها كانت لغة العلوم والنسب والآداب^(١) .

وفي العصر الحديث كثرت مراكز البحث في الغرب تدرس أصول حضارتنا وتراثنا ونشطت هذه الحركة العلمية في هذه المراكز وكثرت أعمالها في نشر النصوص والتحقيق تارة أو بنشرها مصورة كما هي وترجمت بعض هذه النصوص إلى اللغات الغربية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها من اللغات في مراكز البحث في جامعات فرانكفورت وتوبنغن وباريس وجامعتي أنقرة ، واسطنبول ومعهد وليم في لندن وغيرها .. إضافة إلى عدة جامعات في أمريكا مثل

ظلال الفكر العربي وابهر بحضارته المؤثرة في حياتنا في كل دقيقة . فطلاب العلم لا يرون بغير أصول البحث العلمي عند الغرب بديلاً مع أن هذه الأصول ممتدة الجذور في حضارتنا وأساليب بحث العلماء الأوائل فلو درست كسب التراث دراسة عميقة بوعي وتتبع الدارس المصادر لوحد الكثير مما في حضارة الغرب تفوم أسسه على حضارتنا .

لا شك في أن الحضارة الغربية دخلت طوراً جديداً بما وصلتها من مخترعات ، واكتشافات وأنها أخذت طريقاً جديداً يختلف عن حضارة العرب في التقنية الحديثة لكن الدراسات الكثيرة في مجالات البيئة وحياة المجتمع والفكر الإنساني والقواعد الأساسية في تطبيق العلوم الصرفة عند العرب يمكن أن تمد الباحث بالكثير من الشحارب التي كانت تقوم بها المدارس العلمية في مختبراتها وتجارها في حقول المعرفة كلها .^(١)

(١) يلاحظ نلينو في كتابه (علم الفلك وتاريخه عند العرب) والد وميلي في كتابه (العلم عند العرب) ومهج البحث العلمي^٢ عند العرب لجلال محمد عبد الحميد موسى

هارفرد ولم تتخلف البلاد العربية عن إنشاء مثل هذه المراكز أو المعاهد^(١).

ويظهر أن هذه الأعمال التي تقوم بها هذه المراكز ومعاهد البحث العلمي لم يكتب لها أن تكتسب السيطرة الواسعة في عالم المعرفة المعاصرة ولعلها محدودة الجهود قليلة الإنتاج بالقياس إلى ملايين المخطوطات العربية في العالم لأنها بحاجة إلى دعم كبير لإسماع البحث العلمي العجاذ في حضارتنا لكبر قدر ممكن من القراء وألا تقتصر بحوثها على العلماء والمختصين ليتعرف أكبر عدد من المفكرين على أمانة الباحث العربي ودقة الاستنتاج لديه وأساوبه العلمي المنظم والزبادات الكثيرة التي أضافها على العلوم التي سبقت حضارتنا.

أسس البحث العلمي وفواعده :

للبحث العلمي الحديث قواعد عامة وأسس واضحة محددة وأسلوب منظم - لا يمكن أن يتخطاه كل باحث ودارس في مختلف علوم المعرفة الإنسانية ولعل أقدر على إحازها وهي :

أولاً : الإلمام التام بجهود العلماء الذين سبقتوا الباحث في الدراسة والتتبع والاستفادة من النتائج والفرصيات السابقة بما فيها إن خدمت البحث أم لم تستخدمه . وتتبع ذلك بالبحث في الكتب العلمية والدراسات الجامعية والبحوث المتنوعة المشهورة في الموضوع الذي يريد الباحث دراسته ، إحصاء النتائج والتجارب التي توصل إليها الباحثون مهما كلف الدارس من جهد وصرف من وقت لأن الصبر من ضرورات البحث العلمي الناجح لا سيما إذا كان الباحث محققاً لبحثه وعلمه وكان دقيق الملاحظة فلا بد له أن يطلع على ما نشر في اللغات الأجنبية ومتى زادت مصادر البحث زادت أهمية البحث .

ولا يكتب الباحث الأصيل بما يجد في أمته من مصادر بحث ومراجع علم كتبها علماء أمته في أصولها أو علماء الغرب عن هذا التراث إنما يجب أن يكرس جهده لعلمائنا وما وصلت إليه بحوثهم من نظريات

(١) تاريخ العلوم عند العرب عبد الحميد صبرة ص ٦٠ .

وحقائق علمية وتعقب جذورها ودراسة قواعدها في حضارتنا وتراثنا .

وعلمى مستندين إلى النتائج التي وصلت إليها مختلف الأمم قبيل الإسلام^(٢) .

فقد اهتم العرب بقياس دقيق لمحيط الكرة الأرضية على غير طريقة قياس أراطوستانس التي أخذت عن البابليين غالباً والتي كانت درجة صوابها منوطة بالصدفة .

وقد يقف الباحث العربي محايداً دون أن يصدر حكماً خشية أن تكون أحكامه غير دقيقة وإنما يذكر ما يسمع ويروى ما يراه وبالرغم من أن مثل هذا الأمر يقلق الدارس إلا أنه يدل على تحرج كبير من الباحث العربي على إصدار الأحكام .

وفي هذه المرحلة تيقن العلماء العرب أن مقياس بطليموس وأرصاده تحتوي على أغلاط وأن من الواجب استعراض صحتها وتصحيحها وإكمال نواقصها أو الاستدراك عليها بإجراء بحوث جديدة^(١) .

إن ذكر كل الروايات الصادقة والمختلفة منهج قد يفيد الذين يأتون فيما بعد لاستخراج الحوادث الصعيفة والمدسوسة كما يرسم صورة للعصر الذي ظهرت فيه الحوادث التاريخية ، فقد روى الطبرى بأنه اعتمد الحوادث المتعددة المتنوعة ، وحددها بقوله . (ما أحضرت ذكره فيه ، مما شرطت أني راسمه فيه ، إنما هو

وامتحنوا النتائج الجغرافية التي وصلت إليهم من الإغريق من جهة^٢ وسعوا في امتحان الشبكة المقيسة للكرة الأرضية من جهة أخرى وفي هذه المرحلة نفسها أسس العرب علم الكيمياء على أساس نظري

(١) يكفي ذكر أرساد يحيى بن أبي منصور ومعاونيه في بغداد ودمشق في عصر المأمون وأرساد حبش الحاسب لمواقع النجوم السيارة وكسوف الشمس والقمر في بغداد وسامراء ودمشق في العصر العباسي وأرساد ابن يونس في القاهرة في بداية القرن الحادي عشر وأرساد أبي الفتح عمر الصوفي في شيراز بعد منتصف القرن العاشر وأرساد البيروني في خوارزم في نهاية القرن العاشر وما جرى فيما بعد في مراغة في القرن الثالث ودمشق في الرابع عشر وفي سمرقند في الخامس عشر .

(٢) فؤاد سزكين ص ٤٨ ، ٤٩ .

الإسلاميون في المؤلفات الهندية والفارسية واليونانية .

ومن هذا أن التتبع السطحي ولد عند علمائنا فكرة المقارنة والامتحان أى الإبداع بامتحان نتائج الأرصاد القديمة عن طريق مقارنتها بنتائج أرصاد جديدة^(٢) وجدوا من الضرورى القيام بها ليصلوا إلى الحقائق الدقيقة والنتائج السليمة .

إن هذه المقارنة والتأكد من النتائج العلمية تدل على فكر علمى يسعى بكل قوة لمعرفة علوم الآخرين وإن أولى خطوات البحث العلمى الإحاطة بكل ما كتب الباحثون السابقون وبالمقارنة تظهر صدق النتائج وصحة النظريات واضطروا وهم يتابعون جهود علماء الأمم الأخرى إلى امتحانهم .

وكان كتاب المجسطى من الكتب المهمة التى ينظر إليها بكل احترام فسيه البتاتى إلى أنه يجوز أن يستدرك عليه فى أرصاده على طول الزمان^(٣) .

مارويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه ، والآثار التى أنا مسدها إلى رواها دون ما أدرك رجحج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه ... فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه أو يستشمنه سامعه من أجل أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا وإنما أتى من بعض ناقله إلينا وإنما أديننا ذلك على نحو ما أدى إلينا^(١) .

وقد اهتم العلماء بما وصلت إليهم من علوم مختلفة من اليونان والفرس والهنود وتتبعوا فيها مختلف التيارات الفكرية فالذين اهتموا بالفلك لضبط الأمور الدينية من صلاة وصيام وحج لم يقفوا عنه عندما احتاجوا إليه إنما أرادوا الاستفادة الكاملة من علم الفلك والعلوم الأخرى ومعرفة الاختلافات فى النتائج فأوصلهم هذا - التتبع لجهود العلماء إلى محاولة جديدة فى البحث العميق للوصول إلى إزالة الخلاف بين القيم العددية التى وجدها العلماء

(١) للطبرى المقدمة ٧ - ٨ ج ١ .

(٢) تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٣ .

(٣) المصدر نفسه .

مبدأ الحركة الدائرية المنتظمة ، ولكن الكشف الذى فاجأ المشتغلين بتاريخ الفلك هو الشبه الكبير بين هيئة ابن الشاطر وهيئة كوبر نيكس وبخاصة فيما يتصل بحركات عطارد .. بالإضافة إلى استعمال كوبرنيكس نفس الحيلة الهندسية التى استنبطها الطوسى واستخدمها فى هيئته الجديدة^(١) .

ثانيا : دراسة النتائج السابقة وتمحيصها :

بعد أن يطلع العالم على آراء العلماء والباحثين السابقين لاكتفى بآرائهم ، وما توصلوا إليه من نظريات إنما كان ينقدها ويحاول أن يصلح ما فيها فيقوم هو بالدراسة ولا سيما فى حقل التجارب العملية والميدانية والتطبيق العلمى وبصورة خاصة فى العلوم الصرفة . وبالرغم من تقدم وسائل البحث العلمى ومساعدة المخترعات والمكتشفات الكثيرة والتقنية المتطورة والآلات المبتكرة فما زالت أساليب الدراسة الأولى عند العلماء قاعدة علمية واضحة الأسلوب .

إن تمحيص المعلومات والتأكد منها يعد تتبعها فى مظانها من أهم أسس البحث العلمى عند العرب والنظرة إلى علم اليونان كانت محترمة ومقدسة والتأكد من آراء بطليموس تعكس لنا الثقة بالنفس والقدرة على التمحيص والدراسة الحادة إذ لم يأخذ علماءنا عن الهند وفارس واليونان علومهم كما جاءت دون روية إنما درسوها وقارنوا بينها للوصول إلى نتائج سليمة للوصول إلى أمور جديدة لم تكن معارف العصر قد وصلت إليها ووضعوا أسساً جديدة بعد تتبع آراء العلماء ودراسة النظريات القديمة التى كانت تسود الجو العلمى ويذكر الدكتور عبد الحميد موقف كارادى فو من فكر العرب وموقفهم من آراء وفروض بطليموس وإعجاب دى فو باتجاه الطوسى النقدى فى التفكير وعدت فى العصر الحديث من الفرضيات العلمية الناجحة بعد أن أهملت ولم يؤخذ بها فى ضوء الهيئة التى افترضها الطوسى . ليصبح (من الممكن لأول مرة تفسير حركات الكواكب السيارة جميعاً دون الخروج على

كروية الأرض^(٢) وفي مثل هذا التأكيد من النتائج نجد ذلك في ميدان الطب والبصريات فقد كان الرازي يرد على إقليدس وجالينوس قولهما في كون رؤية الأشياء تتكون بخروج الرؤية من العين إلى الأشياء ويصرح الرازي أن الرؤية تحدث بوصول الضياء من المادة إلى العين كما يرى أن حدقة العين تتغير كثيراً وصغراً بمقدار قوة الضياء الذي يدخل فيها^(٣).

ثالثاً : الاعتماد على التجربة :

من الضروري أن يعتمد طالب العلم على التجربة الخاصة والدراسة الموضوعية والبعد عن الهوى والابتعاد على الأساطير والخرافات التي لا تثبت أمام البحث المجرد والعقل المخلص والمكر العميق وبخاصة في العلوم الإنسانية التي يكثر فيها الوضع والحذف ويدخل الخيال والهوى والمصلحة في حناياها .

وقد قام السلف الصالح بالتأكد من

وكان العالم لا يقف عند ظهور نتائج الأبحاث إنما يدرسها دراسة الخبير ويمحص النتائج للاستفادة مما بقي لها من فائدة في دراسته وبحثه وقد ضرب البيروني مثلاً واضحاً عندما تحدث عن الجاذبية الأرضية وقال بأن الأرض تجذب الأجسام وهو يناقش حركة الأجرام السماوية وعلى من يقول : (إن الأرض لو هكذا دارت إذن لطارت من فوق سطوحها الأحجار واقتلعت الأشجار) ويثبت رأيه بقوة الجاذبية الأرضية فيقول : (هذا لا يقع لأنه لا بد من أن ندخل في الحساب أن الأرض تجذب كل ما عليها نحو مركزها) .

ويؤكد هذا الرأي في كتابه (القانون المسعودي) فيقول : (والناس على الأرض منتصبو القامات على استقامة أقطار الكرة وعليها أيضاً نزول الأثقال إلى أسفل^(١) .

إن رأي البيروني واضح بمعرفته للجاذبية قبل أن يعرفها نيوتن كما برهن على

(١) دراسات البيروني في الطبيعيات للدكتور جلال شوقي ص ٢٦٣ اعتمد على بوانق وأنايب الكيمياء تأليف برنارد جاني ترجمة الدكتور أحمد زكي ص ٦٢ (والقانون المسعودي) للبيروني طبعة ج ١ ص ٢٢ .
(٢) منهج البحث العلمي عند العرب ص ٢٦٣ .
(٣) مكانة العرب في تاريخ العلوم فؤاد سزكين ص ٥٠ .

النوعى وزناً دقيقاً جداً ، ثم يدخلها في جهازه المخروطى الذى يكون قد ملاءه إلى غاية مصبه بالماء فتحل المادة المولجة محل جسم مساوٍ لها من الماء الذى يفيض من المصب عندئذ يقوم البيرونى بوزن الماء المزاح ويعنى الوزن النوعى للمادة بحساب النسبة بين وزن المادة المختبرة ووزن الماء الذى أراحته عند إدخاله فى الجهاز ويعتبر جهاز البيرونى هذا أقدم مقياس لتعيين كثافة المواد^(١) وهو القائل فى القانون المسعودى^(٢) : (وعلى هذا اعملوا كما عملنا نحن وإن كان عملنا للتوطيد ، حتى يتأكد من تجارب الآخرين)
والطريف : أن نسمع بأن :

المأمون تولى نصب عمود من حديد بدير مران من دمشق وسواه فى صدر الشهر ثم قاسه بالماء فوجده متغيراً عن نصبته طول شعيرة بتأثير برودة الليل فيه^(٣) .

إن الاعتماد على التجربة الفردية جاءت بحتمات علمية مؤكدة وأبعدت كثيراً من

القضايا المختلفة وبخاصة ما يمس العقيدة بالتمحيص والدراسة ومتابعة السند ومعرفة من القائل ومقدار عقيدته وأخلاقه وكان الباحث والدارس يسافر بعيداً للتحقق من الحقائق والروايات والإسناد والتأكد من أبيات الشعر ناهيك عن الأحاديث النبوية التى كانت مثلاً راقياً فى ضبطها وتسجيلها .

أما فى العلوم التطبيقية فكانوا يجربون بأنفسهم العمليات للتأكد من صدق - النظرية أو الحقيقة العلمية فى الطب ، والنبات والفلك والجغرافية وغيرها . وعندما أراد البيرونى التأكد من الثقل النوعى لاختلاف وزنه وثقله استعمل وعاءً خاصاً لمعرفة الثقل النوعى للمعادن والأحجار الكريمة وقام أبو الريحان بجهد عظيم فى تعيين قيم الثقل النوعى لبعض المعادن والأحجار الكريمة مستعملاً وعاءً مخروطى الشكل ذا مصب بالقرب من فوهته بحيث يتجه هذا المصب إلى أسفل ، وكان البيرونى يزن المعادن المطلوب قياس وزنها

(١) الدكتور جلال شوقى المصدر السابق ٢٦٤ .

(٢) القانون المسعودى المصدر السابق ٢٦٨ .

(٣) المصدر نفسه جلال شوقى .

لمن تأخر عنا بالزمان وأتى بعد . . .» (٢٢) .

وقد اعتمد البيروني عندما أراد مقياس محيط الأرض واختار جبلاً من بلاد الهند مشرفاً على البحر وعلى برية مستوية ثم قاس ارتفاع الجبل . . . (٢٣) .

وقد اعتمد في قياسه على التجربة الفردية وهو القائل (وإلى التجربة يمتجأ في مثل هذه الأشياء وعلى الامتحان فيها يقول) (٢٤) .

ويظهر الرازي حبه للتجربة في مقدمة كتابه « الخواص » حيث برر رأيه في تأليف هذا الكتاب الذي قرر أن يجمع فيه أقوال الناس في خواص الأشياء ، ويجوز من قبول هذه الخواص دون التثبت بالتجربة (٢٥) وبذلك فهو لا يثبت إلا الخواص التي شهدت التجربة والاختبار بعجودها وآثرها .

الأفكار التي كانت تنقل من جيل إلى جيل دون تمحيص كما جاءت العلوم من اليونان والسريران والفرس والهنود حتى جاء العرب فأخلوه بالتأكييد وإضافة شيء جديد دون أن ينتقص هؤلاء من العلماء السابقين ومن الأمم الأخرى وتتبع الزلات والهفوات إنما كانت إضافات دون تعريج أو تضليل وفي اعتقاد العلماء العرب أنه ما من عالم مهتماً بلغ شأنه معصوم من الخطأ منزله عن الزلل . هذه المبادئ أرسى لديهم الأسس الأخلاقية للنقد وأدت بهم إلى جعل النقد عندهم مفيداً (١) .

وبذلك فإصلاح الخطأ كان رائدهم ، واحترام السابقين واضحاً فقد قال البيروني : « إن ما فعلت هو واجب على كل إنسان أن يعلمه في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمهنة وتصحيح خلل إن عثر عليه بلا حشمة وتخليد ما يلوح له فيها تذكراً

(١) سزكين ص ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣ عن القانون المسعودي ص ١ - ٤ - ٥ .

(٣) منهج البحث العلمي عن العرب جلال محمد عبد الحميد موسى (الكتاب اللبناني ص ٢٥٩) .

(٤) المصدر نفسه عن علم الفلك عند العرب .

(٥) المصدر السابق ص ١٨١ - ١٨٣ .

رابعاً : العرض الجيد والابداع :

إن عرض الفكرة العلمية لابد لها من أسلوب جيد قادر على تقديم المعلومات ضمن الإطار العام للبحث مثل تسلسل الآراء وسبك المعلومات بدقة متناهية في استخدام الكلمات دون إطالة في الحديث واستفاضة زائدة للوصول إلى النتائج أو النظريات التي يريد أن يصل إليها العالم الباحث .

إن الأصالة العلمية والابداع الفكري وصدق النتائج لا تأتي إلا بعد دراسة عميقة مستفيضة لجوانب المعرفة ، والإحاطة التامة بالبحث والفهم الدقيق لما قرأ أو درس أو طبق من العلوم والنظريات في الكتب أو المختبرات أو تجارب الميدان التطبيقي .

فقد أخذ العرب علومهم من أمم شتى ومن مصادر مختلفة منها طريقة التجربة الذاتية والترجمة من اللغات الأخرى .. ولما نشأ جيل يفهم اللغات الأجنبية

واستعرب من هذه الأمم بدءاً بالإحساس بالعلوم أكثر التصاقاً بالمفاهيم العربية كاليونانية والهندية والفارسية واستمر التراث يستفيد من الأمم الأخرى حتى أواسط القرن الثالث الهجري . وبعد أن هضم التيارات الحضارية للأمم الأخرى وبدأ يعرف جوانب علومها ومعارفها نشطت عنده ملكة الإبداع العلمي في مختلف ميادين العلوم وتطورها وأصلحوا بعض الأفكار القديمة عند اليونان مثل (مقاييس بطليموس وأرصاده) وأكملوا نواقصها وقاسوا اختلاف منظر القمر واستعمال مناهج حسابية غير معروفة عند الإغريق^(١) .

وقد ضرب الدكتور فؤاد سزكين بمرحلة الخلق والإبداع والثقة العلمية بالنفس - الذي لدى علمائنا وقدرتهم على التوصل إلى نتائج لم يتوصل إليها علماء اليونان بدراسات (الإخوة الثلاثة المشهورين بيني موسى، والذين كانوا يقومون بعمل مشترك

(١) مكانة العرب في تاريخ العلوم ص ٤٨ ؛

البطلمى فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ورغم أن محاولة البطروجى لم تكن موفقة من الناحية الرياضية فإنها دليل واضح على قوة التيار الفكرى الجديد فى الأندلس ومداه .

ولا جدال فى أن نزعة التجديد والنقد والتطور صاحبت العلوم الأخرى فالطب والرياضيات والفلك مثل تطور العلوم الأخرى .

خامسا : الأمانة العلمية :

كان تراثنا آميناً كل الأمانة فى ذكر المصادر والمراجع التى أخذ منها وتسلسل الرواة والرواية والتثبت من كل رأى وفكر فى البحث العلمى لإتمام بحوث الذين سبقوه من العلماء ليكون آميناً فى النقل والرواية .

ففى البحث العلمى المعاصر الذى أخذنا شكله العام من الغرب لا بد أن توجد هوامش فى البحوث ترقم عند أخذ النص فى المتن ويشار إلى الكتاب الذى أخذت منه المعلومة ويذكر اسم المؤلف والصحة وسنة

فى دراساتهم لأرخميدس وأبلونيوس . . هؤلاء الإخوة الثلاثة كانوا يحاولون - الوصول إلى تحديد الرقم اليونانى ليكون أدق مما وصل إليه القدماء وإلى حل جديد لمسألة تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية وقد كانوا يصححون ما وقع لأبلونيوس فى كتابه (المخروطات) على رأيهم^(١) .

ولم يختلف علماء الأندلس عن رأى علماء العرب فى المشرق فقد كانوا شديدي الحذر من أخذ علوم اليونان بالرغم من أن هناك جذوراً فكرية تنازع الفكر العربى الإسلامى فى حدائمه متصلة باليونان ، لكن الفكر الإسلامى والإبداع عند علمائنا رفض آراء بطليموس فى الفلك وأعادة تكوين علم جديد يلائم ما يريدون مفضلين أرسطو عليه .

انشاء نظرية جديدة فى الفلك :

فقد وقف من نظرية بطليموس ابن طفيل وابن رشد وابن ميمون وجاء فى أثرهم البطروجى بنظرية جديدة معارضة للفلك

(١) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٤٨ .

طبع الكتاب ومكان طبعه وغيرها لمعرفة هوية الكاتب واضحة لتوثيق الرأى ، لأن المطبعة أثرت الحياة العامة بالكتب المختلفة فى العلوم المتنوعة .

ولا تختلف أساليب علمائنا عن هذا التوثيق يضاف إليه دراسة صاحب النص ومقدار صدقه وعلمه وخبرته فيما يؤلف فيه برغم أن الكتب كانت مخطوطة وصعوبة الحصول على أدوات التأليف قياساً بسهولة اليوم .

وبدأت عملية التوثيق بالحديث النبوى الشريف وظهرت كتب الصحاح وسمار العلماء والأدباء على هذا النهج فى التاريخ والجغرافية ورواية الشعر والأخبار والأنباء فى الأغاني والطبرى والمسعودى والبلاذرى وسمير الرجال والأسانيد المختلفة خير دليل على غربة الخبر ونقده وتمحيص الروايات .

ما كان العالم يفكر فى الجنس واللون أو الدين عندما أخذ علومه من الأمم الأخرى كاليونان والهند والسريران والفرس وما أخذ

هؤلاء من الآشوريين والبابليين إنما كان فى فكره الممحص وذكاائه المغربل ينتقى المعلومات ويقارن بين العلوم ومصادر المعارف بأمانة مطلقة وتدقيق عميق . وكان العالم يذكر رأيه بوضوح وصراحة فهو يمدح الجيد ويؤكد على الصواب ويبتعد عن ما يخالف عقيدته ودينه ورأيه

وللأسف الشديد وجدت بعض علماء الغرب وكثيراً من المستشرقين والمستعربين يأخذون من علومنا وتجارب علمائنا خلال قرون طويلة دون أن يذكرورا مصادر علمهم حتى قيض الله من أبناهم من أعاد لنا الحق بصراحة واضحة . فمن هؤلاء روجريبيكون الذى (يعد منذ أمد بعيد المؤسس للمنهج العلمى الذى يقوم على أن التجربة هى أساس البحث فى العلوم - الطبيعية)^(١) حتى جاء عالم غربى فوقف أمام هذا الرأى وقال : (إن روجر بيكون أخذ كل الاستنتاجات المنسوبة إليه فى العلوم الطبيعية)^(٢) .

(١ ، ٢) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٥٣ .

الظن والحدس والتخمين بالخطوات -
المتسلسلة التي تأخذ حلفاتها واحدة بـأخرى.
للاوصول إلى اطمئنان نفسى من النتائج
والنجاح فى الدراسة .

وظهرت تلك الأساليب فى جميع العلوم
المختلفة والتحارب المتنوعة فى إنشاء المراسد
والتدقيق من الرصد عكس الغرب الذى
كان يأخذ من علمائنا ويزعم أنها من اليونان
ويكتب عليها أسماء علمائنا وفلاسفتهم^(١).

انصاف العرب :

إن الاهتمام بالشرق وبالمسلمين كان جزءاً
لا يمكن تجاهله من حياة الغرب الذى كان
يطمح أن يكون مثل علماء العرب والمسلمين.
وقد كانت كلمات الشرق والإسلام والعرب
متحدة ومتشابكة لوجود الاختلاف الفكرى
والدينى بين أوروبا والشرق فلا عجب أن
نعجد العداة النفسى لكل ما هو غير عربى.
والتجاهل التام للحضارة الإسلامية والتراث
العربى والإرث الشرقى .

ثم بدأ بعض الكتاب والشعراء فى
الاستفادة من الأدب العربى بالترجمة التى.

وقد أكد مكانة العرب العلمية فيديمان
وترام فى كتابه وأوضحا مكانة العلماء فى
بناء قانون التحرية والنظرية وأثرهم فى
بيكون ودافنشى حتى قال فيديمان : إن
العرب كانوا سباقين إلى الموضوع ، بل إن
ما توصل إليه بيكون أقل بكثير مما كان
موجوداً عند علمائنا^(٢) فالنظرية والتجربة
أهم قواعد البحث العلمى وكانت أساليبهم
العلمية متوازنة محسوبة الخطوات ، وقد
ذكروا خطوات بحوثهم وتطور أعمالهم
حتى يصلوا إلى النتائج العلمية بدقة وهدوء
وصدق .

وفى الوقت ذاته كان علماء الغرب يسيطون
على معارفنا وينتحلون الكتب بعد ترجمتها
مثل انتحال Mignel Serreit كتاب
ابن النفيس^(٣) .

ومن الأمانة العلمية الاعتماد على التجربة
العلمية للتأكيد على صدق النظرية لإرضاء
الضمير العلمى الذى يؤكده الدين الذى
يمنع الكذب والسرقة والسطو على الآخرين
وبذلك وجدنا صدق الرواية والتخرج من

(١) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) مكانة العرب فى تاريخ العلوم ص ٥٧ .

القرن الرابع عشر^(١) وأبرز رواد البحث العلمى فى تراثنا وسمى فترات التطور العلمى بأسماء عاش أصحابها فى العالم الإسلامى ودونوا مؤلفاتهم باللغة العربية مثل عصر جابر بن حيان وعصر الخوارزمى وعصر الرازى^(٢).

ولاشك أن الحضارات تأخذ من بعضها وتستفيد من تجارب الأمم الأخرى فى مختلف العصور وتباين المعارف وحضارتنا جزء من الحضارة العالمية وما توصل إليه علماءنا جزء لا يمكن فصله عن تحارب ونتائج السحث عند علماء الأمم وبخاصة اليونان والهند وبلاد فارس بعد أن نقل العرب علوم الحضارات الأخرى إلى العربية ومن ثم أخذت أوروبا ما عندها وترجم إلى اللغة اللاتينية بمختلف المعارف العلمية والأدبية ورغم الموقف السلبي مما فى حضارتنا من إبداع وخلق وإضافات وإصلاح أغلاط ومناقشة للآراء للوصول إلى الحقيقة العلمية المجردة لأن العلماء كانوا صادقى الرغبة فى الاستفادة من الحضارات التى سبقتهم

نشرت منه وكانت هذه الترجمة مقدمة للتعرف على الفكر فى حضارتنا وبداية ألفه لمقاومة روح العداء التى استشرت فى أوروبا ولعل الأدب كان أول طريق مهدهم للعاوم وأفسح المجال لمحاربة هذا العداء التقايدى لتراثنا.

وما جاء القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر إلّا أخذت حضارتنا تحلب لها جماعة من المستشرقين تتعاطف معها ثم اعترفت بالآثار الحضارى فى حضارة الغرب من هؤلاء كارلايل ونللينو وفيدمان وأخيرًا سكريد هونكه وكبريالى وريزيتانو وشاخت ، وسير هملتن كب واربرى وبوزورت من القرن العشرين .

ومن أخذ شهرة جورج سارتون عندما كتب المدخل إلى تاريخ العلم وأعطى أهمية للعلوم العرب بالمقارنة مع تاريخ العلوم عند الأمم الأخرى وخرج بمنهج أدى إلى إبرار تفوق العلم العربى على غيره فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن الميلادى ونهاية

(١ و ٢) تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٠ و ٦٥ للدكتور عبد الحميد صبرة .

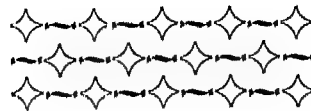
نطبق النظام العشري على الأعداد الصحيحة والكسور على السواء بالإضافة إلى استخدام لأرقام الهندية ، ولا شك أن الكاشاني قد اهتم في حساب الكسور الستينية^(١) فقد سبق ظهور هذه الكسور في أوروبا حوالي مئتي عام^(٢) ومثلها في الجبر الذي لا شك في أنه عربي بأصوله وطريقته واسمه ، ولا يعرف في اليونان سبق له ، وكتاب الخوارزمي دليل واضح على هذه الأصالة ، ثم أضاف إليه العلماء المسلمون فيما بعد إضافات^(٣) أبرزته كالكرجي والخيامي والطوسي . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وعاصرتهم بداية من الآشوريين والبابليين الذين أسسوا العلوم وأسجوا الحضارة العالمية الأولى وأثروا في كل من جاء بعدهم كالليونان والسريان والفرس والهند وبلغت الحضارة العربية والإسلامية مرحلة النضج العلمي بعد هضم مراحل التطور العلمي للأمم الأخرى ووصلت إلى نتائج علمية ، وفكرية متقدمة في الفحص والدراسة .

أخذ العرب الحساب عن اليونان ولكنهم أضافوا إليه^(٤) دون جهل للحساب الستيني البابلي الذي أخذ اليونان منهم بما فيه من خليط من جذور وأصول قديمة وبخاصة

يوسف عز الدين

عضو المجيع المراسل (من العراق)



(١) تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ .

العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس من خلال رسائل الزبيدي صاحب تاج العروس للأستاذ أبو القاسم محمد دكرورو

المولى وثيقة أخرى غير تلك الإجازة التي أتحفنا بها الشيخ الماسي وثيقة من نوع مختلف وتصنيفها مجموع خطي نفيس كان تأليفها ومغموه في مكتبتي الخاصة . وقد تعاضت عنه الشواغل الكثيرة والغفلة والنسيان .

يتضمن المجموع مختارات عديدة من الرسائل والإحارات والأشعار اختارها وسجلها بقلمه عالم مغربي مغموه^(١) . كان مقيماً بتونس عام كتابتها ١٢٤٤ هـ وهذا المجموع هو أقرب ما يكون إلى تأليف أدنى ، وإن لم يوضح ذلك جامعها .

على أن أهم قسم في هذا المجموع هو القسم الثاني الذي تضمن عشرات الرسائل الشخصية الخاصة الذي كتبها الزبيدي إلى صديق له بتونس عرف في عصره بالعلم والملاح والتقوى وكان مقعداً لارما لسقيفة بيته وهو الشيخ أحمد بن عبد الله

أهل أكثرنا مازال يذكر ، أتحفنا به الشيخنا البعثة الجليل سیدی محمد الفاسي في الدورة الثالثة والخمسين . من بحث قيم عن العلاقات العلمية الوطيدة والعميقة بين الشيخ العلامة مرتضى الربيدی - صاحب تاج العروس - وبين علماء المغرب وخاصة منهم علماء فاس ، وبينهم العلامة ابن مالك عبد الواحد بن محمد الفاسي الذي أحازه الربيدی فكانت إجازته موضوع البحث المذكور .

وقد تبسط شيخنا الفاسي في ترجمة جده ابن مالك وفي الحديث عن الربيدی وعلاقاته الواسعة مع علماء المغرب الأقصى مما يؤكد أهمية تلك العلاقات التي هي جانب واحد في جوانب التواصل العلمي بل الوحدة الثقافية والمغوية بين المشرق والمغرب .

ومن حسن الصدف أن اكتشفت في العام

(١) يدعى عبد القادر بن عبد القادر بن الزين المغربي الخالدي الميموني كان حيا عام ١٢٤٨ هـ

الموسى أحد علماء تونس في القرن الثاني عشر ومطامع اثنا عشر محرراً

ومعلوم أن الزبيدي قد توفى بالطاعون عام ١٢٠٥. أما صاحبه التونسي فكانت وفاته بعد الربيدى بثلاث سنين ١٢٠٨ هـ وأن بغاسة هذه الرسائل تتمثل في

أولاً: أنها صادرة من الشيخ الربيدى نفسه إلى واحد من علماء تونس في أيامه.

ثانياً. أنها تتناول جوانب عديدة من حياة العصر العلمية والسياسية والاقتصادية كما فهمها وناجى بها الربيدى خليله وصاحبه التونسي.

ثالثاً: أنها توضح جوانب مختلفة من العلاقات الثقافية بين القاهرة وتونس، وأيضاً بين المغرب والمشرق، خلال القرن الثاني عشر، وذلك بما تتحدث عنه من شئون وشجون تتصل بالأدب والكتب وما كان بين العلماء من تباين واهتمامات علمية وإنسانية.

رابعاً: أنها توضح، ولأول مرة، حواشٍ طريفة وخاصة جداً من حياة

الزبيدي العائلية والشخصية لم يذكرها فيها نعلم - أقرب تلاميذه المتصلين به وأكثرهم معرفة بخصموصياته وهو المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي الذي، وإن حدثنا عن زوجة الزبيدي الأولى والثانية فإنه أكد أن الزبيدي لم يرزق أولاداً ولكن الزبيدي يتحدث في رسائله بأن الله قد رزقه ولداً وأنه سماه «عبد الله» تيمناً باسم والد صديقه التونسي، لما كان عليه هذا التونسي من صلاح وتقوى حملت الزبيدي على أن يلتبس منه - في معظم الرسائل - البركة والدعاء له ولابنه ولزوجته الأولى - أم ولده - وأن يستجيزه أيضاً لنفسه ولابنه

وفي هذا الجانب وحده ما يبرهن على طرافة هذه الرسائل وأهميتها التاريخية والأدبية.

وخلافاً لما تحدثت عنه المصادر المشرقية، وخاصة تاريخ الجبرتي، من تهافت المغاربة - علماء وأمرأء وعامة الناس - على الزبيدي طلباً لبركته والتماساً لرضاه ودعواته، حتى رعم الجبرتي بأن الحجاج المغاربة كانوا يعتقدون أن حجهم يظل ناقصاً إذا لم

يحتفظ انعمسه بنسخة من رسائله للزبيدي .
ونظراً لوقتنا المحدود ، ولأننى أقوم
حالياً بتحقيق مفصل لهذه الرسائل تمهيداً
لطبعها . فإننى أكتفى هنا بتقديم معلومتين
جديديتين مما تضمنته هذه الرسائل كدليل
على أهميتها مع ماحق به صفحة من رسالة
هامة :

المعلومة الأولى تؤكد أن الزبيدي - كما
تحدث فى رسائله أكثر من مرة - قد رزقه
الله ولداً بعد طول انتظار ويأس ، وأنه
سماه - كما أشرت سابقاً - عبد الله .
وها هو يتحدث عنه فيقول ^(١) :

« ... وذكرت لكم فى الكتاب الذى
قبل هذا من قبل ولدى عبد الله ، فقد
تزايد لى فى ليلة سبع وعشرين من شهر
رمضان من شهر سنة ١١٩٤ م وسميته
باسم والدكم المرحوم تبركاً به ومحبة إليه
وكنيته أباً الفضل ، أسأل الله العظيم أن
يجعله باراً بوالديه عالماً عاملاً محدثاً ،
صوفياً . ولقد جاعنى بعد أن يمست
وطرق المشيب المفارق ... فأحييت أن

روروا الشيخ الزبيدي ليمنحهم رضاه
وبركته .. إختلافاً لهذا الرعم فإن رسائل
لزبيدي تكشف لنا عن تهافته وخضوعه
لدى سد حاجته أحياناً من هذا العالم
لتونسى المغربى الذى لم يكن فى عصره من
لعلماء الدارين ، كما لم يترك أثراً علمياً
احداً .

كذلك تكشف لنا رسائل الزبيدي عن
وقف مماثل نحو أمراء تونس البابات ،
كيف كان الزبيدي يبعث إليهم - من
لمقاء نفسه - الهدايا النفيسة وقصائد
المديح وإجازاته العامية - فى حين يذكر
دو نفسه مواقف معاكسة نحو أمراء مصر
صدور الخلافة الذين - كما يقول - كان
رفض هداياهم .

مهما يكن من أمر ، فإن عدد هذه
لرسائل - على اختلاف حجتها - يتجاوز
لخمسين رسالة ، وهى تقضى زهاء العشر
سنوات الأخيرة من حياة الزبيدي ، وهى
لأتجاه واحد أى من الزبيدي إلى صديقه
لتونسى إذ يبدو أن صاحبه التونسى لم

كان تماثل الرسائل بينهما شهرياً وعلى مدى عشر سنوات ففي رسالة متأخرة شكر الزبيدي صاحبه التونسي على مختلف الهدايا وتذكره كذلك على الشكلاطة وعلى الآلة الخاصة بصنعها والتي كانت مع الهدايا .

على أن لزيدى كان بدوره يهدى صاحبه رسائل الشرق والكتب التي يطأها . ويتحدث إليه عن كثير من شحوته وعن أبحاثه العلمية وعن كل قسم أو جزء يكمله من شرحه لكتاب إحياء علوم الدين

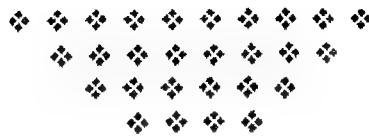
رحم الله الجميع وأفادنا بعلمهم وترائهم .

أبو الفاسم محمد كرو
عصو المجمع المراسل من تونس

تشرفوه بالإجارة يسمو بها بين الأنام وتنعيمه بحملها يحفظ من صوارف الأيام . . .^(١)

ولكن هذا المولود لم يعيش طويلاً ففي إحدى رسائله عام ١١٩٦ هـ يخبر بوفاته وبمكان دفنه وحرنه عليه حزناً شديداً حتى بنى قبرين حول قبره ، واحداً له والآخر لزوجته التي توفيت بالفعل عام ١١٩٨ هـ كما سجل ذلك الجبرتي وأكده لما رسائل الزبيدي مع تفاصيل أخرى .

والعلامة الثانية : أن الزبيدي كان يحب الشكلاطة ويبدو أنها لم تكن معروفة في القاهرة . فكان صديقه التونسي يرسل له منها باستمرار ، ربما كل شهر ، حيث



(١) باقى الرسالة فى الملحق .

على حب الدنيا بغير دمج حب الله تعالى في العلم والعبادة الموجهة للمعاشرة
والعبادة والجماع على مقتضى الولاية ولا سيما في الخطاب على ما هو عليه من النجاسة
التي هي في الوجود الكلي من غير بيان عن ذلك في الحقيقة كما علم ان يجمع
شمله مع العلم بالله ويتكف عن ذكره عن موضوع في الاشتغال والكل مبداء في بيان
والشعر من عوكر في الفصول والتمثيل في وقت كلمات ربه صراطه وعلمه لا اله الا
هو وعابده فهدى السبيل وذكر من في الخطاب الغافل عن من قبله ولم يعلم عبد الله
وعبد من اسير في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان من شهر ١١٩٤ هـ ومجتمعة
باسم والحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين
الذين جعلهم باراً بولديهم علمهم على ملائكة من الملائكة وحيا فيهم ان يأتوا
وكرهوا المشقة والمعارف والتم التزير وعلموا القس على حبهم انما تفرصه بالاجازة
بسمهم في نيل الدار ونيتهم في حبها على ما من صواب الولاية وتلا خروجه
من دار الدنيا من اجله من علمه بالولاية من العلم والادب والادب والادب في
كل من هذا الخطاب الى حقيقة نبذة صغيرة كتبت جمعها على يد في العلم على
مشرب الكرامة في النفس بغير ربح الله بهم تتشرب على انظر الى علمه
وسميته خضر آية وطرفه بغيره ليح الاقوال بكل من الهدى في المسلسلين
بمنازلة اولي ونيل الشان به ولا تفرحوا في فلة ارباب في حب
والحب والادب في مفرح الاله لا بين التذلل والتذلل في فلة يجتاز في العالم النجس
وعيسى رتبة من مفرح في العلم بغير ربح من يوليه حب في الذكر الانعام في الذكر النعام
على من رزق الولاية وانت في حب الله والادب والادب والادب في العلم
والله اعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين
الذين جعلهم باراً بولديهم علمهم على ملائكة من الملائكة وحيا فيهم ان يأتوا

١٩٥

الإطار التاريخي لسورة براءة للدكتور حسين مؤنس

بعام هجري على وجه التقريب ، فهي ترتبط
كذلك كل الارتباط بغزوة تبوك التي
كانت في رجب وشعبان سنة ٩ هجرية -
(أكتوبر - ديسمبر سنة ٦٣٠ ميلادية)
وعندما نقرأ السورة وندرس الظروف التي
وقعت فيها غزوة تبوك ندرك تمام الإدراك
أن الله سبحانه وتعالى بعث رسوله في هذه
الغزوة اختباراً للمجتمع المدني وبياناً لأحواله
وعيوبه ووجوه التقى فيه لتجىء سورة التوبة
بعد ذلك حداً فاصلاً بين العصر الذي كان
يباح فيه للعربي أن يبقى على الجاهلية ،
والوثنية أو يدخل الكعبة . فإن السورة
نفسها تبدأ بوضع الحد الفاصل بين
العصرين وذلك في آياتها الأولى :

« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ » فَيَسِيحُوا فِي
الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ شَهْرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ

يذهب الكثيرون من علماء القرآن
الكريم والمفسرين إلى أن سورة براءة
أو التوبة ، وهي التاسعة من سور المصحف
المتداول هي آخر سورة كاملة أنزلت على
رسول الله ﷺ ويقولون : إنه أنزلت
على رسول الله بعد براءة آيات كثيرة
دخلت في سور أخرى ، والعامل الرئيسي
الذي يجعل العلماء يقولون ذلك هو :
ارتباط هذه السورة الشديد بغزوة تبوك
التي بدأت السورة تنزل على رسول الله
وهو عائذ منها ، واتصال آياتها الوثيق
بحوادث تلك الغزوة وما وقع فيها .

وإذا كانت سورة براءة أو التوبة تتميز
في مجموعها بوحدة الموضوع ، فكل آياتها
تدور حول أحوال المدينة خلال العام التاسع
للهجرة وبيان العيوب التي كانت في ذلك
المجتمع قبل انتقال الرسول إلى الملا الأعلى

التي قادها رسول الله ﷺ ، وقد سبق له أن قاد حوالى أربعاً وعشرين غزوة ، أما رقمها بين كل العمليات العربية التي قادها رسول الله ﷺ فهو تسعة وثمانون ، وتبقى بعد ذلك بالإحصاء الدقيق سبعة أعمال عسكرية سيبعث بها رسول الله ﷺ خلال العام الأخير من حياته .

ولا ينبغي أن يهولنا ذلك العدد من المغازى والسرايا والبعوث فإن رسول الله منذ نزل المدينة سنة ٦٢٢ ميلادية رسم خطته على العمل على تحويل المدينة إلى قاعدة الإسلام ، واستخدام هذه القاعدة في نشر الإسلام في جزيرة العرب كلها ، وإعدادها لفتح العالم كله بعد ذلك وسار في عمله بوحى من الله طبعاً . بنظام دقيق وجهد بالغ .

وفي سياق هذا الجهد تحتل غزوة تبوك مكاناً فاصلاً ، فهي الغزوة التي تعين نهاية الجهود لإدخال الجزيرة العربية كلها في الإسلام وتلى ذلك أعمال مكملية لفتح الجزيرة العربية وإدخالها كلها في الإسلام وستبدأ مرحلة نشر الإسلام خارج الجزيرة بعد وفاة الرسول ﷺ وانتهاء أبي بكر من حروب الردة .

مُعْجِزَى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ*
وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزَى اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*
إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوهُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْتُمُوهُمْ إِلَيْهِمْ عَاهَدْتُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .

ثم يلى ذلك أمر من الله بالحرب على المشركين وضرورة قتالهم حتى يتوبوا عن الكفر ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا هم فعلوا ذلك توقف المسلمون عن قتالهم .

«فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

وهذا في ذاته حادث فاصل في تاريخ الدعوة الإسلامية ، وإذا نحن تأملناه ملياً تبيننا لماذا نزلت هذه السورة بعد غزوة تبوك ، فإن غزوة تبوك آخر الغزوات

نريد أن ننص عليه في هذا البحث ونزيده وضوحاً بالتفاصيل . وأعتقد أن هذه واحدة من أظهر المناسبات التي تدل على أن السيرة النبوية في مجموعها كانت درساً أو دروساً عظيمة للمسلمين لا في العصر النبوي فحسب ، بل في تاريخهم كله بعد ذلك .

وهذا النظر إلى غزوة تبوك وسورة براءة نظرحديد لم يتنبه له السابقون من المفسرين القدماء الذين تعودوا على أن ينظروا إلى الحوادث على أنها مجرد حوادث لا يرتبط بعضها ببعض بروابط تاريخية ودينية وأخلاقية ، وهذا في ذاته حال بينهم وبين أن يستخرجوا الدروس العظيمة التي تتضمنها سورة التوبة ، فهم دائماً مشغولون بالجزئيات والتفاصيل . وعلى هذا الضوء نرى أن غزوة تبوك ذاتها كانت مناسبة أرادها الله سبحانه ليضع أمام المسلمين قواعد واضحة لعصر جديد سيدخل فيه الإسلام والمسلمون بعدها ، وهذا في ذاته يعيننا - أولاً - على فهم تفاصيل غزوة تبوك ويمكننا - ثانياً - من فهم آيات سورة التوبة وما تتضمنه من الحكم والتوجيهات التي تتضمنها تلك السورة .

وغزوة تبوك تبدو لنا وكأن الله سبحانه أراد بها أن تكون إشعاراً بهذا التطور في مسيرة الدعوة الإسلامية ، وبعض المراجع تذكر أن رسول الله خرج بها في وقت عسرة وهو يظن أن الروم أعدوا شيئاً ضد الإسلام في الجزيرة وهذا غير صحيح ، ولا جائز في السيرة النبوية ، فإن الروم لم يعدوا شيئاً ، وهذا واضح من كلام - الواقدي وهو مرجعنا الأكبر في كل ما يتعلق بالمغازي فقد قال هنا ج ٣ (ص ٩٩١ - ٩٩٢) والتفاصيل التي لدينا تدل على ذلك فقد ذكر الواقدي بعد ذلك بتقليل (ص ٩٩٢) كلاماً يدل على أن رسول الله ﷺ مع عظيم استعداده لهذه الغزوة إلا أنه كان يعرف أن الروم لم يعدوا في الحقيقة شيئاً لغزو الجزيرة العربية .

ولهذا فهو لم يخف وجهته ، بل أعلنها صراحة لكي تعرف القبائل العربية أنها تسير إلى غزوة خطيرة فيكون ردها على إنذار النبي ﷺ دليلاً على إيمانها أو ضعف إيمانها ، ويكون ذلك كما يتجلى من سورة براءة مناسبة للدرس من الله سبحانه للمسلمين ، وهذه الدروس قائمة على تفاصيل تحريبتهم الكبرى في غزوة تبوك ، وهذا هو الذي

والآن فلننظر إلى غزوة تبوك بإيجاز :
سبق غزوة تبوك سبع سرايا كلها
في سنة ثمانية هجرية وأوائل سنة تسعة هجرية
وكلها كانت بعد إرسال رسول الله ﷺ
للمصدقين في المحرم سنة تسع هجرية .

والمصدقون هنا لم يكونوا حكاماً كما
يظن بعض المؤرخين وإنما كانوا مشرفين
على إسلام الناس وإخراجهم الصدقات ،
ولكن المؤرخين جعلوهم حكاماً أو ولاية
سياسيين وما كانوا بذلك ، فعباد بن بشر
الأشجلى الذي أرسل إلى قبيلتي سليم ومزينة
لم يكن حاكماً لهم ، بل لم تكن له أية
سلطة على القبائل إنما كان ممثلاً
للإسلام في تلك القبائل ومعلماً للناس
ومبيناً لأصوله ومشرفاً على إخراج الزكوات
وتفاصيل غزوة تبوك سندنا كاملة
بفضل الواقدي الذي أثنانا بها في كتاب
مغازيه الذي نشر كاملاً منذ سنوات ،
وهذه التفاصيل تعطينا - إذا جُمعت
ودُرست - تفصيلاً دقيقاً لأحوال المدينة
المنورة في السنة التاسعة للهجرة .

والناس عندنا يعتقدون أن المجتمع

المدني - بعد تسع سنوات من قيادة الرسول -
قد أصبح مجتمعاً مثالياً . ولا عيب فيه .
ولكن التفاصيل التي لدينا لا تدل على أن
كل أهل المدينة كانوا قد دخلوا الإسلام
وآمنوا به ، بل كان هناك الكثيرون من
المنافقين والمستهزئين ، وسورة براءة التي
نزلت بعد ذلك تؤكد ذلك وترى المسلمين
كيف كان تصرف الرسول مع هؤلاء -
الأعداء على مستوى رفيع جداً من الإنسانية
وبعد النظر .

والقرآن هنا يؤكد ذلك كله ويشرح
للمسلمين طريق التصرف مع كل طراز من
أولئك الأعداء .

لأن المنافقين مثلاً لم يكن هناك أمل في
إصلاح أحوالهم ، ولكن معاملتهم لا تكون
بالعنف والقسوة ولكن بالصبر والحكمة
كما نرى في مثال الجند بن قيس الذي
كان مرة ظهر نفاقه ، أي إظهاره الإسلام
للمسلمين بالكذب والتظاهر بالإيمان بها
- نفاقه هنا - أي أثناء استعداده تبدو
بصورة واضحة جداً يحكيها لنا .

وقال رسول الله ﷺ للجند بن قيس :
أبا وهب ، هل لك العام تخرج معنا لعلك

تحتقب^(١) من بنات الأصفر ؟ فقال
الجد : « أَوْ تَأْذَن لِي وَلَا تَفْتِسِي ؟ فوالله ،
لقد عرف قومي ما أحد أشدَّ عُجْبًا بالنساء
منى ، وإنى لأخشى إن رأيتُ نساء -
بنى الأصفر لا أصبر عنهن . فأعرض عنه
رسول الله ﷺ فقال : قد أذنتُ لك !
فجاءه ابنه عبد الله بن الجد - وكان
بذرياً ، وهو أخو مُعَاذ بن جَبَل لأمه -
فقال لأبيه : لِمَ تردّ على رسول الله ﷺ
مقالته ؟ فوالله ما فى سَلِمة أكثر مالا
منك ولا تخرج ولا تحمل أحداً ! قال :
يا بُنَيَّ ، مالى وللخروج فى الريح والحر
والعسرة إلى بنى الأصفر ، والله ما آمن
خوفاً من بنى الأصفر وإنى فى منزلى -
بخُرْبَى ، فأذهب إليهم فأغزوهم ، إننى
والله يا بُنَيَّ عالمٌ بالدوائر ! فأغلظ له
ابنه ، فقال : لا والله ، ولكنه النفاق ! والله ،
ليُنزلنَّ على رسول الله ﷺ فيك قرآنٌ
يقرأونه . قال : فرفع نعلَهُ فضرب بها
وجهه ، فانصرف ابنه ولم يكلمه . وجعل
المخبث يُتَبَطُّ قومه ، وقال لجَبَّار بن صخر
ونفير معه من بنى سَلِمة : يا بنى سَلِمة ،
لا تَنفِرُوا فى الحرِّ . يقول : لا تخرجوا
فى الحرِّ زهادةً فى الجهاد ، وشكاً فى الحقِّ

وإرحافاً برسول الله ﷺ . فأنزل الله
عزَّ وجلَّ فيه : « وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى
الْحَرِّ » إلى قوله : « جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ »^(١) . وفيه نزلت : « وَمِنْهُمْ
مَنْ يَقُولُ اثْبَدْن لِي وَلَا تَفْتِنْنِي .. »^(٢) الآية ،
أى كأنه إنما يخشى الفتنة من نساء
بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، إنما تعذر
بالباطل ، فما سقط فيه من الفتنة أكثر ،
بتمخلفه عن رسول الله ﷺ ورغبته بنفسه
عن نفسه . يقول الله عزَّ وجلَّ : « وَلَئِنْ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » يقول : إنَّ
جهنمَ لَحِن ورائه ، فلما نزلت هذه الآية
جاء ابنه إلى أبيه فقال : ألم أقل لك إنه
سوف ينزل فيك قرآن يقرأه المسلمون ؟
قال : يقول أبوه : اسكتْ عني يا لُكَمُحُ !
والله ، لا أنفعك بنافعة أبداً ! والله لأنت
أشدُّ على من محمد !

وتؤكد ذلك سورة التوبة أو براءة فى
الآية ٤٩ وما يليها ، والسورة هنا تفصل
أمر هذا المنافق وتوضح دخائل المنافقين
بصورة عامة وترى المسلمين أنهم - أى
المنافقين - فى الحقيقة أشرار وأشقياء
بشرهم ولا فائدة فى استعمال القوة معهم ،
لأنهم هم أنفسهم يشعرون بخرج مركزهم

وتفاصيل غزوة تبوك كما يروها هنا
الواقدي وغيره ترينا كيف أظهر المؤمنون
الصادقون - وهم غالبية أهل المدينة - من
حقائق إيمانهم واستعدادهم الكامل للبدل في
سبيل الإسلام ما يؤكد لنا بأجلى صورة
كيف نجح رسول الله ﷺ في إنشاء مجتمع
من المؤمنين الذين يتصرفون رجالاً ونساءً
على أعلى مستوى من الإيمان والاستعداد
للبدل في سبيل الإسلام ، كما نرى في
قول الواقدي في ص ٩٩١ : (وحض
رسول الله ﷺ المسلمين على القتال
والجهاد ، ورغبهم فيه ، وأمرهم بالصلوة ،
فحملوا صدقات كثيرة ، فكان أول من
حمل أبو بكر الصديق رضي الله عنه ،
جاء بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال
له رسول الله ﷺ : هل أبقيت شيئاً ؟
قال : الله ورسوله أعلم ! وجاء عمر رضي
الله عنه بنصف ماله ، فقال له رسول
الله ﷺ : هل أبقيت شيئاً ؟ قال :
نعم ، نصف ما حدث به . وبلغ عمر ما جاء
به أبو بكر فقال : ما استبقنا إلى الخير
قط إلا سبقني إليه . وحمل العباس -
ابن عبد المطلب عليه السلام إلى رسول
الله ﷺ مالا ، وحمل طلحة بن عبيد الله

في المجتمع الإسلامي المؤمن ، ولكنهم
لا يعرفون كيف يتصرفون . بل إن السورة
توضح لنا موضوع الصدقات وفيه تصرف
في الآية ٦٠ وهي آية معروفة ومشهورة ،
وهي تتضمن كذلك تفاصيل تكشف عن
بعض الفضائل الإنسانية التي يتميز بها
الإسلام وتل ذلك (الآية ٦١) صورة
للأذى الذي كان رسول الله ﷺ يتحمله
من أولئك المنافقين الذين كانت كراهِيتهم
للإسلام وخوفهم من المسلمين تؤدي بهم
إلى الوقوع في أخطاء جسيمة ، ولكن الله
ينصح المسلمين بالصبر عليهم ، ويكفي
أن لهم عند الله عذاباً أليماً : « إِنَّمَّا
الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ
عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاتِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ
وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْبَنِ السَّبِيلِ
فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .
(التوبة ٩ / ٦٠)

« وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ
هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »
(التوبة ٩ / ٦١)

٧١ من سورة التوبة حيث يقول سبحانه وتعالى . « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَمِعَ اللَّهُ رَحْمَتَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ويقول سبحانه بعد ذلك في الآية التالية (٧٢) : « وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

وكلنا نعرف أن القرآن الكريم نزل منجماً على أساس حوادث من الواقع حتى يكون الواقع مؤيداً لما يرد في القرآن . ويندر فعلاً أن يلتقي الواقع كما كان في عصر الرسول مع آيات معينة في القرآن الكريم مما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن غزوة تبوك كانت في الحقيقة مقدمة من الواقع الذي كان المسلمون يرونه ثم جاءت

إلى النبي ﷺ مالا ؛ وحمل عبد الرحمن ابن عوف إليه مالا ، مائتي أوقية ، وحمل سعد بن عبادة إليه مالا ، وحمل محمد ابن مسلمة إليه مالا . وتصديق عاصم ابن عدي بتسعين وسقاً تمرًا . وجهز عثمان ابن عفان رضي الله عنه ثلث ذلك الجيش فكان من أكثرهم نفقة ، حتى كفى ذلك الجيش مؤونتهم ، حتى إن كان ليقال : ما بقيت لهم حاجة ! حتى كفاهم شئق^(١) أسقيتهم فيقال : إن رسول الله ﷺ قال يومئذ : ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا ! ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف ، واحتسبوا في ذلك الخير ، وقووا أناس دون هؤلاء من هو أضعف منهم ، حتى أن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تتعاقبانه^(٢) ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيهما بعض من يخرج ، حتى إن كن النساء كيمن بكل ما قدرن عليه .

والقرآن الكريم يؤيد ذلك في الآية

(١) شئق : جمع شئاق ، وهو الخيط أو السير الذي تعلق به القرية ، والخيط الذي يشد به فمها . (النهاية ج ١ ، ص ٢٣٩) .
(٢) في الأصل : « تتعاقبانه » .

الأهمية هنا أن لدينا غزوة معروفة التفاصيل وهي غزوة تبوك ، وتفاصيل هذه العروة ترسم الظروف التي نزلت فيها أحكام إسلامية في حالات المنافقين والكافرين والذي نراه هنا مقال نادر من تطابق الواقع مع أحكام القرآن الكريم وهذا طبعاً موجود في مناسبات أخرى من واقع الحياة أيام الرسول وأحكام الإسلام بشأنها . ولكننا هنا أمام مثال نادر من التطابق ، فإذا كانت تفاصيل غزوة تبوك هي الواقع فإن سورة التوبة تتضمن الأحكام الإسلامية التي ينبغي أن يطبقها المسلمون في مثل هذه الحالات ، ويحكى الواقدي هنا - (١٠٤٢-٣) حكاية تدل على سعة صدر رسول الله ﷺ والتزامه بأحكام الإسلام حتى في أخطر الظروف ذكر الواقدي (ص ١٠٤٢ - ١٠٤٣ - ١٠٤٤) كيف أن نفرًا من المنافقين ائتمروا أن يطرحوه من عقبه في الطريق ، والنص يتيمت فعلاً أنهم حاولوا ذلك ولم يوفقوا فيه ، ونحن نرى هنا أن الرسول عرفهم فرداً فرداً ، وكان يستطيع عقابهم ولكنه رأى أن - يعاملهم بالحسنى أملاً في إصلاح أحوالهم ، بل إن أسيد بن حضير طلب إلى رسول

آيات سورة براءة لترسيم حكم الله سبحانه على أهل الإيمان وأهل النفاق ، وتأني بعد ذلك توجيهات من الله سبحانه لرسول الله تتضمن القواعد التي ينبغي أن يسيير عليها الرسول والمؤمنون حيال أولئك الكفار والمنافقين . ومن الواضح أن هذا الطراز من أهل الكفر والنفاق سيوحد في كافة المجتمعات الإسلامية بعد ذلك وإن هذه الآيات الموجهة هنا إلى رسول الله ﷺ تتضمن أحكاماً أساسية ينبغي أن تطبقها الجماعات الإسلامية مع من فيها من الكفار والمنافقين ، وبإراد بالكفار هنا الوثنيون الذين لا يؤمنون بالله سبحانه ، كذلك المنافقون الذين يتظاهرون بالإسلام وما هم بمؤمنين ، أما غير المسلمين من أهل الكتاب فلهم أحكام أخرى لها مكانها المعروف في كتاب الله ونخرج هنا بتوكيدات لموضوع هذا البحث وهو أن سورة براءة أو التوبة ترسم لنا إطاراً للحياة في المدينة المنورة بعد تسع سنوات من جهاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الإطار ينطبق على أحوال المجتمعات الإسلامية فيما بعد . أي أننا هنا أمام تشريعات إسلامية أساسية تصدق في كل زمان ومكان ، وموضع

والأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

ويسدو أن هذه الآية مدخل الآيات الى تفصيل موقف القرآن الكريم من كل هذه الأصناف من ضعاف الإيمان . فقد تحدثت السورة قبل ذلك عن اليهود والنصارى وبسطت بعض نقائصهم وسوء ما يؤمنون به وما يقولونه ، والقرآن الكريم يصف الأَحْبَارَ والرهبان ويبين بعض نقائصهم من وجهة نظر الإسلام .

ولكنه بعد ذلك مباشرة وابتداءً من الآية ٣٦ نفسها يبدأ في تحديد موقف الإسلام من هذه الأصناف من الناس . والكلام كله في هذه الآية وما بعدها مشغل بالأحكام ، وهى تبدأ بإحلال قتال من يقتاتلون المسلمين في الأشهر الحرم ، ثم يتحدث عن النسيء وأهله (آية ٣٧) وبعد ذلك تبدأ الآيات في الكلام على الذين يتشاقلون عن الخروج للحرب في سبيل الله إذا دعوا إلى ذلك .

ويبدو أن المفسرين لم يفسروا تلك

الله ﷺ أن يعاقبهم . فقال رسول الله ﷺ لأُسَيْد : إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ إِنَّ مُحَمَّدًا لَمَّا انْقَضَتِ الْحَرْبُ بِيَمِينِهِ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَضَعَ يَدَهُ فِي قَتْلِ أَصْحَابِهِ ! فقال : يا رسول الله ، فهو لاءِ ليسوا بأَصْحَاب ! قال رسول الله ﷺ : أليس يُطْهَرُونَ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ قال بلى ، ولا شَهَادَةَ لَهُمْ ! قال . أليس يُطْهَرُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ قال : بلى ، ولا شَهَادَةَ لَهُمْ ! قال : فَقَدْ نُهَيْتُ عَنْ قَتْلِ أَوْلَئِكَ .

واعتقد أنهما بحثنا فإننا لن نجد مثالا أبلغ من هذا في بيان سعة صدر الرسول والتزامه بأصول الإسلام .

وفي سورة براءة عدد كبير من الآيات يدور حول المنافقين وأعمالهم وما ينتظرهم من العقاب ، ومع أن السورة كلها لاتزال تشير إلى المنافقين وتصف أعمالهم ، إلا أنها تقف منهم ومن كل ضعفاء الإيمان موقفاً حاسماً ومفصلاً ابتداءً من الآية السادسة والثلاثين التي تبدأ بقول الله سبحانه :

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

الآيات التفسير الذى يبين ضرورة خروج المسلمين للقتال فى سبيل الله وما أعد الله من العقاب للذين لا يخرجون ، ويدعو أنهم مالوا إلى الأخذ بقول الله سبحانه فى الآية ١٢٢ من نفس السورة .

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) .

وعلى أية حال فإن تفسير المفسرين لهذه الآية غير حاسم ولا مقنع لأن كل الآيات فيما عداها تنص على ضرورة الجهاد للقادرين عليه عقلياً وإذا كان هناك من لا يجدون المال الكافى للنفقة على أنفسهم فلا بد أن يبدلوا غاية الجهد فى ذلك ولا بد كذلك من أن يجتهد القادرون فى إعانة غير القادرين . وهذا فيما أعتقد هو حكم القرآن فى ذلك الموضع الخطير والواقضى نفسه يقول : ، تفسير هذه الآية فى الباب الذى أحققه منفصلاً عن غزوة تبوك وعنوانه : « ذكر ما نزل من القرآن فى غزوة تبوك ١٠٦٠ : » ما كان

المؤمنون إذا خرج رسول الله ﷺ فى غزوة أن ينفروا كلهم ويتروكوا المدينة ولكن ينفر من كل قبيلة طائفة . يقول : بعضهم لينظروا كيف سير رسول الله ﷺ فى المشركين ويعوا ما سمعوا منه « وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » يعنى يخافون الله . وهذا تفسير غير كاف أو مقنع وعلى أى حال فإننا نعتقد أن هذه الآية وما قبلها وما بعدها إن كانت قد فسرت كما ينبغي أن تفسر لكان لذلك أثر بعيد جداً فى تاريخ الإسلام .

وقد لاحظ ابن كثير فى تفسيره لسورة براءة أن سبب غزوة تبوك يكمن فى قول الله تعالى فى سورة براءة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٩ - ٢٨) « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى

يُعْطُوا الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩ / ٩) .

وضعف الناس كما سميأتى بيانه إن شاء الله تعالى^(١) .

فقد قال بعد كلام كثير . « وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين (يريد في جزيرة العرب) ودخل الناس في دين الله أفواجا فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا دعا رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم للخروج معه ، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام حذب ووقت قيظ وخرج عليه السلام يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك ونزل بها وأقام على ماؤها قريبا من عشرين يوماً ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه وذلك لصيق الحال

وهذا الكلام وإن لم يكن كامل الصحة في مجموعة يفتح لنا باباً واسعاً للكلام عن غزوة تبوك وعلاقتها بسمرة براءة فإن ابن كثير يقول هنا . إنه بعد إسلام أهل الجزيرة جاءه أمر الله سبحانه بقتال المشركين من أهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى ، ولم يقتصر الأمر هنا على قتال الروم وحدهم فقد كان من العرب في الشمال أقوام دخلوا في النصرانية أو حالفوا الروم فهم معدودون منهم .

قال الواقدي في الخبر الذي روى عن أن هرقل استعد لقتال المسلمين . (وهو الخبر الذي تبين بعد ذلك أنه غير صحيح : وإن هرقل قدر زق أصحابه لسنة واجلبت معه اخم وحمام وعسان وعاملة وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص . ولم يكن ذلك ، إنما ذلك شيء قليل لهم فقالوه^(٢) » .

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٧٤ - ٧٥) .

(٢) الواقدي ، مغازي ٣ - ٩٩٠ .

بين أيدينا ، وفيها يقال إن عبد الله بن جحش كان أول من لقب بأمير المؤمنين ، أى أمير المقاتلين من المسلمين المؤمنين وهذه سرية سابقة على سرية سيف البحر التى تعد أول السرايا فى كتب السيرة .

وبقيت من فروع قصاعة التى حالفت الروم قبائل كثيرة تمتد بلادها من شمالي خيبر إلى مداخل البلقاء وأهمها هى الثلاث المذكورة هنا (جذام وغسان وعاملة) وكان لابد من إدخالها فى الإسلام أو فى عهده قبل غزو الروم وقد ورد هنا أيضاً ذكر لخم ، ولخم ، المأثور الشائع عندنا كانت فى حلف العرس وطاعتهم ومنهم كانت المناذرة ، ولكننا نرى هنا أن فريفاً من لخم كانوا بصرى ، وكانوا مع الروم وهؤلاء كانوا هم المقصودين فى هذه الغزوة .

وقد صرح الرسول أصحابه وأهل المدينة جميعاً ومن دخل فى عهده من القبائل حول المدينة بوجهته حتى يعرف الناس أنهم يتوجهون إلى بلد بعيد وقتال شديد ، فلايزعم أحد منهم بعد ذلك أنه لم يعرف إلى أين كانت الغزوة ولكى يختبر المسلمين بذلك ، فمن الناس من تقعد به الإرادة

وإذن فلم يكن الروم وحدهم هم المقصودون بهذه الغزوة ، وإنما قبائل عربية دخلت المسيحية وساروا مع الروم ، وقد ذكر الواقدي هنا لخمًا وجذامًا وعاملة فأما الثلاثة الأخيرة من هذه فكانت فيما عرف بعرب الروم أو نصارى العرب ، وهم قبائل عربية فى مداخل الشام من فروع قصاعة ، وكانت قصاعة قد تفككت رضعف أمرها ، ومن أكبر ما تفرق منها جذام وغسان وعاملة وجهينة وباهلة وذات القين وغيرها . وكانت هذه القبائل تتفرق وتمتد حتى تقترب من المدينة المنورة ، وكانت تتعالى على بقية العرب وتحسب نفسها أرفع منها مكاناً ، وكان رسول الله ﷺ قد أدرك ذلك لأول دخوله المدينة فاتجهت همته إلى غزو جهينة التى كانت بلادها تمتد إلى شمال الجزيرة فسير إليها صاحبه عبد الله بن جحش فى نفر من أصحابه فأخافها ، وأعلنت رغبتها فى محاربة المسلمين فطلبت أن يعطيها الرسول ميثاقاً بالأمان (أوثق لنا موثقاً) فأعطاهم عبد الله بن جحش الأمان الذى سألوا ، وهذه سرية لم يذكرها أصحاب المغازى وإنما جمعنا تفاصيلها من النصوص التى

عن الحرب البعيدة لأن إيمانهم لم يبلغ المبلغ المطلوب في الجهاد ، وقد حدث من هذا كثير ، وكانت تبوك من هذه الناحية اختصاراً للمسلمين أولاً ثم وسيلة لبيان موقف الإسلام من هؤلاء .

- وقد أظهر أغلب المسلمين - كما رأينا - إيماناً عظيمًا وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله راضين سعداء .

وقد ذكر الواقدي أمثلة كثيرة من دلائل إيمان هؤلاء ، بل إنه يقف طويلاً عند ما أظهرته المؤنات من كرم وسماحة وقال : « حتى إن النساء كنَّ يجُذُن بكل ما قدرن عليه قالت أم سفيان الأسلمية : قد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها فيه مسكة (سورة من دبل^(١) أو عاح) ومعاضد وخلخل وأقرطة وخواتيم وخدمات مما يبعث به النساء يُعِنُّ به المسلمين في جهازهم والناس في عسرة شديدة »^(٢) .

ثم يحدثنا الواقدي بعد ذلك عن

اهتمام الرسول ﷺ بتسبيه المسلمين إلى أهمية هذه الغزوة وضرورة بذل أكبر الجهد فيها والإسراع في ذلك ، ثم رحل وصرب معسكره في ثنية الوداع (شمالي المدينة) ليلاحق به من يريد اللحاق ، وقد لحق به الكثيرون جداً حتى بلغت عدة الجيش ثلاثين ألفاً وكانت هذه أكبر قوة عسكرية عرفت لها الجزيرة إلى ذلك الحين .

ولكن المنافقين ظلوا رغم ذلك كله منافقين ، أى مطهرين للإسلام مخفين العداء له ، وهذا طبيعي في حالتنا تلك لأن المؤمن الذي فتح الله قلبه للإيمان آمن ، أما الذي امتلأ قلبه بالشكوك فكيف يؤمن ؟

ويبدأ الواقدي هنا فيحدثنا عن الجدد ابن قيس وكان من كبار المنافقين الذين لم يؤمنوا قط . وقد زعم هنا أنه لا يستطيع الخروج لحرب الروم خوفاً على نفسه من نسائهم ، وزعم هنا أنه يخشى أنه إذا رآهن ضعف ووقع في الفتنة ، وواضح أن هذه مجرد تعلة لأن المسألة إذا كانت

(١) الدبل حلد السلحفاة البرية أو البحرية تتخذ منه الأسورة والأمشاط .

(٢) الواقدي ، مغازي ٣ - ٩٩١ - ٩٩٢ .

شاكلته عن الخروج للحرب ، وجعل يوجه كلامه إلى بنى سلمة وهم قومه واولا النفاق لكان رئيسهم وسيدهم وجعل يقول : (لا تخرجوا في الحر) زهادة في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً برسول الله ﷺ ولم يعمل الرسول به شيئاً ولكن الله سبحانه أنزل فيه وفي أمثاله قوله :

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَصْحِكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَرَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِمِينَ * وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَدْبًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » (١)

مسألة فتنة نساء الروم فكل العرب كانوا معرضين لهذه الفتنة ، ولكن إيمانهم كان أقوى منها ، فهم لا يخشون على أنفسهم منها لأن إيمانهم يغلب على ذلك كله ، وهم ذاهبون لقتال الروم لا للتعرض لنسائهم ، والواقدي يؤكد هنا أن الرجل لم تكن به كل هذه الفتنة بنساء الروم ، وكان أكبر من أنكر موقف الجد بن قيس ابنه عبد الله الذي لام أباه لوماً شديداً وقال له : فو الله ما في بنى سلمة أكثر منك مالاً ، ولا تخرج ولا تحمل أحداً .

وهنا اضطر الرجل إلى أن يكشف لابنه عن حقيقة نفسه وما دعاه إلى القعود عن الخروج مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وتعلق هنا أيضاً بحجة الخوف من فتنة نساء الروم ، فرد ابنه عاياه قائلاً له : لا والله ولكنه النفاق ، والله لينزلن على رسول الله فيك قرآن يقرأونه ! « فغضب الرجل على ابنه وخلع نعله فضرب بها وجهه ، فانصرف ابنه ولم يكلمه ، وكشف الحر عن وجهه فمضى يثبط من هم على

وبُعد النظر من جانب رسول الله دروساً للمسلمين ، فلو أنه أراد أن يقضى عليهم كلهم في ساعة لَمْ له ما أراد ، ولكن الله سبحانه أراد هنا أن يعلم المسلمين ويعرفهم كيف ينبغي أن تكون مواقفهم في هذا الطراز من أهل النفاق .

ومن المعروف أن الإسلام دين الصبر على الأعداء وطول البال معهم والحكمة في معاملتهم ، وما كان شيء من هذا ليتحقق لو أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه انتهى من أمرهم في يوم ، لأن العبرة كانت في أن يرى المسلمون تعاستهم ، وعذابهم وسوء مركزهم وسط المسلمين . وكان ابن أبي لا يستطيع كتمان نفاقه لأنه في الواقع كان يعاني منه وكان غروره بنفسه يمسكه عن الإيمان برسول الله ﷺ .

قال الواقدي : « فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أبي عن رسول الله ﷺ فيمن تخلف من المنافقين وقال : يغزو محمد بنى الأصفر ! مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما قبل له به !

يقول الواقدي . « فلما نزلت هذه الآية جاء ابن أبي إلى أبيه فقال : أَلَمْ أَقُلْ لك إنه سوف ينزل فيك قرآنٌ يقرؤه - المسلمون ؟ قال : يقول أبوه : اسكت عني يا لكع ، والله لا أنفعك بِنافعة أبداً ، والله لأنت أشد على من محمد » (١) .

وهذا الموقف والكلام من الجد بن قيس يدل على أنه كان في الحق تعيساً بموقفه من رسول الله والإسلام ولكن ما عساه يفعل في نفسه وقد امتلأت عيرة من رسول الله ونفوراً من الإسلام .

ويقول المفسرون في تفسير الآيات الأخيرة من الآيات التي ذكرناها أنها نزلت في عبد الله بن أبي الذي يوصف دائماً بأنه كبير المنافقين وكان رسول الله يعلم بأنه منافق وكاذب ، ولكنه كان يتركه على حاله ليتعذب بموقف المسلمين منه واحتقارهم إياه وعجزه عن القيام بشيء ، وقد أراد الله سبحانه أن يكون هذا حالهم لكي يكونوا عبراً للمسلمين .

وكذلك كان موقف الصبر وطول البال

(١) الواقدي ، مغازي ٣ - ٩٣ .

يحبسب محمد أن قتال بنى الأصمغر
اللعب !

ونافق معه من هو على مثيل رأيه ، ثم
قال ابن أبي . والله لكأني أسطر إلى أصحابه
غداً مقرنين في الحديد ! إرجافاً برسول
الرسول ﷺ (١).

ومع ذلك فقد تركه رسول الله على حاله
لتزداد تعاسته وسط المسلمين . وكان الناس
يعرفون المنافقين بينهم ، ولكنهم كانوا
يتركونهم على مذهب رسول الله ﷺ من
هذا الطراز من الناس ، قال الواقدي :
« قال : حدثني يونس بن محمد عن
يعقوب بن عمر بن قتادة عن محمود
ابن لبيد أنه قال له :

هل كان الناس يعرفون أهل النفاق
منهم ؟ فقال : نعم والله ! إن كان الرجل
ليعرفه من أبيه وأخيه وبنى عمه . سمعت
جدك قتادة بن النعمان يقول : تبعنا في
دارنا قوم منا منافقون ثم من بعد سمعت
زيد بن يسوع في بنى النحر : من

لأبارك الله فيه ! فقال : من يا أبا سعيد ؟
فيقول : أسعد بن ررارة وقيس بن قهده ،
ثم يقول زيد : لقد رأيتنا مع رسول
الله ﷺ في عزوة تبوك فلما كان من أمر
الماء ما كان دعا رسول الله ﷺ فأرسل الله
سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس .

فقلنا : يا ويحك أبعد هذا شيء ؟
فقال : سحابة حارة ! وهو والله رجل
لك به قرابة .

قال محمود : قد عرفته (٢) !

وإذن فموقف المسلمين من المنافقين
تسامح وعقل مقصودان كى يتعلم
المسلمون كيف يصبرون على المنافقين في
وسطهم حتى يبلغ بهم الأمر أن يؤمنوا
أو يموتوا على حالهم من النفاق والبعد عن
الناس .

وقد حكى الواقدي بعد ذلك حكاية
رجل من المنافقين يسمى زيد بن اللصيت
وكان من بقايا بنى قينقاع ، وكان رسول
الله ﷺ قد فقد ناقته فقال المنافقون

(١) الواقدي ، مغازي ، ٣ - ٩٩٥ - ٩٩٦ :

(٢) الواقدي ، مغازي ، ٣ - ١٠٠٩ .

وإن الملائكة تعاتبني في حسن الخيل ،
ومسحها .

وقال : أحبرني خليلي جبريل أنه يكتب
لي بكل حسنة أوفيتها لياه حسنة ، وأن
ربي عز وجل يحط بها عني سيئة ، ومامن
المسلمين من يربط فرساً في سبيل الله فيوفيه
بعليفه يلتبس به قوته ، إلا كتب الله له
بكل حسنة حسنة وحط عنه بكل حسنة
سيئة^(٢) .

بل إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه
وجد في هذه الغزوة الكبيرة فرصة لتربية
الناس وحشهم على الثبات والعقل ، فقد
فزع الناس ذات مرة لأمر ما ، ويبدو أن
فزعهم زاد على الحد فخرج رسول الله
عليه السلام مغضباً فقال : أيها الناس ، ما هذه
الخفة ، ما هذا النزق ألا صنعتم ما صنع
هذان الرجلان الصالحان^(٣) ، يريد عبد الله
ابن عمر أو عبد الله بن عمرو بن العاص
وسالماً مولى حذافة .

والآيات تتوالى ، بعد ذلك في بيان أعمال

وفيههم زيد هذا ما معناه كيف يأتاكم محمد
بخبير السماء وتصديقونه ، وقد ضاعت
ناقته فهو لا يعرف أين تكون ، وقد دل
رسول الله ﷺ على مكانها ، وذهب الناس
وعادوا بها ، فقال زيد بن اللصميت لكأني
لم أسلم إلا اليوم لقد كنت شاكاً في محمد
وقد أصبحت وأنا فيه ذو بصيرة ، وأشهد
أنه رسول الله ، فزعم الناس أنه تاب ؛
وكان خارجة بن زيد بن ثابت ينكر
توبته ويقول : لم يزل فسلاً (أي رذلاً)
حتى مات^(١) .

وهذه المناسبة أظهر الرسول ﷺ من
العناية بالخيال ما زاد من محبة الناس لها
والحرص عليها ، قال : قالوا : وبيننا
رسول الله ﷺ بتيبوك قام إلى فرسه
الظرب فعلق عليه شعار (الشعار ما ولي
الجسد من الثياب) وجعل يمسح ظهره
بردائه . قيل : يا رسول الله ، تمسح ظهره
بردائك ؟ قال : نعم ، وما يدريك لعل
جبريل أمرني بذلك ، مع أنني قد بت الليلة

(١) الواقدي ، مغازي ٣ - ١٠٠٨ - ١٠١٠ .

(٢) وقد أمر الرسول بالعناية بالخيال في مناسبات أخرى - الواقدي ٣ - ١٠٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ٣ - ١٠٢١ .

لا يترك على كفره أبداً ، بل لا بد أن يؤمن أو حتى الموت أما المشرك فقد ذكرنا حكمه فيما سبق .

* * *

والآيات بعد ذلك تتبّع أعمال المنافقين في المدينة وتصدر حكم الله على كل طائفة من المنافقين ، متال ذلك أن نفرًا من المنافقين استأذنوا رسول الله في عدم الخروج للغزو وتعللوا في ذلك بتعللات شتى ، فقال الله في الآية ٤٣ وما بعدها :

«عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَسَبِّحَ لَكَ الَّذِينَ صَلَّوْا وَتَعَلَّمُوا الْكَاذِبِينَ * (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) » .

المنافقين وأهل الكفر وما أعد الله لهم من العقاب ، وهنا تلقى آيات كثيرة تنص على وجوب قتال المشركين ، ويلاحظ هنا أننا في العادة نفرق بين الكافر - والمشرک ، فنقول : إن الكافر هو من كفر بالله ، أى أنكره وأنكر الإيمان به إنكاراً تاماً .

أما المشرک فهو الذى يؤمن بالله ولحمه يشرك معه غيره في الألوهية والعبادة . فإما الكافر وهو في الغالب وثنى فلا بد من قتاله حتى يؤمن أو يموت ، وأما المشرک فإنه يقاتل حتى إذا استسلم للمسلمين خيّر بين أن يسلم ويصبح واحداً من المؤمنين أو يبقى على دينه ويؤدى الجزية فيصبح من أهل الذمة أى من الداخلين في طاعة المسلمين وحمائيتهم أو يقاتل حتى يموت ، وقد درس الفقهاء والأئمة ذلك كله وانتهوا إلى أن الجهاد خارج بلاد المسلمين واجب على المسلمين جميعاً باستثناء من عجز عن القتال للضعف أو المرض أو الشيخوخة ، وجعلوا لكل حالة حلاً أو حلولاً .

أما داخل بلاد الإسلام فإن الكافر بالله

وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله تعالى يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله ابن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه ، أى أن تشييط. أمور المسلمين انتهى أجله وانقضى فدحاوا في الإسلام ظاهراً ثم أنهم لما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال الله تعالى :

« حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ » .

ثم يدخل القرآن بعد ذلك في تفاصيل بعض ما حدث قبيل خروج الرسول ﷺ إلى تبوك من تعلق بعض المنافقين بتعلات واهية - بل سخيصة - لتبرير عدم الخروج للجهاد فيقول - مثلاً في الآية ٤٩ من سورة التوبة :

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْتِنِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » والإشارة هنا واضحة ، والمراد بها هنا الجدد بن قيس أخو بنى سلمة ، وكان واحداً من أكبرهم ، وكان معروفاً أنه في جماعة المنافقين ، وقد دعاه رسول الله ﷺ إلى الخروج للغزو في أسلوب لطيف مجاملة له ، قال ابن كثير

وللمفسرين كلام جميل في معاني هذه الآيات ، فقال ابن كثير نقلاً عن ابن أبي حاتم عن رواته : هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا ! بدأ بالعفو قبل المعاتبه فقال : « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ » .

وقال ابن كثير أيضاً . ولكن نقلاً عن قتادة بن النعمان : عاتبه كما تسمعون ثم أنزل (الآيات) التي في سورة النور فخص له في أن يأذن لهم إن شاء : « فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ » (٢٤ - ٢٦) .

ثم يقول الله بعد ذلك : إنهم إذا أرادوا الخروج لاستعدوا له وخرجوا ، ولكن الله يعلم بما في قلوبهم من الضعف فتبسطهم عن الخروج حتى لا يكون لهم شرف الخروج ، ثم لكي يحمي المسلمين منهم لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما كفوا عن تشييطهم ومنهم ناس يسمعون لهم .

ثم يتول الله تعالى : « لَقَدْ ابْتَعُوا الْعِثَّةَ مِن قَبْلُ وَقَلَسُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ » (٩ - ٤٨) .

قال ابن كثير : « وذلك أول مقدم رسول الله ﷺ ، رمته العرب عن قوس واحد

فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا تنفتني فوالله لقد عرف قومي مارجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عليهن وأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك وهذا كان كلام الجد بن قيس... أي أنه كان يخشى من نساء بني الأصغر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن الجهاد أعظم (تفسير الطبري) ، الأثر ٥٦٧٨٨ (٣٨٣ / ١٤) ، وينظر سيرة ابن هشام (٥١٦ / ٢) . وواضح أن هذا الرجل كان في الغاية من التفاهة عندما قال ذلك ، فإن في كل رجل صحيح ميلاً إلى النساء ، ولكن الإنسان يضغط على نفسه ويوجهها ولا يخشى أن يخرج للقتال ، فيتعرض للفتنة من نساء الأعداء ، ولهذا فقد كان إنكار الله سبحانه لموقفه هذا شديداً ، وكان رسول الله قد صرف النظر عنه لأنه كان يعرف أنه منافق ، فلما نزل حكم الله فيه افتضح أمره بين المسلمين وساء مركزه ولكنه ظل منافقاً .

وفي آيات أخرى بعد ذلك نجد

الإشارة إلى المخلفين ، وهم نفر من القادريين على القتال تخلفوا عن رسول الله كسلاً وميلاً إلى الدعة ومنهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، وهؤلاء اختلف فيهم حكم الإسلام بحسب موقفهم بعد تبوك .

قال ابن كثير : « فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل ابن لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة هؤلاء قبل أولئك ، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية ، وهي قوله تعالى :

« لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ... » (الآية ١١٧) « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ... » (الآية ١١٨) .

كما سيأتني بيانه في حديث كعب بن مالك وقوله :

« فَإِذَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِذَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ »

أي . هم تحت عفو الله ، إن شاء فعل بهم

وقد تنبه المفسرون الماضون إلى ذلك ،
واكن أذهانهم اتجهت في الغالب إلى الأحكام
الفقهية لأنهم فقهاء ، وما يهمهم في المكانة
الأولى هي الأحكام ، ونحن - طبعاً -
تهمنا الأحكام ، ولكن الوقائع التاريخية
تهمنا أيضاً .

وهذه حقيقة جديدة بالذكر ، فغالبية
المسلمين يجمع على أن المجتمع الإسلامي
في المدينة كان صافياً خالصاً لانفاق فيه
ولا غش ، والحقيقة أنه كان فيه غش
ونفاق كثيران ، وتلك هي العبرة في ذكر
القرآن لذلك كله فالقرآن لم ينزل للمصحابة
ومعاصري رسول الله ﷺ ، وحدهم ،
ولما نزل لهم وللأجيال التالية لهم ، وهذا
هو مجال العبرة والحكمة الإلهية .

وفيما بين ذلك أنزل الله سبحانه آيات
كثيرة تحمل قواعد إسلامية ثابتة وعامة
وصادقة على اختلاف العصور والظروف ،
مثل قوله تعالى في الآية الستين من السورة .

«إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ
وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي

هذا ، وإن شاء قعل بهم ذاك ، ولكن
رحمته تغلب غضبه ، « وَهُوَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »
أي عليم بمن يستحق العقوبة ومن يستحق
العفو ، حكيم في أقواله وأفعاله ، لا إله إلا هو
ولا رب سواه^(١) .

وهذا الكشف عن أعمال المسلمين
وعرضها في الآيات هو الذي جعل المسلمين
المعاصرين لرسول الله ﷺ يخافون هذه
السورة خوفاً شديداً ، فقد كانت آياتها
تنزل على رسول الله شيئاً فشيئاً ، وكل
منهم يخاف أن يكون قد فعل شيئاً لا يرضى
عنه الله سبحانه دون أن يدري ، ولهذا
وصفت سورة التوبة بأنها الكاشفة والفاضحة .

وهذا التطابق بين ماورد في القرآن
وما كانت عليه أحوال المسلمين في العام
التاسع من جهاد الرسول في المدينة هو الذي
جعلنا نقول : إن السورة تعطينا إطاراً
لأحوال المسلمين في المدينة في ذلك الوقت ،
فما دامت الإشارة قد وردت في القرآن
إلى عمل من أعمال المؤمنين أو المنافقين
كان ذلك دليلاً لا يقبل الشك على حقيقة
ذلك .

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٨٤ .

التي نزلت في مناسبة معروفة هي غزوة تبوك ولكنها تصدق على المسلمين في كل زمان ومكان ومن ذلك قوله تعالى في الآيتين ٦٥ و ٦٦ من نفس السورة :

« وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَلَا لِلَّهِ آيَاتُهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَلِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ . »

وقد روى ابن كثير خبراً غير محدد ولكنه يؤكد حقيقة ما وقع من المنافقين قال بعد السند : قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أَرغبنا بطوناً وأَكذبنا ألسنة وأَجبننا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى رسول الله ، وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : « أَلَا لِلَّهِ آيَاتُهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » إلى قوله « مُجْرِمِينَ » ، وإن رجليه لتنسفن الحجارة ، أي أنه في تَتَبَعِهِ لرسول الله يشق الأرض برجليه

(١) أحلنا ابن كثير هنا إلى سنن أبي داود « كتاب الزكاة » باب من يعطى الصدقة وحده في الحديث : ١٦٣٠ ، ٢ - ٢١٧ . وقد قال ابن كثير إن الحديث ضعيف ، وهو ضعيف فملا (انظر تفسير ابن كثير ٤ ، ٢٠٥) .

الرقاب والغارمين وفي سبيل الله) فهنا نجد قواعد عامة عادلة لا بد أن يطبقها المسلمون في التصرف في أموال الصدقات ، فلا بد أن تقسم على الطوائف الثمانية الذين وردوا في هذه الآية ، وحيث إن الصدقات فريضة على كل المسلمين فهذه طريقة التصرف فيها ، وليس لمسلم أن يتصرف فيها كما يشاء . وللمسلمين كلام كثير في ذلك كما أن كثيراً من حكام المسلمين أساءوا التصرف في الصدقات فاعتبروها ضمن ماظنوا أنه حق لهم من الضرائب على الناس .

وقد أورد الصحابي عبد الرحمن بن زياد بن أنعم مع سنده قال فيه : فأتى رجل رسول الله فقال أعطني من الصدقات فقال له : إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى يحكم فيها هو ، فجزاها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك^(١) .

وهذه الآية معروفة لنا جميعاً . وهي متداولة في كتب كثيرة لأهميتها . والآيات التي تتضمن أحكاماً عامة تصدق في كل زمان كثيرة جداً في هذه السورة

كأنهما تقتلجان الحجارة وما يلتفت إليه
رسول الله ﷺ (والنسعة بكسر وسكون
سبُر مضمور يجعل زماماً للبعير)^(١) .

والآية تدل على وجود هذه الطائفة من
المسلمين الذين لم يستقر في نفوسهم
جلال الإيمان ، فهم يستهزئون في أحاديثهم
بين بعضهم وبعض بما لا يجوز أن يستهزأ
به وإن كنا نلاحظ أن الحادثة التي رواها
ليست بحادثة وإنما هي مجرد تصوير لما
يمكن أن يكون قد وقع بين رسول الله ﷺ
وواحد من أولئك المستهزئين الذين أرادوا
تخفيف جريماتهم بالقول بأنهم في أحاديثهم
التي وقع فيها الاستهزاء لم يكونوا جادين
في الكلام ، وإنما هم كانوا يخوضون في
الحديث لمجرد الكلام . ولكن موقف
الرسول ﷺ منه كان موقفاً بالغاً
في الحزم والغضب ولا شك أن هذا درس
لا ينسى لكل المسلمين بعد ذلك ، وهذا
هو المقصود من الآية القرآنية وموقف
رسول الله ﷺ من أولئك المنحرفين
والآية ٦٧ من سورة التوبة تجعل المنافقين

فاسقين كفاراً والآية التي تليها تبين
عقابهم :

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ
مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ
الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٦٧] وَعَدَ اللَّهُ
الْمُنافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » [٦٨] .

والآيات التالية تعطينا أمثلة من المنافقين
والمنافقات قبل الإسلام ، يجعل مسئولية
النفاق على المنافق نفسه : (فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »
(الآية ٧٠) .

ونعتقد أن هذه الآيات كانت نهاية
النفاق والمنافقين في المجتمع الإسلامي ،
حقاً لقد بقى منهم منافقون قدماء ولكن
هؤلاء كانوا قليلين ، ولكننا فيما عدا
هؤلاء لم نعد نسمع عن منافقين في العصر
النبوي الذي يمتد إلى نهاية العصر الراشدي
ورعد آيات يبين الله فيها فضل المؤمنين

(١) ابن كثير ٤ / ١١١

مساحتها وزادت أبواب الرزق أمام أهلها ،
فاغتنوا وأصبحوا أغنى من أهل مكة .

حقاً لقد رقي في مكة نفر قليل من الأغنياء
ولكن البلد كله افتقر بعد أن توقفت
تجارته ولم يعد الناس يزورونه للحج كما
كان الحال قبل .

ولا ننسى هنا أن تحسن الأحوال
الاقتصادية في المدينة يرجع إلى الاسلام
ومبادئه وإلى الطريقة المثلى التي سار عليها
رسول الله في قيادة أهل المدينة ، فقد كثر
السكان وكان لابد من أعمال صناعية
وتجارية للقيام بشئون هؤلاء السكان
الجدد ، ثم إن الاسلام ينص على أن
يشترك المسلمون جميعاً في الغزو أو الانفاق
على الغزوات والسرايا والبعوث .

ومن هنا نفهم كيف أن تحسن الأحوال
في المدينة لم يؤد إلى ظهور طبقة من
الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال كما كان
الحال في مكة ، إنما هي كانت حالة رخاء
عام ونشاط في العمل والإنتاج مع النص
على أن الأغنياء ينبغي أن ينفقوا أموالهم
على مصالح الجماعة .

الصادقين وما أعد الله لهم من حسن الجزاء
نجد الآية الرابعة والسبعين تفتح لمن يريد
إصلاح نفسه والانضمام إلى المسلمين
الصادقين طريقاً للتوبة :

« يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا
كَلِمَةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِعَدِ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ
بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَانَعَهُمْ إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا
لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلٍ
وَلَا نَصِيرٍ » .

ونعتقد أن هـذه الآية التي فتحت
أبواب التوبة والرحمة أمام المنافقين
هي التي أوقفت النفاق في المدينة ،
والمجتمع الإسلامي كله بعد ذلك ،
ونلاحظ أن الآية تنص على أن الله أغنى
أولئك الناس وبقية أهل المدينة من فضله ،
وتلك حقيقة تاريخية لم يتنبه إليها أحد
من أرنخوا للسيرورة أو لعصر الرسول ، فإن
هجرة الرسول إلى المدينة وإنشاء الجماعة
الإسلامية فتحت أمام أهل المدينة أبواباً
واسعة من الغنى ، فقد هدأت الأحوال
فيها وكثر توافد الناس عليها ، فاتسعت

الرسول وتركه ، فاشترى الرجل غنماً ونماها حتى كثرت حتى ترك المدينة إلى موضع قريب منها ليرعى غنمه ويستكثر منها واعتنى فعلاً حتى صرفه المال عن الصلاة ، وبلغ الرسول خبره وكان يتوقع له ذلك ..

فقال يا ويح ثعلبة ! يا ويح ثعلبة ! وعندما مر رجال الرسول بثعلبة وطلبوا صدقة ماله قال : ماهذه إلا ضريبة ! ماهي إلا أخت الجزية ، وقال لهما انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى ، وكان الله قد أنزل على رسوله قوله تعالى :

« وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥-٩) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٦-٩) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧-٩) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨-٩) » .

فكانت هذه الآيات قاضية على ثعلبة وأمثاله ، فقد حاول الرجل أن يتصالح

وقد أخطأ نفر من المفسرين فقالوا هنا إن الإسلام كان يأتى على الإنسان أن يعتنى ولوقام بكل مسؤولياته حيال الجماعة وهذا ليس بصحيح ، لأن الإسلام لا يتدخل في أموال الناس التي يكسبونها حلالاً ويؤدون عنها ما أمرهم الله أن يؤدوا .

وفي الآية ٧٥ - ٧٧ يقول الله سبحانه وتعالى : « وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » .

وهذه صياغة قرآنية كريمة لقصة حقيقية وقعت لرجل يسمى ثعلبة سأل رسول الله أن يدعو له الله أن يرزقه مالا فنبهه رسول الله إلى مسئولية صاحب المال في ماله ، بل سأل إن كان لا يعجبه أن يكون كرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فإن الرسول كان يستطيع أن يدعو الله أن يرزقه فيرزقه كيف شاء ، ولكنه فصل أن يظل على ما هو عليه مكتفياً بالقليل الذي يغنيه عن الحاجة ولكن الرجل أصر ، فدعا له

مع الرسول ويقدم له من أمواله وفرص
الرسول ﷺ ورفضه كذلك أبو بكر
وعمر وعثمان ، وانتهت حياته ذليلاً تعيساً
في خلافة عثمان .

القائمة فتقدم لرسول الله بفاقة ويقول
راوى الخبر إنه لم ير في البقيع أحسن
منها فقال المنافقون . « هذا يتصدق
بهذه ؟ فوالله لهى خير منه !

وكانت هذه الآيات كافية للقضاء على
مثل هذا الرجل وأمثاله فلم نعد نسمع
بأحد في العصر النبوى فعل مثل ذلك .

فسمعها رسول الله ﷺ وقال :
(كذبت بل هو خير منك ومنها - ثلاث
مرات) .

وشبيهه بذلك وأولئك الذين نزل فيهم
قوله تعالى :

ثم قال : ويل لأصحاب المثين من الإبل
- ثلاثاً - فمالوا إلا من يا رسول الله ؟

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ،
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٩ - ٧٩) .

قال : [إلا من قال ^(١) بالمال هكذا
وهكذا ، وجمع بين كفيه عن شماله وعن
يمينه ثم قال : قد أفلح المزهّد المجهد ،
ثلاثاً . المرهد في العيش ، المجهد في
العبادة » ^(٢) .

فهنا أيضاً نجد الإشارة إلى ناس
حقيقيين من أولئك المنافقين ممن جعلوا
همهم السخرية من المؤمنين الذين كانوا
يجودون بما يستطيعون من أموالهم في
سبيل الإسلام .

وقد حدث بعد ذلك أن عبد الرحمن بن
عوف قدم نصف ماله كله - وقدر النصف
أربعة آلاف على سبيل الصدقة ،
وقدم رجل آخر يسمى أبا عقيل صاعاً
من تمر ، وكان هذا نصف ماعنده ، فقالوا
إن عبد الرحمن بن عوف أعطى ما أعطى

فقد جاء رجل بسيط أسود اللون قصير

(١) هذا الكلام ينقل عن تفسير ابن كثير ، والقوسان من عنده ، المراد بالأمن قال : إلا من فعل .
(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ١٢٦ .

نفاقاً ، وأما عن صاحب الصاع فقد تضاحكوا به وقالوا : إن الله لغنى عن صاع أبي عقيل ! فقبل رسول الله ﷺ من كل منهم ما تقدم به وقال لكل منهم : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك الله لك فيما أمسكت .

وقال ابن كثير بعد ذلك : وقوله : فيسخرهم منهم ، وهذا على باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمسلمين لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر بهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً^(١) وقال الله سبحانه بعد ذلك مخاطباً رسوله الكريم :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (٩ - ٨٠)

ونحن نرى هنا أن الله سبحانه وتعالى ترك هؤلاء المنافقين يتصرفون على هواهم ، وكان قادراً على أن يسكتهم إلى الأبد ،

ولكن الله أراد أن تكون في هذا دروس للمؤمنين ، وأن نرى بأعيننا الحرية التي كانت للناس في عهد الرسول ، وهذه الحرية هي التي قضت على أولئك الناس لأنهم تصرفوا على مارأوا دون أن يتدخل الرسول في حياتهم ، ثم جاء الله بالحل الأمثل والدرس الأعظم الذي نفع المسلمين في العصر النبوي ، فقد كانت آيات الله سبحانه خير علاج ، وبالفعل فإن هذه الطرز من المنافقين احتفت من المجتمع الإسلامي اختفاء تاماً ، وما كانت لتختفي على هذا النحو إذا كان الرسول قد أخذهم بالعنف .

ونعتقد أن الحرية هنا كانت جزءاً أساسياً في العلاج ، فقد رأى الناس كلهم هؤلاء الناس وما كان من تصرفهم ، ثم جاء حكم الله خير علاج لأحوالهم .

وتأتى بعد ذلك آيات تكرر الغضب على الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله كسلاً وكراهة في الحرب ، ولم يكتفوا بذلك بل مضوا في حث الناس على القعود وعدم الخروج في الحر :

(١) ابن كثير ٤ / ١٢٦ .

« فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا: لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ. قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٩-٨١). فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٩-٨٢).

ثم تلى ذلك آيات تذكر عقوبات أخرى لهؤلاء :

« فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٩-٨٣) وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَسَرُوا بِإِلَهِ رَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٩-٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٣-٨٥) ».

وهكذا نرى أن الله سبحانه جعل عقاب أولئك المخالفين والقاعدين بيده وحده ،

وهو الذى عاقبهم وحكم عليهم فكان ذلك أباح حكم ، فاختفوا بحكم الله لا بحكم أحد ، لأن الناس قد يخطئ بعضهم فى حق بعض ، وقد يسئ بعضهم الحكم على بعض فتكون العقوبة غير عادلة ، ولكن الله سبحانه يعرف الناس أجمعين ظاهراً وباطناً ، ولهذا كان عرضه لحالاتهم صادقاً وحكمه عليهم حاسماً .

وهذا هو الذى نراه فى المجتمع الإسلامى فى العصر النبوى ، وهو يصدق أيضاً على كل الجماعات الإسلامية بعد ذلك ، وهذا هو موقف العبرة الكبرى فى الإسلام فإن الله سبحانه هو الذى يهتدى الناس ، والناس لا يستطيعون هداية بعضهم بعضاً ، وإنما يقف جهدهم عند بيان الدين وشروحه للكافرين أو المقصرين ، والبقية ، وهى هدية الناس أو عقابهم إذا كانوا لا يفتحون قلوبهم للحق - بيد الله سبحانه وتعالى .

وحتى لو جاءوا بعد ذلك يعرضون على الرسول أن يخرجوا معه فإن الله سبحانه لا يرضى عن خروجهم ويقول لهم : لقد قعدتم عن الخروج أول مرة كسلًا وتهاونًا بأمر

« لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٩ - ٩١)
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢-٩) .

وهذا حدث فعلاً ، إذ أن نفراً من المؤمنين، الصادقين لم يجدوا سلاحاً ولا ما يركبونه للخروج في تلك الغزوة البعيدة فاعتذر الرسول إليهم بأنه لا يملك ما يحملهم عليه فإزولوا وهم يبكون .

وقد تولى بعض المؤمنين إعانة بعضهم فمأطوا رجلين منهم جملاً ليركبوا متعاقبين ولكن بقي الكثيرون عاجزين عن الخروج ، وهؤلاء يحفيهم الله سبحانه من العقاب وهذا يصدق أكثر في أيامنا هذه لأن الحرب أصبحت أكثر تعقيداً وصعوبة ، وإذا كان كافياً في العصر النبوي أن يساعد مؤمنين إخوانه من المسلمين الصادقين فيعطى اثنين منهم جملاً ليخرجوا عليه ، فإن الحرب في أيامنا تحتاج إلى أكثر من هذه المعونة

الله (فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) . بل إن الله يأمر رسوله الكريم بئلاً يصلى على أحد مات منهم ولا يقوم على قبره لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون .

وكان رسول الله ﷺ يرى قبل نزول هذه الآيات أن الله خير به بين أن يصلى على هؤلاء المنافقين أولاً يصلى ، فاحتار الصلاة على ابن أبي بن سلول لأن ابنه كان مؤمناً ، وقد سأل رسول الله أن يصلى على أبيه عندما مات وصلى عليه فعلاً وقام على دفنه وقد أنكر ذلك عمر وأنكره جبريل كذلك فجاءت هذه الآيات حاسمة هنا حتى لا يصلى المؤمنون على المنافقين والكاذبين بعد ذلك أبداً ، بل إن الله سبحانه حذر رسوله من العطف على أحد من المنافقين إكراماً لأبنائهم المؤمنين .

« وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » .

وبعد ذلك وزيادة في التوضيح من الله سبحانه وتعالى في هذه المواقف جاء قول الله سبحانه :

الدولة وتنظيمها وتسليحها خطأ ولا يجوز ،
فإن الناس أصبحوا في أيامنا ملايين
كثيرة ، ومن الممكن أن يحاول البعض
خداع الدولة والزعيم بأنهم مسؤولون عن
القتال مباشرة . وهذا خطأ وخطر ، وحتى
إن زعم بعضهم أن الدولة أهملته فإنه
لا يحوز له أن يعد نفسه للحرب ويقوم
بها بنفسه أو مع جماعة من أمثاله فذلك
خطأ .

ومن الواجب أن يتقدم كل من يريد
الدفاع عن الوطن والدين إلى الدولة وهي
التي تتولى كل مسؤوليات الحرب والجهاد
وإعداد الحيوش للقيام بالحروب على
مستوى العصر .

وبعد آيات قليلة يأتى الكلام على
الأعراب ، والمراد بهم هنا - وفي العصور
التالية - الجهال الذين يعيشون في جماعات
غير منظمة بعيداً عن الجماعات المستقرة
المتحفزة ، فهؤلاء تشغلهم الفوضى التي
يعيشون فيها عن الدين ومطالبه ، ثم إن
الجهل والفوضى تجعلهم بعيدين بالقلب
والإحساس عن طلب الهدى ، وقبل أن
نورد كلام الفقهاء في هذه المعاني نورد

البسيطة وتصيح الدولة هي المسئولة عن
خروج الناس إلى الحرب وبدلاً من أن يذهب
الناس إلى الدولة يطلبون المعاونة نجد أن
الدولة في أيامنا هذه هي التي تقوم بتنظيم
الخدمة العسكرية ، فهي تجند الناس في
سن معينة وتعلمهم الحرب وتمرنهم على
استخدام السلاح وتعددهم للحرب دفاعاً
عن الوطن حتى إذا جاء وقت الحرب
كانوا قادرين على الحروح والتبات والحرب
واستعمال أجهزة العصر وأدواته .

وأصبح الواجب على الناس في أيامنا
الصدق مع الدولة والإخلاص في التدريب
واستعمال الأجهزة والسلاح ، وأصبح هذا
كله فاصلاً في أيامنا حتى إن رجالاً في
الغرب فاتتهم سن الحرب والقدرة عليها
فلجأوا إلى الكذب في تعيين مسهم لكي
يخرجوا مع المقاتلين ولا يبقوا مع القاعدين
فاجتهد رجال الدولة في إفهامهم أنهم
يعرفون مسهم ويعرفون كذلك أن
هذه السن لا تساعد على التبات والقتال
في الميادين .

ومن هنا نرى أن ما يزعمه البعض من
أنهم مسؤولون عن الحرب والدفاع دون إذن

الآيات القرآنية الكريمة : قال سبحانه .

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَتَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩-٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩-٩٩)

ونلاحظ هنا وكذلك لاحظ المفسرون أن الله سبحانه قسم الأعراب هنا إلى قسمين :

قسم منافق كافر وقسم مؤمن .

قال ابن كثير : أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم وبماقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أي أخرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند .

فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريبني .

فقال زيد : ما يريبك من يدي ؟ إنها الشمال .

فقال الأعرابي ، والله ما أدرى اليمين يقطعون أم الشمال ؟

قال زيد بن صوحان : صدق الله :

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ »^(١)

ونلاحظ هنا أن ذلك الأعرابي لم يكن جاهلاً فحسب ، بل كان كذلك شريراً سيء القلب ، فهو يسخر من الشيخ لمجرد أنه شيخ عالم

وروى ابن كثير هنا حديثاً عن ابن عباس يقول فيه بعد السند :

(من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصبيد غفل « عن أوقات الصلاة » ، ومن أتى السلطان افتتن)^(٢) .

وقد علق الترمذى على ذلك الحديث

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٧٠٩٣ (١٤ - ٤٢٩) .

(٢) مسند الإمام أحمد ١ - ٣٥٧ ، ابن كثير ٤ - ١٤٠ .

بقوله : حديث حسن غريب لا نعرفه
إلا من حديث التورى .

ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله :
ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي
لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت
البعثة من أهل القرى كما قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي
إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

(سورة يوسف ، الآية ١٠٩)

أى أن الله سبحانه يختار رسوله من أهل
القرى والجماعات المستقرة المتحضرة .

قال ابن كثير في تفسير الآية : (وأخبر
تعالى أن منهم « مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ » ، أى
في سبيل الله مغرمًا أى غرامة وحسارة .
« وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ » ، أى ينتظر
بكم الحوادث والآفات . ثم يقول بعد
ذلك : « وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ
اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ » .

هذا هو القسم الممدوح من الأعراب .
وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله
قربة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك
دعاء الرسول لهم . « أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ »
أى إن ذلك حاصل لهم : « سَيُتَخِلَّوهُمْ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وقد فات ابن كثير أهم شيء هنا ،
وهو ما كان ينبغى له أن يفوته وهو عدل
الله سبحانه وتعالى في الحكم على الناس .
فما كان ليصدر حكماً عاماً على كل الأعمال
بأنهم : « أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ
أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » . فإن في الأعراب
مؤمنين أتقياء يتخذون ما ينفقون في سبيل
الله قربات يتقربون بها إلى الله ويبغون
بذلك أن يدعوا الرسول لهم

وهذه حقيقة عن الأحوال الاجتماعية في
جزيرة العرب في العصر النبوى فقد كان
الأعراب كثيرين ، ومنهم من كانوا -
مؤمنين ذوى قلوب رقيقة وهؤلاء فهموا
الإسلام حق الفهم ولكن غالبيتهم كانوا
من أشد الناس كُفْرًا ونِفَاقًا ، لأن هذه
هى طبيعة البداوة وجفاءها وخشونتها ،

نفسه قال . لا أدري ، لعمرى أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس ، وقد تكلفمت أى (كلفمت نفسك) شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك . قال نبي الله نوح : « وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، وقال نبي الله شعيب : « بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » سورة هود (١ - ٨٦)

والمراد ببقية الله خير لكم : أى ما أرقاه الله لكم من الحلال .

(انظر : المصحف المفسر لمحمد فريد وجدى من ٢٩٧ - تفسير سورة هود) .

وقد فات ابن كثير أن يلاحظ أن هذه الآية تؤكد ما سبق أن ذكرناه من عدل الله سبحانه ودقة القرآن الكريم فمادام الله قد ذكر في آية سابقة أن من الأعراب وأهل القرى مؤمنين فكان لابد أن يؤكد هنا أن في الحين منافقين وذلك حتى لا يدرك أهل المدينة عرور فيحسبوا أنهم كلهم أفضل في إيمانهم من الأعراب ، بل أن فيهم أيضاً منافقين مردوا على النفاق لا يعرفون أنفسهم ولكن الله يعرفهم وسيُعذبون مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم .

ولن يصلح المجتمع العربى فى جزيرة العرب إلّا إذا قضى على البداوة واستقر سكانها أجمعين وساروا فى طريق الحضارة ، وهذا هو ما أدركه الملك عبد العزيز آل سعود عندما تولى أمر جزيرة العرب وقرر أن يخرجها من الصياع والتفرق الذى كانت تعانيه ، وينشئ من أولئك العرب ، بدواً وحضراً مجتمعاً واحداً متحضرًا متسانداً . أى أمة عربية ، وقد وفق فى ذلك ، لأنه كان يسير فى تفكيره السياسى وعمله فى تطبيق ذلك التفكير على القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ومن الحقائق الاجتماعية والفكرية التى تتضمنها الآيات بعد ذلك ما يقوله ابن كثير : وقال عبد الرارق : أخبرنا معمر عن قتادة فى هذه الآية :

« وَبِمَن حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ » (٩ - ١٠١)

أنه رأى رسول الله ﷺ قال : ما بال أناس يتكلفون علم الناس : فلان فى الحمة وفلان فى النار ، فإذا سألت أحدهم عن

فقد كان ميالاً إلى أن يجعلهم يشعرون
بكفرهم وإنكار المسلمين لهم .

والقرآن الكريم كان يؤيد اتجاهه هذا
حتى يجيء اليوم الذي يختفون فيه ،
ويكون المجتمع في هذه الحالة هو الذي
حكم عليهم بالموت ، وهذا هو الذي حدث
فعلاً .

والآية التالية تعطينا صورة لطراز آخر
من أهل المدينة وهو طراز المؤمنين الذين
لا يساور قلوبهم شك ، ولكنهم كسالى
وميالون إلى الراحة والقعود عن القيام
بما أمر الله سبحانه ، وهؤلاء يعترفون في
العادة بذنوبهم ويرحون أن يغفر الله لهم ،
وهم يقومون في أثناء ذلك بأعمال صالحة ،
خطو كسلهم وإهمالهم باعترافهم به
بينهم وبين الله : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَأَخْرَسَيْنَا » فهوؤلاء كما يقول ابن كثير
تحت عفو الله وغفرانه .

وهذه وإن كانت نزلت في أناس معينين
إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين
المخلصين المتلوثين ، وقد قال مجاهد : إنها

ثم يورد ابن كثير بعد ذلك حديثاً
ينسب به إلى السدي رواية عن ابن عباس
يقول : قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم
الجمعة فقال : اخرج يا فلان فيانك منافق
واخرج يا فلان فيانك منافق فأخرج من
المسجد ناساً منهم ، فضمهم فجاء عمر
وهم يخرجون من المسجد فاقتبأ منهم
حياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن أن الناس
قد انصرفوا ، واقتبأوا هم من عمر ، ظنوا
أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل
المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له
رجل من المسلمين : أبشر يا عمر ، قد
فضح الله المنافقين اليوم !

قال ابن عباس : فهذا العذاب الأول
عن إخراجهم من المسجد ، والعذاب الثاني
عذاب القبر^(١) .

وهذا من الأحاديث التي لا يدري الإنسان
إن كان يقبلها أو لا يقبلها . من الناحية
التاريخية أقصد ، لأن هذا المذهب في
معاملة الناس - والمنافقين خاصة - لا يتفق
مع ما نعرف من بعد نظر الرسول في معاملتهم

(١) ابن كثير (٤ - ١٠٤) .

أموالهم وتزكيتهم ، فإذا طهر مال المسلم
وركت نعمة بعد أداء الزكاة أصبح في
حالة يستحق فيها أن يصلي الرسول عليه ،
أى يطلب له الرحمة من الله ، وهذه الصلاة
في ذاتها تملأ نفسه أمناً وسكناً لأنه يحس
أنه أصبح من المؤمنين الصادقين القريبين
من رسول الله المرضى عنهم وهم أهل
لصلاته .

ونحن في يومنا هذا نذكر هذه الآية
في بحثنا عن النظام المالى الإسلامى ، فإن
الإسلام يقول : إن المال كله لله سبحانه
وهو يستخلفنا فيه ، ومن واجبتنا أن نعمل
على إنمائه فإذا نما المال كان على صاحبه
أن يؤدي زكاته حتى يطهر ماله وتزكو
نفسه ، وبدون هذا يظل ماله غير طاهر
ولا يحوز له الاستمرار في ملكيته وهذا
يخالف ما عاينه معظم الناس من استثمار
أموالهم في المصارف وهم في معظم الحالات
لا يهتمون بالزكاة ، فيظل مالهم غير طاهر
أى غير حلال ، ثم تجئ أرباح البنوك
فتزيد من سوء وضع الإنسان وتزيد حرامه
وقد قررنا هذا كله فيما كتبناه عن الربا .

* * *

نزلت في أبى لبابة لما قال لبنى قريظة :
(إنه الذبح) وأشار بيده إلى حلقه ،
ولم يكن رسول الله ﷺ قد قال له شيئاً
من هذا ، ولا أذن له فيه ، فتنبه إلى
خطئه ، وذهب فربط نفسه إلى سارية
في المسجد وأصر على أن يظل مربوطاً حتى
يغفر الله له إذا شاء ، وعندما غفر الله له
ونزلت آية بذلك وأذن الله له في أن ينطلق
أو تطلقه ابنته أبى إلا أن يكون رسول الله
بنفسه ، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك .

ويهمنا هنا أن نقول : إن هذا الطراز
من المؤمنين الكسالى الميالين للإهمال كثيرون
جداً في المجتمع الإسلامى ، بل هم غالبية
في أيامنا التى تجد الناس فيها كسالى ،
مهملين رغم إيمانهم ، وهؤلاء تحت عفو
الله وغفرانه كما يقول ابن كثير .

ثم تجئ بعد ذلك الآية ١٠٣ وهى
الآية التى تهتم أى دارس للإسلام اهتماماً
خاصاً ، فهى تعين دور الزكاة في أمواله
وتبين كيف أنها رئيسية لكل مؤمن ، فإننا
نعلم هنا أن الزكاة لاتعين المسلم الفقير
المسكين العاقر فحسب ، بل إن فائدتها
لأن يؤديها أعظم ، فهى تطهرهم وتطهر

غزوة تبوك ، وعندما فرغ من الغزوة وسار في طريق العودة جاءه من الله ما يكشف له خطيئة هذا المسجد وأهله .

وبهذه المناسبة نقول : إن أهل الفقه والحديث يدكرون هنا أبا عامر الذي كان يوصف قبل الإسلام من جانب أصحابه بالراهب ، ولقبه المسلمون بالفاسق ، وكان هذا الرجل من الخزرج ، ولكننا لانعرف إن كان من بنى عمرو بن عوف أهل قباء ، ولكن الظاهر أنه كان منهم .

وكان فيما يقال نصرانياً وكان يرجو أن تكون له مكانة كبيرة في المدينة بسبب حماسه لهذا الدين ، ولكننا لا نجد له أتباعاً من النصارى في المدينة ، ولا نسمع أنه فكر في إقامة كنيسة وإحضار الأنجيل إليها ، وغاية ما نستطيع قوله أنه كان يتمتع بمركز لا بأس به في المدينة ويرجو أن يزداد مع الزمن ، ولعله كان مثل عبد الله ابن أبي بن سلول .

فلما جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة ودخل الناس في الإسلام وتحمسوا له ضاع أمر أبي عامر ، فحقد على الإسلام ونبيه .

وتلى ذلك في هذه السورة الجليلة آيات عظيمة القيمة من الناحية الإسلامية والفقهية ولكنها لا تقدم لنا مادة تدخل في موضوع هذا البحث وهو الإطار التاريخي لسورة براءة .

وسأستعرض هذه الآيات الساقية من السورة لنرى إن كان فيها إلى جانب ما ذكرنا مادة تنفعنا في رسم الأحوال السياسية والدينية لأهل المدينة وبقيّة الجزيرة العربية .

الآيات من ١٠٢ إلى ١٠٩ تدور كلها حول مسجد الضرار الذي بناه في قباء نفر من المنافقين من بنى عمرو بن عوف من الخزرج من آل قباء ، وكان غرضهم المطوى في نفوسهم من إنشائه هو أن يكون مركزاً من مراكز تجمعهم ونشاطهم المعادي - للإسلام .

وقد أرادوا أن يعطوا مسجدهم أهمية كبيرة فطلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يصلي فيه التماساً للبركة كما قالوا .

وكان في نفس رسول الله شيء من أمر أولئك الناس فأرجأ الاستجابة إلى ما بعد

المدينة يبشروهم بأن قيصرو سيؤيده ، وطلب إليهم أن يتخذوا معقلاً يقدم عليهم فيه ، فبنوا ذلك المسجد ورعموا أنه للمسلمين وسألوا الرسول ﷺ أن يصلى فيه ، فأنظرهم إلى ما بعد تبوك ثم كشف الله أمرهم ، فلما اقترب من المدينة وهو عائد من تبوك ، فدعا مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى وأخاه عامر بن عدى أخا بنى العجلان ، وأمرهما أن يمثيا في أصحابهما إلى هذا المسجد فيحرقاه ويهدماه ففعلا

ثم نزلت الآية ١٠٨ من سورة التوبة تؤكد أن هذا المسجد كان مركز ضرار وكفر وتفريق بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله :

« وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسَسَّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ » . (سورة التوبة ، الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨)

والمسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم ، وقد أصبح مكان هذا المسجد

قال ابن كثير : (شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها . ويظهر أنه لم تكن له مكانة في قومه كما كان لابن أبي في قومه فخرج وارا إلى مشركى قريش وألبهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله وكانت العاقبة للمتقين (ص ١٤٩) .

ثم يذكر ابن كثير أن هذا الرجل حفر حفراً فيما بين الصفيين وفي إحدى هذه الحفر وضع رسول الله ﷺ وأصابه - مانعرف وتقدم أبو عامر من قومه ودعاهم لتأييده ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله ! فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدى شر وكان رسول الله ﷺ قد حاول هدايته فأبى فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت طريداً شريداً ، ففاته هذه الدعوة ، لأنه بعد ما حدث في أحد من نفر المسلمين آخر الأمر ورفضهم إياه ذهب إلى هرقل - يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه ، فظل مقيماً عنده فكتب إلى أنصاره في

مزملة وقتاً طويلاً بعد ذلك ثم زال -
(ابن كثير التفسير ٤ - ١٤٩) .

ثم تأتى بعد ذلك الآية ١١١ من سورة التوبة وهى مشهورة وهامة جداً وفيها بيان أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم بأن لهم الجنة ، وأنهم يقاتلون غيقتلون ويقتلون وأن هذا وعد من الله سبحانه للمتقين وهذا الوعد وارد فى التوراة والإنجيل والقرآن :

« وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ » .

والآية ١٢٠ تقول : « مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » .

وقد صدق الله تعالى ، فإن أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أقبلوا على الجهاد

راضين ولم يصيبهم ظمأٌ ولا نصب ولا مخمصة طوال العهد النبوى . وفى ختام الكلام فى تفسير هذه الآية يقول ابن كثير : (وقال الحوفى عن أبيه عن ابن عباس فى هذه الآية : كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى ﷺ فيسألونه ما يريدون من أهل دينهم ويتفقون فى أمر دينهم ويقولون ، لنبى الله . ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا ما نقوله لعشائرننا إذا قدمنا وانطلقنا إليهم .

قال : فيأمرهم نبى الله بطاعة الله وطاعة رسوله وبيعهم إلى قمرهم بالصلاة والركاة وكانوا إذا أتوا قومهم بادوا : إن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله يخبرهم وينذرون قومهم ، فإذا رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة (ابن كثير ٤ - ١٧٣) .

والكلام هنا غير متصل تماماً ، ولكن هكذا نقله من الأصل الرجال الذين أشرفوا .

والسورة غنية بعد ذلك بالآيات التى تؤكد روعة القرآن الكريم فى التفسير

الله فيرتفع مكاننا ، وهو يقبل صلاتنا - إذا قبلها - فيزداد جلاله سبحانه وكذلك الحال مع الصيام ، ومع ذلك فإن المسلمين لهم أيضاً نصيب في عمل كل مسلم ، فإنهم لابد أن يروا نتيجة عمله ويحسوا بها وبعد ذلك نرد جميعاً إلى عالم الغيب والشهادة - وهو الله - فينبئنا بما كنا نعمل :

« وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (١٠٥ - ٩) .

وبعد ذلك تجيء الآية ١١٧ فترينا كيف « تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » (١١٧ - ٩) .

وأنت ترى هنا أن الله يضع رسوله فيمن تاب عليهم قبل المهاجرين والأنصار ، لأن الرسول أذن لبعض ضعاف الإيمان أن يتخلفوا عن الخروج معه إلى تبوك وطلب المغفرة لرجل كافر القلب مثل ابن أبي وأعطى ابنه قميصه ليلبسه إياه في ساعة الموت إلتاماً للرحمة ،

وتأكيداً للمعنى مرة بعد أخرى مع اختلاف النص في بعض الأحيان ، وإذا تشابه النص فإن الإنسان لا يلبت أن يدرك أن هذا التشابه طاهرى وأن القرآن يقدم في كل آية معنى جديداً ، نخذ مثلاً الآيات من ١٠٤ - ١٠٥

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (١٠٤ - ٩) .

والبلاغة القرآنية هنا مبينة في كل لفظ ، فانظر مثلاً قوله إن الله يقبل التوبة عن عباده ، فحرف « عن » هنا عظيم الدلالة والمعنى هنا يختلف كل الاختلاف عن معناه إذا قال : « من » عباده ثم انظر بعد ذلك إلى قوله تعالى : (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) والمعنى هنا جديد جداً ، فقد رأينا مصارف الصدقات فيما سلف ، ولكننا نرى هنا أن الله يأخذ الصدقات ، أى أنها مهما اختلفت مصارفها فإنها كلها تصير إلى الله سبحانه فإن المسلم هنا يتعامل مع الله مباشرة - مما يزيد جلال الله ويرفع من قدر المؤمن ، والحال هنا هو نفس الحال مع الصلاة ، فسحن في الصلاة نقف بين يدي

ثم صلى عليه واشترك في دفنه دون أن يأذن له الله في ذلك .

ثم جاء بعد ذلك عتاب الله الحميل للرسول ثم أمره إياه بالأذن لأحد منهم في التخلف إلا إذا جاءه إذن بذلك من الله .

وفي سورة أخرى يعطى الله رسوله الكريم الحق في الإذن لمن يرى أنه يستحق الإذن له في التخلف ثم يتوب الله على المهاجرين والأنصار من بعد ما كاد يزيغ قلوب منهم لأنه سبحانه رؤوف رحيم .

وفي الآية ١١٨ إشارة إلى الثلاثة الذين تخلفوا دون مبرر مقبول عقلاً وشرعاً وقعدوا عن الخروج ، وقد رووا بعد ذلك قصصهم وهى تدل على أنهم لم يكونوا أهل كفر بطلبهم ، ولكن الكسل والانصراف إلى مشاغل الحياة قعد بهم ، فغضب الله سبحانه عليهم ثم تاب عليهم وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي .

ويلاحظ أنهم كلهم كانوا من خمسة قبائل من الأوس توقفوا عن الدخول في الدعوة فسموا أوس مناة ، ثم تابوا ودخلوا

في الدعوة عن إيمان فسموا أوس الله ، وهم ثم إيمان الأوس وإسلامهم جميعاً (انظر تفسير ابن كثير ٤ - ١٦٥ - ١٧٠) .

« وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٤ - ١١٨) .

ثم تبحر بعد ذلك الآيات ١٢٠ - ١٢٢ وفيها ذكر التوبة العامة على المؤمنين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ممن لم يتخلفوا عن رسول الله ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه .

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩ - ١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩ - ١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ

بما تحمله كل مسلم على حدة وما أنفق كل
منهم من ماله مما لا يعلمه الناس ، ولكن
الله يعلمه ويكافئ عليه

أقول لو علم معاصرو عثمان بالمعاني
العظيمة التي تضمنتها هذه الآيات العظيمة
لما أصروا على مطالبة عثمان ولما كانت الفتنة
الكبرى التي نظر فيها رجال مثل معاوية
إلى ما يمكن أن يصيبهم من الدنيا من
ورائها ، فعرضوا على عثمان أن يخرج
إليهم - إلى دمشق مثلاً - ، من المدينة
فإن لديهم هناك الرجال والأموال ، وهم
يستطيعون نصرة عثمان - والحكم باسمه
لأن ذلك لم يكن في يده في المدينة ولكن
عثمان رفض أن يترك مدينة رسول الله ﷺ
في سبيل الحكم أو أي عرض من أعراض
الدنيا انظر التفصيل في تفسير ابن كثير
الجزء الرابع .

* * *

وبعد أن تأتينا السورة بإشارات بالغة
البلاغة والحكمة عن كفر الكافرين ونفاق
المنافقين ، وما أعد الله لهؤلاء وأولئك
من سوء العذاب تحيى نهاية هذه السورة ،

طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ
إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (٩-١٢٢).

والكلام في هذه الآيات ينطبق على
المهاجرين والأنصار والأعراب الذين عاصروا
رسول الله ﷺ ولكنه أيضاً ينطبق على
المسلمين في كل عصر بعد ذلك ، فما كانت
غزوة تبوك ثم سورة التوبة من بعدها إلا درساً
عظيماً للمسلمين في كل العصور فإن المسلم
المحاهد مهما لقي من متاعب من ظمأ وتعب
وجوع ، ومهما تحمل في سبيل الإسلام
من لقاء الأعداء فإن له ثواباً خاصاً من الله
على كل شيء من ذلك إلى جانب ما ترزقه
الجماعة إياه من أجر أو مكافأة ، فإن أجر
الناس شيء وأجر الله شيء ، وهذا الأخير
هو الأعظم والباقي .

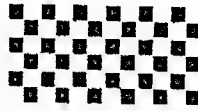
ومعاني هذه الآيات غاب عن النفر الذين
تجمعوا في المدينة في منتصف خلافة عثمان ،
وقد أتوا إليها ليطالبوا عثمان بالجزاء والمكافأة
ولم يكن لدى عثمان ما يكافئهم به ، وقد
حاول عثمان أن ينصحهم ويلفت نظرهم إلى
أن المكافأة الحقيقية تأتي من عند الله سبحانه
وأن مكافأة الناس للمحاهد لاتعد شيئاً إلى
جانب مكافأة الله ، لأن الله سبحانه أعلم

وهما آيتان مشهورتان ولا يزال المسلمون
يكررونهما في شتى ما يلزمهم من ظروف
نظراً لما فيهما من الحكمة العظيمة والبلاغ
الكامل ، وما تضمنياه على قلب المؤمن
من إيمان بالله وسعادة بهذا الإيمان :

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ
رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ» (٩ - ١٢٨) فَإِنْ تَوَكَّلُوا فَقُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٤-١٢٩) .

فإن المسلم في كل عصر أو زمان أو مكان
لا يزال يتسعر بأن الله أرسل إلينا رسولا من
أنفسنا يشاركنا آلامنا ومتاعبنا ، إذ
يصعب عليه رؤية ما نعاني ونقاسى ، وهو
صلى الله عليه وسلم لا يزال يدعو للمؤمنين
بالمغفرة والمعونة فيستجيب الله له في
حالات المؤمنين الصادقين أما غير المخلصين
الذين يتولون عن الرسول ودعوته فإن
الرسول يتركهم إلى الله سبحانه ، وهو
حسبه «عليه توكَّلوا وهو رب العرش العظيم» .

حسين مؤنس
عضو الجمع



المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة :

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر :

أنساب الأشراف ج ٩ ، ١٠

مصور نسخة دار الكتب المصرية - القاهرة رقم ١١٠٣ أنساب الأشراف ج ٤ .

مصور نسخة الخزانة الملكية في الرباط رقم ٢٥١٨

مصور الخزانة العامة في الرباط رقم ٦٩١٤

الكلاعى البلنسى . سليمان بن موسى ، أبو الربيع :

الاكتفاء من مغازى رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء .

مصور نسخة جامعة الكويت ج ١ رقم ٢٥٥ ، ج ٢ رقم ٢٥٦

ابن الكلبي : هشام بن محمد ، أبو المنذر :

جمهرة النسب

مصور نسخة المتحف البريطاني ج ١ رقم ٢٣٢٩٧ ، ج ٢ رقم ٢٢٣٧٦

المصادر المطبوعة :

ابن الأبرص : عبيد ، أبو زياد الأسدي :

(ديوان عبيد بن الأبرص) ، تحقيق حسين نصار ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ،

طبعة ١ - ١٩٥٧

ابن أبي الحديد : عبد الحميد بن هبة الله بن محمد ، عز الدين :

(شرح نهج البلاغة) ، تحقيق حسن تميم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٣ ،

٥ أجزاء .

ابن الأثير : علي بن محمد ، أبو الحسن عز الدين الحزري :

(أسد الغابة في معرفة الصحابة) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (ب ت)
٥ أجزاء

(الكامل في التاريخ) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٥ . ١٣٠ جزء
(اللباب في تهذيب الأنساب) ، دار صادر ، بيروت ، (ب ت) ٣ أجزاء .

ابن أعثم : أحمد بن أعثم ، أبو محمد الكوفي :

(كتاب المنتوح) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند - ١٩٦٨ -
١٩٧٥ ، ٨ أجزاء .

الباقلاني : محمد بن الطيب ، أبو بكر :

(إيجاز القرآن) ، تحقيق أحمد صقر دار المعارف بمصر ١٩٦٣

البخاري : إسماعيل بن إبراهيم الجعفي ، أبو عبد الله :

(كتاب التاريخ الكبير) ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ١٩٨٦ . ٨ أجزاء

ابن بدران : عبد القادر بن أحمد :

(تهذيب تاريخ دمشق) ، مطبعة الترقى بدمشق ، ١٣٢٩ - ١٣٥١ هـ ، ٧ أجزاء .

البسوي : يعقوب بن سيفان ، أبو يوسف :

(كتاب المعرفة والتاريخ) ، تحقيق أكرم ضياء العمري . مطبعة الإرشاد ، بغداد ،
عام ١٩٧٤ - ١٩٧٦ ، ٣ أجزاء .

البغدادى : عبد القادر بن عمر :

(خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) ، المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٧ هـ ،
٤ أجزاء .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر :

- (أنساب الأشراف) ج ١ ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩
 (فتوح البلدان) ، تحقيق صلاح الدين المسجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
 عام ١٩٥٦ - ١٩٥٨ ، ٣ أجزاء
 - الشيخان ، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وولدهما ، من كتاب الأنساب ،
 تحقيق إحسان صدقي - الكويت ، ١٩٨٩

البيهقي : إبراهيم بن محمد :

- (المحاسن والمساوئ) ، تحقيق محمد أنو الفضل إبراهيم ، مكتبة النهضة مصر ،
 القاهرة ، ١٩٦١ ، ٢ ج .

التبريري : يحيى بن علي ، أبو زكريا :

- (شرح ديوان الحماسة لأبي تمام) ، تحقيق محمد عبد القادر سعيد ، مكتبة النورى
 دمشق (ب ت) .

الترمذي : محمد بن عيسى السلمى ، أبو عيسى :

- (سنن الترمذي) ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٨

ابن تغري بردى : يوسف ، أبو المحاسن :

- (النجوم الراهرة في ملوك مصر والقاهرة) ، هيئة الكتاب بالقاهرة ، الطبعة الثانية ،
 ١٠ أجزاء .

الجاحظ : عمرو بن بحر ، أبو عثمان :

- (البيان والتبيين) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي في القاهرة ،
 مكتبة الهلال في بيروت ، طبعة ١٩٦٨ / ٣ ، ٤ أجزاء .

ابن الجورى : عبد الرحمن بن على بن محمد ، أبو الفرح

(صنفه الصنفوة) ، تحقيق محمود فاحورى ، دار الوعى . حلب . طبعة ١ / ١٩٦٩ .
٢ ج .

(مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب) ، تحقيق زيبب إبراهيم القاروط .
دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ٢ / ١٩٨٢

حاتم الطائى . حاتم بن عبد الله ، أبو عدى :

(ديوان حاتم الطائى) ، تحقيق كرم دستانى . دار صادر . دار بيروت . ١٩٦٣

ابن حبيب البغدادى محمد بن حبيب بن أمية .

(كتاب المجبر) ، تحقيق أيلرة ليحتن شتير . دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد
الدكن ، الهند ، ١٩٤٢

(كتاب المنطق فى أخبار قريش) ، تحقيق خورشيد فاروق . دائرة المعارف العثمانية .
حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤

ابن حجر . أحمد بن على ، أبو الفصل ، شهاب الدين . العسقلانى :

(الإصالة فى تمييز الصحابة) ، دار إحياء التراث العربى . بيروت . مصور الطبعة
الأولى ، ١٣٢٨ هـ ، ٤ أجزاء .]

(تهذيب التهذيب) ، دائرة المعارف النظامية . حيدر آباد الدكن . الهند .
عام ١٣٢٥ هـ ، ١٢ جزءاً .

(فتح البارى بشرح البخارى) ، مطبعة مصطفى المائى الحلبي . القاهرة . ١٩٥٩ ،
١١ جزءاً .

ابن حزم : على بن أحمد بن سعيد ، أبو محمد .

(جمهرة أنساب العرب) ، تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف بمصر . ١٩٦٢

حسان بن ثابت :

(ديوان حسان بن ثابت) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦١

الحميري : محمد بن عبد المنعم ، أبو عبد الله :

(الروض المعطار في خبر الأقطار) ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، -
بيروت ، ١٩٧٥

الحميري : نشوان بن سعيد ، أبو سعيد :

(المحور العين) ، تحقيق كمال مصطفى ، دار آزال ، بيروت ، طبعة ٢ ، ١٩٨٥

ابن حنبل : أحمد بن محمد ، أبو عبد الله :

(مسند الإمام أحمد بن حنبل) ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، دار صادر ،
بيروت (ب ت) - وطبعة دار المعارف بالقاهرة ، تحقيق الشيخ أحمد محمد
شماكر ، ١٥ جزءا .

الخطيب البغدادي : أحمد بن علي ، أبو بكر :

(تاريخ بغداد) ، دار الكتاب العربي ، بيروت (ب ت) ، ١٤ جزءا .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، أبو زيد .

(كتاب العبر وديوان المبتدأ والحبر .) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٥٨ -
١٩٦٧ ، ٧ أجزاء على أساس طبعة بولاق - القاهرة .

ابن خلكان . أحمد بن محمد ، أبو العباس ، شمس الدين :

(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) ، تحقيق محمد عبد الحميد ، مكتبة النهضة
المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ٦ أجزاء .

ابن خياط: : خليفه بن خياط العصفري البصري :

(تاريخ خليفه بن خياط) ، تحقيق سهيل زكار ، وزارة الثقافة والسياحة و الإرشاد
القوى ، دمشق ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، ٢ ج .

الدميري : محمد بن موسى ، أبو الققاء ، كمال الدين :

(حياة الحيوان الكبرى) ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة . ١٩٦٣ . ٢ ج .

الديكار بكري : حسين بن محمد بن الحسن :

(تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس) ، مؤسسة شعبان . بيروت . مصور
نسخة المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ ، ٢ ج .

الدينوري : أحمد بن داود ، أبو حنيفة .

(الأخبار الطوال) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية . القاهرة .
عام ١٩٦٠

الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، شمس الدين :

(تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام) ج ١ ، السيرة النبوية . القاهرة ١٩٧٠
ج ٣ ، تحقيق حسام الدين القدسي ، مطبعة القدس . القاهرة ١٩٧٩
(تذكرة الحفاظ) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن . الهند . طبعة
١٩٥٦ / ٣ ، ٤ أجزاء .

(سير أعلام النبلاء) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . طبعة ٣ / ١٩٨٦ . ٢٥ جزءا .
(العبر في خبر من غير) ، تحقيق صلاح الدين المنجد . مطبعة حكومة الكويت .
١٩٦٠ - ١٩٦٦ ، ٥ أجزاء .

الزبيدي . محمد بن محمد ، أبو الفيض ، مرتضى :

(تاج العروس من جواهر القاموس) ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٥

الزبير بن دكار . أبو عبد الله ، القرشي الأسدي :

(الأحبار المرفقيات) ، تحقيق سمي مكي العاني ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٢

الزبيرى : مصعب بن عبد الله ، أبو عبد الله :

(نسب قريش) ، تحقيق آ . ليفي بروفنسال ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٣ ، وطبعة

عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧

ابن زنجويه : حميد :

(كتاب الأموال) ، تحقيق شاكرا فياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات

الإسلامية ، الرياض ، ١٩٨٦ ، ٣ أجزاء

السخاوى : محمد بن عبد الرحمن ، شمس الدين :

(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) ، تحقيق فرانز روزنتال ، مطبعة العاني ،

بغداد ، ١٩٦٢ ، وطبعة أحمد الصالح على ، بغداد ح واحد كبير .

السرخسي . محمد بن أحمد ، أبو بكر ، شمس الدين :

(كتاب المبسوط) ، دار الدعوة ، استانبول ، ١٩٨٢ ، ٣٠ جزءا .

ابن سعد . محمد بن سعد بن منيع الزهرى :

(الطبقات الكبرى) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٩ ، ٨ أجزاء .

(الطبقات الكبرى - القسم المتتم) ، تحقيق زياد منصور ، مكتبة العلوم والحكم ،

المدينة المنورة ، طبعة ١٩٨٧ / ٢ ، ٤ أجزاء .

السميعاني : عبد الكريم بن محمد ، أبو سعد .

(الأنساب) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن . الهند . ١٩٦٢

السمهودي : علي بن أحمد ، نور الدين :

(وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) ، تحقيق محمد عبد الحميد . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (ب ت)

السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين :

(تاريخ الخلفاء) ، تحقيق قاسم الرفاعي ، محمد العناني . دار القلم . بيروت
عام ١٩٨٦

(السماريخ في علم التاريخ) ، تحقيق إبراهيم السامرائي . مطبعة أسعد . بغداد .
عام ١٩٧١

(طبقات الحفاظ) ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة . القاهرة . ١٩٧٣ .

ابن شيبه عمر بن شيبه النميري البصري :

(تاريخ المدينة المنورة - أخبار المدينة النبوية) ، تحقيق فهد محمد شلنوت .
دار الأصفهاني للطباعة ، جدة ، طبعة ١٣٩٣ / ٢ ، ٤ أجزاء .

الصفدي . خليل بن أيوب ، صلاح الدين .

(نكت الهميان في نكت العميان) ، تحقيق أحمد زكي . المطبعة الحمالية -
مصر ، ١٩١١ .

(الوافي بالوفيات) ، جمعية المستشرقين الألمانية ، ١٩٤٩ - ١٩٨٢ . فرنر شتاينر -
فسيبادن .

الطبري : محمد بن جرير ، أبو جعفر :

- (تاريخ الرسل والملوك) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ - ١٩٦٩ ، ١٠ أجزاء .

- تفسير الطبري - ٢٠ جزءا - القاهرة (ب - ت)

العباسي : أحمد بن عبد الحميد :

(عمدة الأخبار في مدينة المختار) ، تحقيق حمد الجاسر ، طبعة ٥ - ب ت

ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله ، أبو عمر القرطبي :

(الاستيعاب في معرفة الأصحاب) ، تحقيق علي البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، (ب - ت) ، ٤ أجزاء .

(بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذاهن والهاحس) ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ٢ / ١٩٨٢ ، ٣ أجزاء .

(الدرر في احتصار المغازي والسير) ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٨٣

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد ، أبو عمر :

(العقد الفريد) ، تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الإبياري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ٧ أجزاء .

أبو عبيد : القاسم بن سلام :

(كتاب الأموال) ، تحقيق محمد هراس ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٦٨

ابن عساكر : علي بن الحسن ، أبو القاسم :

(تاريخ مدينة دمشق - تراجم النساء) ، تحقيق سكينه الشهابي ، دمشق ، ١٩٨٢

العسكري : الحسن بن عبد الله ، أرو هلال :

(كتاب الأوائل) ، تحقيق محمد الوكيل ، مطبعة دار الأمل ، طنجة ، المغرب
الأقصى ، (ب - ت) .

ابن العماد : عبد الحى بن أحمد ، أبو الفلاح .

(شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) ، المكتب التجارى ، بيروت ، (ب - ت)
٨ أجزاء .

الغزالي : محمد بن محمد ، أبو حامد :

(إحياء علوم الدين) ، دار الفكر ، مطبعة طبعة لجنة الثقافة الإسلامية ، القاهرة .
١٣٥٦ هـ ، ١٦ جزء

(التبر المسبوك فى نصيحة الملوك) ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٦٨

الغسانى : محمد بن محمد بن أبى الحفص :

(كتاب الخذلان) ، نشره شاكر مصطفى على سبع حلقات فى صحيفة القبس
الكويتية ، من ١٩٨٧/١/٢٣ - ١٩٨٧/٣/١٣ ، الأعداد ، ٥٢٨٠ ، ٥٢٩٤ ، ٥٣٠١ ،
٥٣٠٨ ، ٥٣٢١ ، ٥٣٢٨

ابن فارس : أحمد بن زكريا الرازى :

(معجم اللغة) ، تحقيق هادى حمورى ، معهد المخطوطات العربية ، الكويت ،
عام ١٩٨٥ ، ٤ أجزاء .

أبو الفرج الأصفهاني : على بن الحسين الأموى :

(الأغاني) ، دار الثقافة ، بيروت ، طبعة ٣ - ١٩٦٢ ، ٢٥ جزءا .

الفيومي : أحمد بن محمد :

(المصباح المنير) ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ،
(ب - ت) ، ٢ ج

القالى : إسماعيل بن القاسم العدادى ، أبو على .

(الأمانى) ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، طبعة ٢ - ١٩٢٦

ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم ، أبو محمد :

(الشعر والشعراء) ، تحقيق أحمد شناكر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ ، ٢ ج .
(عيون الأخبار) ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ،
عام ١٩٦٣ ، ٤ أجزاء .

(المعارف) ، تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف بمصر ، طبعة ٣ - ١٩٦٩

ابن قدامة المقدسى : عبد الله بن أحمد ، أبو محمد ، موفق الدين :

(التبيين فى أسباب القرشيين) ، تحقيق محمد بايف الدليمى ، عالم الكتب
مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، طبعة ٢ - ١٩٨٨

القسطلانى : أحمد بن محمد الخطيب ، شهاب الدين :

(إرشاد السارى إلى شرح صحيح البخارى) ، المطبعة الكبرى الأميرية ، القاهرة ،
عام ١٣٢٣ هـ ، ١٠ أجزاء .

القلشندى : أحمد بن على ، أبو العباس :

(صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) ، هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ١٤ جزءا .
(قلائد العقيان فى التعريف بقبائل عرب الرمان) ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ،
دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، طبعة ٢ - ١٩٨٣

(نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، الشركة العربية

للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩

القلمى : عباس بن محمد رضا :

(الكنى والألقاب) ، المطبعة الحيدرية ، البجف ، ١٩٥٦ ، ٣ أجزاء .

ابن كثير : إسماعيل بن عمر ، عماد الدين .

(البداية والنهاية) ، مكتبة المعارف ، بيروت ، مكتبة النصر ، الرياض ، ١٩٦٦ ،

١٤ جزءا .

(تفسير القرآن العظيم) ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٧ ج .

الكلاعى البلسنى : سليمان بن موسى ، أبو الربيع :

(الاكتفاء من مغازى رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء) ، تحقيق مصطفى عبد الواحد

مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ج ١ / ١٩٦٦ ، ج ٢ / ١٩٧٠

ابن الكلبي : هشام بن محمد ، أبو المنذر :

(جمهرة النسب) ج ١ ، تحقيق عبد الستار فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٨٣

الكندي : محمد بن يوسف .

(ولاة مصر) ، تحقيق حسين نصار ، دار بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٩

الماوردي : علي بن محمد ، أبو الحسن :

(الأحكام السلطانية والولايات الدينية) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر . طبعة

١٩٦٦ / ٢

الميرد : محمد بن يزيد ، أبو العباس :

(الكامل) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، السيد شحاتة ، دار نهضة مصر ،

القاهرة (ب - ت) ، ٤ أجزاء

المحب الطبري : أحمد بن عبد الله ، أبو العباس ، محب الدين :

(الرياض النضرة في مناقب العشرة) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٤ .
٤ أجزاء .

الدائني : علي بن محمد ، أبو الحسن :

(كتاب التعازي) ، تحقيق ابتسام الصفار ، بدرى فهد ، مطبعة النعمان ،
النجف ، ١٩٧١

المرزباني : محمد بن عمران ، أبو عبيد الله :

(معجم الشعراء) ، تحقيق عبد الستار فراخ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة
عام ١٩٦٠

(الموشح) ، تحقيق علي البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥

المنزى : يوسف ، أبو الحجاج ، جمال الدين .

(تهذيب الكمال في أسماء الرجال) ، تحقيق بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،
طبعة ٤ ، ١٩٨٥

المسعودي : علي بن الحسين ، أبو الحسن :

(التنبيه والأشرف) ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥

(مروج الذهب ومعادن الجوهر) ، تحقيق يوسف داغر ، دار الأندلس ، بيروت ،
عام ١٩٦٥ ، ٤ أجزاء .

المعلوف : يويس اليسوعى .

(المنجد في اللغة) ، دار المشرق ، بيروت ، طبعة ٢٠ / ١٩٦٩

المفضل الضبي : المفضل بن محمد ، أبو العباس :

(ديوان المفضليات) ، تحقيق كارلوس يعقوب لايل ، مطبعة الآباء اليسوعيين ،
بيروت ، ١٩٢٠

المنذرى : عهد العظيم بن عبد القوى ، زكى الدين :

(مختصر صحيح مسلم) ، تحقيق محمد ناصر الألبانى ، وزارة الأوقاف والشئون
الإسلامية - الكويت - طبعة ٣ / ١٩٧٩

ابن منظور : محمد بن مكرم ، أبو الفضل جمال الدين :

(لسان العرب) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (ب - ت) ٢٠ جزءا .

الميدانى : أحمد بن محمد ، أبو الفضل :

(مجمع الأمثال) ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١ ، ٢ ج .

أبو نعيم الأصفهاني : أحمد بن عبد الله :

(حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، طبعة ٤ / ١٩٨٥
١٠ أجزاء .

النويرى : أحمد بن عبد الوهاب ، شهاب الدين :

(نهاية الأرب فى فنون الأدب) ، ١٩ جزءا ، تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥

ابن هشام : عبد الملك بن هشام ، أبو محمد :

(سيرة النبى ﷺ - السيرة النبوية) ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الإبيارى ،
عبد الحفيظ شلبى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر ، ١٩٣٦ ، ٤ أجزاء .

الواحدى : على بن أحمد ، أبو الحسن :

(أسباب نزول القرآن) ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار الكتاب الحديث ،
القاهرة ، ١٩٦٩

الواقدي : محمد بن عمر :

(فتوح الشام) ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٢ ج .
(المغازي) ، تحقيق مارسدن حونس ، مؤسسة الأعلمى ، بيروت ، مطبعة
لندن ، ١٩٦٦ ، ٣ أجزاء .

الوشائى : محمد بن أحمد ، أبو الطيب :

(الموتى ، أو الظرف والظرفاء) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٥

وكيع القاضى : محمد بن خلف بن حيان :

(أخبار القضاة) ، عالم الكتب ، بيروت ، (ب - ت) ، ٣ أجزاء .

ياقوت الحموى : ياقوت بن عبد الله ، أبو عبد الله :

(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب - معجم الأدباء) ، دار إحياء التراث العربى ،
(ب - ت) ، ٢٠ جزءا .

(معجم البلدان) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٥ ، ٥ أجزاء .

اليعقوبى : أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح :

(تاريخ اليعقوبى) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ٢ ج

أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم :

(كتاب الخراج) ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، طبعة ١٣٩٢ هـ

المراجع :

إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار :

(المعجم الوسيط .) ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المكتبة العلمية ، طهران ، (ب ت)

جواد علي :

(المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، مكتبة

النهضة ، بغداد ، ١٩٦٨ - ١٩٧٣

حميد الله : محمد :

(مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ، دار الإرشاد ، بيروت

طبعة ٣ - ١٩٦٩

الدباغ : مصطفى مراد :

(بلادنا فلسطين) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٥

الراشد : سعد بن عبد العزيز :

(الرينة) ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٩٨٦

الزركلي : خير الدين محمود :

(الأعلام) ، بيروت ، طبعة ٣ / ١٩٦٩ ، ١٢ جزءا .

شيث خطاب : محمود :

(قادة فتح الشام ومصر) ، دار الفتح ، بيروت ، ١٩٦٥

صفوت : أحمد زكي :

(جمهرة خطب العرب) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، طبعة ٢ / ١٩٦٢ ،

٣ أجزاء .

(جمهرة رسائل العرب) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٧ ، ٤ أجزاء .

الطنطاوى : على وناجي :

(أخبار عمر) ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٥٩

عبد الباقي : محمد فؤاد :

(اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) ، المطبعة العصرية الكويت ، ١٩٧٧ ، ٣ أجزاء .

(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) ، دارمطابع الشعب ، القاهرة ، (ب ت)

العلي : عبد المنعم صالح :

(دفاع عن أبي هريرة) ، مكتبة النهضة ، بغداد ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٣

كحالة : عمر رضا :

(أعلام النساء) ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، طبعة ٢ / ١٩٥٩ ، ٥ أجزاء .

(معجم قبائل العرب) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، طبعة ٢ / ١٩٦٨ ، ٣ أجزاء .

محمد علي أدلبي : محمد عوامة :

(فهرس الأعلام المترجمين في الطبقات الكبرى لابن سعد) ، مؤسسة الرسالة ،

بيروت ، ١٩٨٦

ونسنت . آ . ي :

(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث السبوي) ، مكتبة بريل ، لندن ، ١٩٣٦ - ١٩٨٨ ، ٨ أجزاء .

دائرة المعارف الإسلامية ، طبعة ١ (الترجمة العربية) ١٣ جزءا .

الموسوعة الفقهية : وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، طبعة ٣ / ١٩٨٤

فهرس

الآيات القرآنية الواردة بالبحث وفق ترتيب ورودها بالمصحف الشريف

- ١ - يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى .. الآية - سورة المحمرات - الآية ١٣
- ٢ - يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ...
سورة النساء ، الآية الأولى .
- ٣ - نزل به الروح الأمين على قلبك . . الآية - سورة الشعراء ، الآية ١٩٣
- ٤ - وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ... الآية - سورة الرعد ، الآية ٣٧
- ٥ - قرآننا عربياً غير ذى عوج ... الآية - سورة الزمر ، الآية ٢٨
- ٦ - إن هذه أمتكم أمة واحدة ... الآية - سورة الأنبياء ، الآية ٩٢
- ٧ - إن الدين عند الله الإسلام . . الآية - سورة آل عمران ، الآية ١٩
- ٨ - ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .. الآية - سورة الحج ، الآية ٧٨
- ٩ - فإن توليتم فما سألتكم من أجر . . الآية - سورة يونس ، الآية ٧٢
- ١٠ - وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ... الآية - سورة البقرة ، الآية ١٢٧
- ١١ - ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب . . الآية - سورة البقرة ، الآية ١٣٢
- ١٢ - أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ... الآية - سورة البقرة ، الآية ١٣٣
- ١٣ - رب قد عاتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث .. الآية - سورة يوسف
الآية ١٠١
- ١٤ - يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ... الآية - سورة يونس ، الآية ٨٤
- ١٥ - إنه من ساميان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم . . الآية - سورة النمل : الآية ٣٠
- ١٦ - فتبسم ضاحكاً من قولها ... الآية - سورة النمل ، الآية ١٩

- ١٧ - وأسلمت مع سليمان ... الآية - سورة النمل ، الآية ٤٤ ﴿
- ١٨ - فلما أحس عيسى منهم الكفر ... الآية - سورة آل عمران ، الآية ٥٢
- ١٩ - ومن يبتغ غير الإسلام ديناً .. الآية - سورة آل عمران ، الآية ٨٥
- ٢٠ - لكم دينكم ولي دين - سورة الكافرون ، الآية ٦؛
- ٢١ - مالك يوم الدين - سورة الفاتحة - الآية ٣
- ٢٢ - يا أيها الرسل كلوا من الطيبات]...الآيتين - سورة المؤمنون ، الآيتان ٥١ و ٥٢
- ٢٣ - وما كان الناس إلا أمة واحدة ... الآية - سورة يونس ، الآية ١٩
- ٢٤ - لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ... الآية - سورة المائدة ، الآية ٥١
- ٢٥ - والله العزة والرسله وللمؤمنين ... الآية - سورة المنافقون ، الآية ٨
- ٢٦ - الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .. الآية - سورة الأنعام ، الآية ٨٢
- ٢٧ - إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . الآية - سورة الحج ، الآية ٣٨
- ٢٨ - ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً - سورة النساء ، الآية ١٤١
- ٢٩ - ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا ... الآية - سورة الأعراف ، الآية ٩٦



في آفاق لغة الوحي للأستاذ حسن عبد الله القرشي

هَمَّاءُ النَجْمِ ، يَعْنُوا لَعَنَـا بِهَا وَغَنَّى الزَّمَانُ عَلَى بَابِهَا
وَدَانْ لَهَا الْمَجْدُ وَهُوَ الْعِصَى وَأَرْخَى الْعِزَّ أَنْ لِحْطَابِهَا
تَرْقُرُقُ مَسْهَا الضَّيَاءُ الْبَهِيْجُ وَشَمْعُ شَمْعٍ فِي أَفْقٍ أَضْحَابِهَا
وَتَوَجَّهَـا اللهُ - يَا لِلْجَلَالِ بُوْحَى! تَجَلَّى بِمَجْرَابِهَا
غَمَائِمُهَا - ثُرَّةٌ بِالْحَيَاةِ وَوَشَّى الرُّبَيْعَ بِأَهْلِهَا
هِيَ (الضَّادُ) مَا ظَفِرَتْ أُمَّةٌ بِمِثْلِ جَزَائِهَا ، وَأَطْيَابِهَا
تَعَهَّدَهَا رَبُّهَا بِالْبَقَاءِ فَهَلْ مُحْدَبٌ فَيَنْضُ لِحْطَابِهَا ؟
تَلَأَّقَتْ فِي صَفَحَاتِ الْخُلُودِ فَتَنْجَابُ ثُرَّةٌ حُجَابِهَا
وَمَا شَفَّ عَنْ شُرُفَاتِ الْوُجُودِ كَمِثْلِ سَنَّا سَعَّ مِنْ غَابِهَا
فَمَا عَشَقَهَا عَيْرُ مَوْتٍ بِهَا غَرَامَا لِيَتَهَنَّا بِتَرْحَابِهَا
وَكَمْ يَحْفَرُ الصَّخْرَ صَبَّ بِهَا لِيَحْظَى بِتَرْشَافِ أَكْوَابِهَا
لِيَنْقَادَ مِنْهَا النَّفُورُ الشَّمُوسُ وَيُسْتَعَذَّبُ الْمُرُّ مِنْ صَابِهَا
وَيَنْهَمُرُ السُّدْرُ مِنْ بَحْرِهَا وَيَخْلُدُ الرَّحِيْقُ لِيَشْرَابِهَا
أَنْوَفُ هِيَ (الضَّادُ) أَنْ تُجْتَنَى لِيَغِيْرَ صَبُورَ لَانْعَابِهَا
لِيَلْغِيْرَ مُلْحٌ شَدِيْدُ الْمِرَاسِ أَعْمِيقُ الْمَعَانَا وَهَابِهَا
يَجُوبُ الدُّرُوبَ احْتِفَاءً بِهَا لِيُسْلِكَ فِي سِمِطِ أَقْطَابِهَا

* * *

(*) أُلْقِيَتْ فِي الْجُلُوسَةِ الثَّانِيَةِ صَبَاحَ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤١٠ الْمُوَافِقِ ٢٧ مِنْ فَبْرَايِرِ (شَبَاطِ)

١٩٩٠ م.

وَأَعْرَضَ عَنْهَا فَمِصِّرُوا الْأَذَى وَمَا مِنْهُمْ مَنْ تَغْنَى بِهَا
فَمَا عِبَاتُ بِالْأُلَى أَعْرَضُوا وَمَا وَصَلَتْهُمْ بِأَسْبَابِهَا

* * *

بَنِي (الضَّادِ) يَا جَمَرَاتِ الْحَيَاةِ
وَيَا شُهَبِ الْحَقِّ كَفُّوا الْأَذَى
هُوَ الدَّمُ نَادَى (بَنِي يَعْرُبِ)
عَنَّا الظُّلُمُ مِنْ مِتْحَدَّى الْكِرَامِ
أَسُودٌ عَلَيْنَا وَمَا مِنْهُمْ
وَأَرْغَمَ جَوْرُ الطَّغَاةِ الْأَبَاةِ
فَمَا مِنْ (مُشْنَى) يَسُوقُ الْخُتُوفِ
وَمَا مِنْ (صَلَحٍ) يَرْضُ الصُّفُوفِ
تَفَرَّقُهَا قَادَهُ الْكَلَالِ
تَمَادَى الْعَدُوُّ نَكَالًا بِهَا
وَلَا مِنْ نَصِيرٍ وَأَيْنَ النَّصِيرِ
تَنَامَتْ مَعَ الدُّلِّ تَارِيخُهَا
فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِصُورِاخِ النَّذِيرِ
فَلَجَّ الصَّبْرُ بِتَجْرِيجِهَا
وَمَا هِيَ إِلَّا جَنَى التَّضَحِيَاتِ
فَهَلْ يَا بَنِي (الضَّادِ) مِنْ وَثْبَةٍ
لَا عُدَاةَ لَهَا . وَلَسْهُ الْأَجَا
وَرُدُّوا الْبُعَاةَ لَاعْتَابِهَا
فَهَلَّا تَحْنُ لَأَنْسَابِهَا
حُمَاةَ (يَهُ-وَذَا) وَأَذْنَابِهَا
يَسُوقُ خَائِرِ النَّفْسِ هِيَ-أَبِهَا
لَتَعْدُوا لِيَصُولَةَ إِرْهَابِهَا
و (مُعْتَصِمٍ) دُونَ أَنْيَابِهَا
فَ وَيُقَصِّصِي الْعُرُوبَةَ عَنْ عَائِبِهَا
وَطُولِ التَّنَاحُرِ أَوْدَى بِهَا
فَجُنَّ الْهَوَانُ بِأَلْبَابِهَا
لِيَخَاضِلِ نَفْسٍ فَأَزْرَى بِهَا ؟
لِلْهُوَ الْحَيَاةُ ، وَالْعَلَا بِهَا
وَلَمْ تَسْتَشْفِ لَطَى مَا بِهَا
وَهَامَ الْعَدُوُّ بِأَغْضَابِهَا
وَأِنْ لَبِستُ غَيْرَ أَثْوَابِهَا
تَرُدُّ الْكِمَاةَ لَأَسْرَابِهَا !

* * *

ويا (مجمع الضاد) من صفوة
 عَلمت بالنهى فوق هام الدنى
 تسامت على ترهات الزمان
 وقدمت الشهد ، كم غادرت
 وكم قد أراقت ضياء العميون
 شجى بما بذلت فى غد
 وتزهى بها غُرُفات النعيم
 فغَارُ النجوم لأخسائها
 وعزت بجـ وهر آرابها
 فلم تسـ ترق لأوصائها
 حطام الحياة لأنصائها
 فدى (الضاد) قربى لأحبائها
 جزاناً تهش لطـلابها
 فدار البقاء لأربابها !

حسن عبد الله القرشى
 (عضو المجمع المراسل من السعودية)



شارك في مراجعة تجارب الطبع مع أمين التحرير
السيدة / سميرة صادق شعلان
المحرر الثاني بإدارة التحرير والشئون الثقافية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٣/٦٣٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٧٣٢٦ — ١٩٩٠ — ٣٠٠٢

